كتاب تاريخ الأزمنة

الفصل الأول

نشأة الإسلام وظهور الدعوة

- **ظهور الإسلام:** يقول أبو جعفر بن جرير الطبري إن أول مَن أظهر دين الإسلام وقام بأمره هو أبو القاسم محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف، المولود في بطحا، مكة، في السنة اثنتين وثمانين وثمانماية للإسكندر ذي القرنين. توفي والده قبل ولادته بشهرين ووالدته وهو في سن السنوات الست، وكفله عمّه أبو طالب حتى بلغ ثماني سنين. ولمّا بلغ الأربعين من عمره دعا في شهر ربيع الأول سنة تسعماية واثنتين وعشرين للإسكندر، وتبعه إلى الإسلام سرّاً تسعة أشخاص. وفي السنة الرابعة والأربعين من عمره أظهر الدعوة إلى رفض عبادة الأصنام وأمر بالإيمان بالله وحده صمد، لا يولد ولا يلد، وأمر بالختان، وبأن لا يؤكل الدم ولا المايتة ولا لحم الخنزير بموجب سُنّة التوراة. كذلك فرض على أمته صوم شهر رمضان والصلوات الخمس والزكاة والحج إلى الحرم، وأمرهم بتصديق الأنبياء والرسل وما أنزله الله عليهم... وأنّ المسيح روح الله وكلمته ورسوله على رأي أريوس، وصدّق الإنجيل والتوراة.
- **مقاومة قريش:** وأما قريش وأتباعهم الذين كانوا متقلّدين الدرجات الأولى في مدينة مكة ومتمسّكين بعبادة الأصنام فلم يوافقوه على ذلك، بل ناصبوه العداء وكتبوا صحيفة علّقوها في الكعبة وفيها أنّ بني هاشم لا يعاملون بني المطلب ولا يخالطونهم.
- **الهجرة:** ولما كان لمحمّد أربع وخمسون سنة هاجر إلى المدينة في شهر ربيع الأول وبنى له فيها مسجداً ومساكن، وكان ذلك في بدء سني الهجرة، أي سنة ستماية واثنتين وعشرين للسيّد المسيح. وهناك أتاه العرب من النصارى واليهود والمجوس والصابئة وغيرهم وبايعوه وأخذوا منه الأمان مقابل تأديتهم الجزية والخراج، والذين امتنعوا عن ذلك قاتلهم وحاربهم.
- **غزوة بدر:** في السنة الثانية للهجرة (٦٢٣م) كانت غزوة بدر الأولى، ثم غزوة بدر الكبرى التي

قُتل فيها أشدّاء قريش.

- **كسرى**: وفي تلك السنة ضيّق كسرى على النصارى وأثقل الخراج عليهم، وهدم كنائسهم في الشام والجزيرة ونهب ما كان فيها من الذهب والفضة وحتى الرخام. وكان الملك هذا متزوجاً من بنت موريق ملك الروم الذي كان محبّاً للنصارى الرومان، ولأجل حبّه لها جاءه ولد عمّده لدى غريغوريوس بابا روما.

ولكن بسبب فوقاس قبض على موريق وقتله وزوجته وأولاده وبناته، واستولى على ملكه، ما أثار غضب كسرى وتحرّك للإنتقام إلى عمّه موريق فزحف بجيش الفرس على بلاد أرمينيا والشام ومصر وهدم مدنهم وأحرق ضياعهم ودمّر كنائسهم وقتل نساءهم، وفتح إنطاكية ودمشق وبيت المقدس وهدم هيكل القيامة الذي بناه الملك قسطنطين، وقتل من نصارى القدس نحو تسعين ألفاً وباع الباقين لليهود وأخذ مَن تبقّى معه سبايا، ومعهم خشب الصليب والبطريرك زكريا. ولم يكتفِ بذلك بل سلّط اليهود والعرب على النصارى فدمّروا ما تبقّى من كنائسهم ونهبوا أموالهم وقتلوا أربعمئة وأربعين من رهبانهم.

- **هرقل الملك** (٦١٠ - ٦٤١): لمّا رأى الروم خراب المملكة قتلوا فوقاس وأقاموا بدلاً منه هرقل بن بولس ملكاً، فأرسل إلى كسرى في شأن الهدنة متعهّداً له بإرسال الخراج كل سنة، فلم يلقَ منه جواباً. ثم راجعه ثانيةً كتابةً طالباً الصلح على أي شرط يريد، فأجابه بأنه لا يرضى عليه إلاّ إذا كفر بالمسيح هو وشعبه ويعلن عبادته للشمس. ثم حرّك عليه ملك البلغر وأقام الحصار على القسطنطينيّة وأطلق جيوش الفرس في كل بلاد الشرق، وكتب أمير الجيش إلى هرقل بأن يرسل له سبعين رجلاً ليعقد الصلح بينه وبين كسرى، ولمّا وصل هؤلاء سلّمهم إلى الملك الذي سلخ جلودهم.

- حيال ذلك سارع الملك هرقل إلى توقيع الصلح مع البلغر، وعندما لم يتوافر له المال لشنّ الحرب على الفرس جمع كل محتويات الكنائس والأديرة من الأواني المقدّسة وضرب منها السكة ليوزعها على الجند لتخليص المدينة والكنائس من أيدي الكفرة. ثم رفع صورة المسيح وخرج بجيش الروم إلى بلاد البنطوس وأرمينيا واجتاح كل بلاد الفرس وأهلك جيشهم وعاد ظافراً إلى القسطنطينيّة ومعه غنائم نفيسة.

- **هزيمة اليهود**: تلت هزيمة الروم هزيمة لليهود (السنة الثالثة للهجرة) إذ حاصرهم المسلمون

في حصونهم وهزموهم وغنموا أموالهم. وفي السنة عينها زحف هرقل بجيشه على بلاد الفرس وهزم جيشهم في مواقع عدّة، وفتح شميساط، فردّ كسرى بإحراق كنائس النصارى الذين في بلاده واستباح أرزاقهم وأرغمهم على اتّباع مذهب النساطرة ليثير غضب الملك هرقل.

- **بنو النضير**: أما في السنة الرابعة للهجرة (٦٢٥م) نزل النضير من حصونهم في بلاد العرب وارتحل بعضهم إلى عند عرب خيبر والبعض الآخر إلى الشام، فلاحقهم المنذر وفتك بهم عند بئر معاوية.

- **إنتصارات الملك هرقل**: وتمهيداً للظفر بهرقل مدّ كسرى يده إلى شهريار بن ادريان ملك البلغر وعقد معه هدنة، وكذلك مع المرازبة والمقدمين، فتسنّى له حشد جيشٍ من خمسين ألف رجل وزحف به على القسطنطينيّة والتي تعرّضت للغارات طوال عشرة أيام.

إلاّ أنّ هرقل كشف خطّة كسرى، فقسم جيش الروم إلى ثلاث فرق، واحدة أبقاها في القسطنطينيّة لحماية المدينة، وثانية أرسلها بقيادة أخيه تاودوروس لمواجهة زوربهار قائد جيش الفرس، وثالثة هاجم بها بلاد الفرس، وكان له النصر في كل هذه الاتجاهات.

- **سحق الفرس ومصرع كسرى**: إلاّ أنّ ملك البلغر والمرازبة أصرّوا على عدم خروجهم عن طاعة هرقل، الذي أخضع بلاد الفرس، وعندما دخل مدينة الرها اجتمع له ثلاث ماية ألف فارس، إلى أربعين ألفاً من ناحية الحرر، زحف بهم على نينوى والتقى بزوربهار مقدّم قائد عسكر كسرى فهزمه وقتله مع الكثيرين من جيشه قيل إنهم بلغوا خمسين ألف قتيل. ولمّا بلغ الأمر إلى كسرى فرّ من الماحوره إحدى قرى بغداد، فاستولى هرقل على ذخائره وعمل في تلك الناحية سبياً وقتلاً وحرقاً.

وفي هذه السنة الخامسة للهجرة هرب كسرى بأمواله وعياله أمام هرقل إلى جبل الموصل حيث وقع في قبضة سرويه قبل أن يسجنه ثم يقتله مع كل أمراء المملكة عقاباً لهم على ظلمهم وجورهم على الناس. ثم كتب سرويه إلى هرقل طالباً الهدنة والأمان فأجابه الملك إلى ذلك شريطة أن يعيد كل ما كان أبوه أخذه من الأسرى من بلاد الروم. ولذلك أرسل أخاه تاودوروس إلى الجزيرة والشام ليطرد منهما الفرس، حيث وصل إلى هناك بنفسه وأمر النصارى بالتخلّي عن النسطورية ويعودوا إلى ديانتهم.

- **غزوة بني قريظة وتفشّي الطاعون**: وشهدت تلك السنة أيضاً غزوة اليهود بني قريظة في بلاد

العرب، إذ حاصرهم المسلمون خمساً وعشرين ليلة حتى ظفروا بهم وقتلوا نساءهم وسبوا ذراريهم وتقاسموا أموالهم. كما ضرب مرض الطاعون بلاد فارس وأهلك الكثيرين، ومنهم سرويه بن الملك كسرى في الشهر الثامن من ملكه.

- **عودة هرقل ظافراً**: شهدت السنة السادسة للهجرة دخول الملك هرقل القسطنطينيّة بأبهة عظيمة وبصحبة زكريا بطريرك بيت المقدس وكل الأسرى من بلاد الفرس، وهم يحملون عود الصليب والمصابيح والمباخر وأغصان الزيتون وسعف النخيل.

- **نهاية ملوك فارس**: بعد وفاة سرويه ملك ابنه اردشير لخمسة أشهر قبل أن يُقتل، ثم خلفه رجل من خارج بيت المملكة يدعى شهريار الذي قتلته إمرأة من بيت المملكة في اليوم الثاني والعشرين لملكه، ليملك بعده كسرى بن قباذ بن هرمز لثلاثة أشهر حين انقضّ عليه صاحب خراسان وقتله. بعد كسرى ملكت ابنته توران سنة ونصف السنة فأحسنت إدارة المملكة ووزّعت المال على الجند ليملك بعدها خشنده ابن عم كسرى، ليُخلع وتحلّ بعده ازمري بنت الملك كسرى التي حكمت لسنة وأربعة أشهر وماتت بالسم، وملك بعدها فرخزاد بن كسرى شهراً واحداً ويُقتل.

- **هرقل الملك في القدس**: رفع هرقل خشبة الصليب وتوجّه إلى بيت المقدس، ومعه البطريرك زكريا (في السنة ٦٢٨م) ثم ترجّل عن جواده ونزع عنه ثياب الملوك وسار حافياً بعود الصليب ومكشوف الهامة، تمثُّلاً بدخول المسيح المتواضع، وأمر بأن تُعاد هذه الذكرى كل سنة، وأعاد بناء الهيكل إلى ما كان عليه سابقاً، وأمر بأن لا يسكن اليهود إلاّ بعيداً من المدينة المقدسة.

- **المجمع الخلقيدوني وقضيّة المونوطيلية (٦٢٩م)**: عاد الملك هرقل إلى الرها وأقام إتناسيوس بطريركاً على إنطاكية خلفاً للمتوفى غريغوريوس، على عهد أن يكون متمسّكاً بالمجمع الرابع الخلقيدوني الذي أثبت الطبيعتين الكاملتين للمسيح الإلهيّة والبشريّة.

- **وفاة نبي الإسلام محمّد**: في السنة الحادية عشرة للهجرة (٦٣١م) توفي النبي محمّد، وقيل إنه كان مؤثراً للنصارى رؤوفاً بهم، فرض عليهم الجزية وأعطاهم الأمان، وقال مَن آذى ذمّياً فقد آذاني وقال لعمر عن المسيحيين إن نفوسهم كنفوسنا وأموالهم كأموالنا وأعراضهم كأعراضنا.

- **مبايعة أبي بكر الصديق**: ويوم وفاة محمّد اجتمع الأنصار أهل المدينة ليبايعوا سعد بن عباده

الأنصاري بالخلافة، وحصل لغط من المهاجرين وطرحوا عمر بن الخطاب أميراً للأنصار وأبا عبيدة بن الجراح أميراً عن المهاجرين. عندها قال عمر لأبي بكر أبسط يدك لنبايعك، ففعل، وبايعه المهاجرون والأنصار، وكان ذلك في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة.

- **الردة:** بعد ذلك منع مسلمة الزكاة، وتسمّى طليحة نبياً وتبعه قومه من بني أسد، فسيّر أبو بكر الجيوش لقتال المرتدّين، وأقام أحد عشر لواءً، فسار خالد بن الوليد لقتال طليحة وهزمه وقتل مالك بن نويره وصحبه، فيما توجّه عكرمة بن أبي جهل إلى قتال مسيلمة، فاجتمع إليه نحو أربعين ألفاً من مسلمي اليمامة فقتل مسيلمة وعشرة آلاف من رجاله، وعاد مَن بقي حيّاً منهم إلى الإسلام.

- **جمع القرآن:** ثم أمر أبو بكر الصديق بجمع القرآن لئلاّ يضيع منه شيءٌ، علماً أنّه كان ما يزال في حنط الرجال وفي الرقاع، وسمّاه مصحفاً.

الفصل الثاني

فتح سوريا (١٢ - ١٧هـ - ٦٣٣ - ٦٣٨م)

يورد المؤلّف في مستهلّ هذا الفصل ملاحظة ذات شقّين، الأول أنّ «الكلام عن فتح سوريا يستلزم الكلام عن فلسطين، والعراق، وزلزال فلسطين وحملة سوريا، وفي غضونها عن وفاة أبي بكر الصدّيق ومبايعة عمر، وفتح غزة ولبنان، والروم، وفارس، وفتح دمشق وطرابلس وحمص وقنسرين والرملة والقدس والمدائن وإنطاكية...»، والثاني إشارته إلى أنّه يأخذ تلك الوقائع «نقلاً عن الكرّاسة التي نشرها المؤرخان بولس قراعلي والشيخ نسيب وهيبه عن مخطوطة الدويهي في بكركي».

- **فلسطين**: زحف أبو بكر بجيش من المسلمين، «السراكنة»، وفق ما كان يسمّيهم الفرنج، إلى فلسطين، حيث قُتل والي كورة، وتمّ نهبها والتنكيل بأهلها، حتى قال المؤرخ عن الفرنسيّة: «في هذا العصر ظهرت في السماء آيات مخيفة في إشارة إلى استيلاء المسلمين على سلطنة الروم وهدمها».

- **العراق**: ثم أمر أبو بكر خالداً بن الوليد بالسير نحو العراق في العام الثاني عشر للهجرة، (أي ٦٣٣م) فصالح أهله على أن يدفعوا الجزية، ثم احتلّ الأنبار وعين اليمين وقتل المنذر وسبى ابنه وغنم من المال الكثير.

وبعد عام على غزوة العراق ومقتل المنذر على يد خالد بن الوليد، أيّ في السنة ٦٣٤م، تعرّضت أرض فلسطين لهزّة عنيفة لثلاثين يوماً من الزلزلة الشديدة، وظهر في السماء سيف مسلول طالب الانتقام من شعب النصارى وتفشّى فيها وباءٌ كبيرٌ جداً.

- **حملة سوريا**: وفي السنة إيّاها، أعدّ أبو الشام عدّته لحربٍ واسعة، فأرسل عمر بن العاص إلى فلسطين ويزيداً بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة إلى البلقاء من أعمال دمشق، وخالداً بن سعيد بن العاص إلى تيماء في بلاد الشام. وعبر بطريق الروم من غزة بجيش جرّار فوقعت الهزيمة على الروم وقُتل منهم أعداداً كبيرة فهُزموا وتقهقروا حتى بيت المقدس

وقيسرية وتحصّنوا هناك، فتركهم المسلمون وأكملوا زحفهم إلى البتنية، أي البثنية، في دمشق الشام.

وبعد الانتصار في حملة سوريا، فتح المسلمون مدينة بصرى، وهي أولى المدن التي أخذها جيش المسلمين في الشام، ثم احتلّوا طبرية فلسطين والساحل، ونزل خالد بن سعيد في المرج الصُفَّر، فقطع عليهم الروم الطريق في قتال تأخيري، فقُتل ولد سعيد ومعظم مَن كان معه، وهرب بعض صحبه إلى ذي المروه. ولمّا بلغ أبا بكر الخبر، دفع معاوية بن أبي سفيان إلى أخيه نجدة من جند المسلمين، فيما كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد في العراق يأمره على أجناد الشام وأن يسيّر إليهم بشطر ممَّن معه، فلبّى خالد الأمر بتسعة آلاف مقاتل.

- **وفاة أبو بكر الصديق:** وفي السنة إيّاها توفي أبو بكر بمرض السلّ، وقال فيه صاحب «دوحة الأزهار الاسحاقية» إنّه أول مَن دعي أمير المؤمنين وأول مَن كتب التواريخ وأول مَن جمع القرآن والصحف وجمع الناس في قيام شهر رمضان.

وتميّزت السنة الثانية من خلافته بغزوات كثيرة شنّها المسلمون على الروم وانتصروا فيها، لكن خلافته لم تدم أكثر من سنتين وثلاثة أشهر، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة. كما قال فيه أبو جعفر الطبري: «وكان أبو بكر الصديق يفرّق في كل ليلة جمعة ما يُجمع في بيت المال على أربابه، الجند أولاً، ثم بعدهم العلماء والمستحقّين».

- **عمر بن الخطاب:** بعد وفاة أبي بكر بويع عمر بن الخطاب بالخلافة كثالث أمراء المسلمين، وكانت لعمر غزوات كثيرة ضد الروم كان الظفر فيها لجيش المسلمين. (وقال العلاّمة الدويهي في كتابه الذي طبعه الشرتوني السنة ١٨٩٠ - الصفحة ٦٨، نقلاً عن كتاب قديم نسخه داود بن ابراهيم السنة ١٣١٥: «إنه في ابتداء دولة العرب كان يوسف ملكاً أو أميراً على جبيل، وكسرى على الداخلة ومن اسمه سُمّيت كسروان. وكان أيوب متولّياً قيسارية فيلبس وبيت المقدس إبّان ولاية عمر بن الخطاب، وبعد أيوب قام الياس الذي أنجد هرقل الملك عند قدومه إلى بلاد الشام»). وفي الحاشية أنّ الأمير الياس هذا دخل بعدئذ على تدبير جبيل وجبل لبنان وأخذ في صحبته اثني عشر ألفاً من الأبطال وسار بهم إلى بلاد أرمينيا وقاتلوا جيش صابور الفرنسي وهدموا حصونهم، ثم غزوا سواحل البحر والبقاع.

- **فتح غزة ولبنان:** ثم إنّ المسلمين حاصروا مدينة غزة الفلسطينيّة واحتلّوها فاشتدّت ساعدهم

وراحوا يتحركون في محيط دمشق. وفي أيام عمر بن الخطاب كان يوسف ملك جبيل ولبنان، وكسرى وليّاً على كسروان، فأتى كسرى لنجدته. وفي السنة الثالثة عشرة للهجرة سيّر عمر أبا عبيدة بن مسعود واليقفي إلى بلاد فارس، فقاتلهم وانتصر عليهم وقتل من المشركين خلقاً كثيراً. لكن أبا عبيدة قُتل في واقعة الحيرة مع كثير من جيش المسلمين الذي هُزم، ثم حصلت واقعة البويب، وكانت هزيمة للمشركين وقُتل منهم جمعٌ كبير.

- **العرب المتنصّرة:** ولمّا بلغ هرقل ملك الروم أنّ المسلمين احتلّوا طبرية فلسطين، سارع في الانتقال من حمص إلى إنطاكية، وأمر بحشد جيش عظيم من غسان وجذام ولخم، وهاجم بطريق ماهان (الصواب باهان وفق الطبري) متوجّهاً إلى دمشق طالباً إلى عامله منصور أن يغدق على جيشه المال.

- **فتح دمشق:** في السنة الرابعة عشرة للهجرة، والثانية من خلافته، أمر عمرو بن الخطاب بزحف العسكر لأخذ دمشق، وقضت الخطّة بأن ينزل خالد بن الوليد بباب شرقي المدينة، وأبو عبيدة بن الجراح بباب الجابية، وعمرو بن العاص بباب توما، ويزيد بن أبي سفيان بباب الصغير، فباتت دمشق وسط حصارٍ شديدٍ ومحكم، في ظل توجيه المنجنيق إليها، واستمرّ الحصار ستة أشهر. وكانت بين الطرفين حروبٌ كثيرة، حتى أنّ منصور، عامل دمشق، طلب من خالد بن الوليد الأمان لمن في المدينة من الروم، فاستجاب له وفتح له الباب، ودخل خالد بن الوليد إلى دمشق وأمر عسكره بإغماد السيوف. ولمّا بلغ باقي الروم دخول خالد المدينة فرّوا هاربين وأخلوا الأبواب من الجند، فبادر أبو عبيدة إلى دخولها بالسيف من الأبواب الأخرى واحتدم القتال إلى أن التقى خالد ومنصور ومعه منشور الأمان. ثم بعد نقاشٍ اتفقوا على الأمان في وثيقة كُتبت بخطوطهم، وهكذا صار بعض جامع دمشق كنيسة لأجل الأمان الذي أعطاه خالد، وبعضه الآخر مسجداً لأنّ أبا عبيدة دخل المدينة عنوةً بالسيف. أمّا منصور فأخذ معه مَن بقي من الروم ولحق بهرقل إلى إنطاكية. ولمّا أيقن هرقل أنّ دمشق قد سقطت، قطع الأمل في كل بلاد الشام مردّداً: «السلام عليك يا سوريا»، وسار نحو القسطنطينيّة.

- **فتح طرابلس وبعلبك:** لما بويع عمر بن الخطاب بالخلافة عزل خالداً بن الوليد عن الشام وولّى أبا عبيدة وجعله أميراً على جيوش المسلمين فيها لفتح طرابلس، فشنّ عبدالله الغارة على دير أبي القدس شمال المدينة، وجاء خالد بن الوليد بجيش لنجدته، فدارت رحى معارك شديدة

ولم يتمكنوا من السيطرة عليها، فأخذوا ابنة صاحب طرابلس مع جواريها. أمّا أبو عبيدة فغادر بخمسماية فارس إلى الشام، وزحف بجيشه على بعلبك حيث دار قتال شديد، انتهى بإقامة رافع بن عبدالله عليها مع خمسماية فارس من عشيرته وأربعماية من المسلمين، وأتى إليه صاحب عين بجد وصاحب جوسيد بالخدم فصالحهم.

- **فتح حمص:** ثم سار أبو عبيدة نحو حمص وقسّم جيشه إلى أربع فرق، نزلت الأولى في باب الجابية، والثانية في باب الرستن، وهي بلدة قديمة على نهر العاصي، والثالثة على باب الطواحين، والرابعة مع أبي عبيدة وخالد بن الوليد في باب اللبوة الصغير فوجدوهم متأهّبين للقتال ومعهم ما يكفي من الزاد وآلات الحرب، فارتحلوا عن حمص ونزلوا إلى الرستن، وكاتبوهم على الصلح فأبوا. عندها طلبوا إليهم أن يودعوهم بعض معدّات القتال ريثما يعودون، فأجابهم إلى ذلك تيقيطا البطريق وكان ثريّاً معروفاً منهم. وهكذا أدخل أبو عبيدة عشرين رجلاً من أبطال جماعته في عشرين صندوق كانت معدّة للطعام وأدخلوهم إلى الحصن. ولما حلّ الظلام خرج الرجال من الصناديق مع سلاحهم إلى داخل الرستن، وبادر خالد بن الوليد إلى نجدتهم زاحفاً من جهة باب حمص التي سقطت من دون قتال، ثم تمّ فتح حماة.

وفي السنة الخامسة عشرة للهجرة، الرابع عشر من شباط السنة ٦٣٦م نزل أبو عبيدة وخالد إلى حمص فحاصراها مدّة، ثم صالح المسلمون أهلها على الجزية وأمّنوهم. ثم بعث أبو عبيدة خالداً إلى قنسرين مع جيشه، فتصدّى لهم متياس العامل (حافظ المدينة) بجمعٍ كبيرٍ من الروم حتى قُتل متياس واستسلمت حمص.

- **قنسرين:** سأل بطريق قنسرين أبا عبيدة إقامة هدنة لسنة بين الروم والمسلمين فاستجاب له وعقد الصلح بعدها.

- **فتح أورشليم والرملة:** في السنة ٦٣٧م جرّد عمرو بن العاص حملة على الرملة في فلسطين وحاصرها، ثم دخلها صلحاً، وتابع زحفه إلى أورشليم وحاصرها حصاراً شديداً، حتى ضاق سكانها بعدما استنفدوا قواهم عبثاً في الدفاع عنها فطلبوا الصلح، شريطة أن يضمن لهم عمر الأمان فنالوه وفق الوثيقة الآتي نصّها: «بسم اللّه الرحمان الرحيم. من عمر بن الخطاب إلى أهالي مدينة القدس. ليكن الأمان عليهم وعلى دمهم وأولادهم ونسائهم وأرزاقهم وكنائسهم، ولا تهدّم منها واحدة ولا أحد يملك واحدة منها أصلاً». وسنداً إلى ذلك دخل عمرو المدينة وجلس في

صحن كنيسة القيامة، لكنه عندما حان وقت الصلاة لم يرد تلاوة صلاته في الكنيسة لئلاّ يكون ذلك ذريعة لمطالبة المسلمين بها في ما بعد، فخرج منها حيث صلّى في البستان عند باب الكنيسة. ولم يكتفِ بذلك بل سلّمهم وثيقة تنصّ على أنّه لا يحق للمسلمين أن يصلّوا في هذا البستان التابع لكنيسة القيامة إلاّ واحداً بعد آخر، كما لا يحق للمسلمين الاجتماع هناك للصلاة أو أن يتنادوا لقيام الصلاة في ذلك الموضع أصلاً.

ثم إن عمر طلب من البطريرك صفرونيوس أن يدلّه إلى مكان لائق ليقيم فيه مسجداً لإقامة الصلاة، فأهداه البطريرك إلى الصخرة التي كلّم اللّه عليها يعقوب كليمه. لكنّ الصخرة كانت مغمورة بترابٍ كثير، فانحنى عمرو وأخذ بعض التراب في طرف ردائه، وإذ رآه المسلمون هبّوا جميعاً وحذوا حذوه فتمّ تنظيف الصخرة، وأمر عمرو بأن يباشروا ببناء المسجد عليها. وسرعان ما قام المسجد، وكرّس عمرو أساسه وتكفّل بنفقات صيانته وكل الترتيبات الضروريّة مستقبلاً.

ثم تابع عمرو سيره إلى بيت لحم المدينة فدخلها وصلّى في كنيستها حيث وُلد عيسى بن مريم (يسوع الفادي)، وأصدر أمراً خطيّاً حتّم بموجبه على المسلمين ألاّ يقيموا الصلاة في هذا المكان المقدس إلاّ واحداً واحداً وألاّ يجتمعوا فيه ولا يتنادوا إلى الصلاة هناك أبداً.

- **في بلاد الفرس والعجم:** بعد بيت لحم، في السنة الخامسة عشرة للهجرة عينها، زحف جيش المسلمين إلى المدائن في العجم وكان في قيادته سعيد بن أبي وقاص الذي خاض مع أهلها وعسكرها معارك بالغة الشراسة، أسفرت عن استيلاء المسلمين على تلك البلاد وأخذوا كنوزها التي قُدّرت بنحو ألف ألف ألف دينار، إضافةً إلى الصناديق الرصاصيّة المعبّأة بالآنية الذهبيّة والفضيّة والكافور، وبينها تاج الملك المرصّع بالذهب والجواهر الكريمة، إلى حلل الحرب والطاسات التي كان يرتديها الملك إبّان الحروب، والإيوان الخاص باستقبال الملك زائريه عندما يكون بعيداً من قصره، والسجّاد النفيس المصنوعة إحداها من الحرير الفاخر قيل إنّ طولها ستون ذراعاً وعرضها ستون. كل هذه الغنائم عمد الخليفة عمرو إلى توزيعها على المسلمين والعساكر، وكان لعلي منها نصيبٌ زهيد باعه بعشرين ألف دينار فقط، وهو مبلغ متواضع جداً، وفق الطبري وابن الأثير وابن العميد.

- **فتح إنطاكية ونهاية مملكة الفرس:** يقول ابن العبري في كتابه «تاريخ مختصر الدول» ص ١٧٣ ما حرفيّته: «لمّا رأى العجم أنّ العرب السراكنة قد أخذوا أطراف بلادهم وشنّوا الغارة

في أرضهم، اجتمعوا وخلعوا بنت كسرى ارزمي دخت وأجلسوا مكانها على سرير الملك يزدجرد، غلاماً عمره إحدى وعشرين سنة، بايعوه على السمع والطاعة لأنّه من عقب كسرى بن هرمز. فاستجاش يزدجرد جنوده من آفاق مملكته، وولّى عليهم رجلاً من عظماء مرازبته، له سنّ وتجربة، يقال له رستم، فوجّهه إلى الحيرة ليحارب مَن ورد عليه هناك من العرب، وعقد أيضاً لرجل آخر من حرّ سادات العجم يسمّى الهرمزان في جنود كثيرة، ووجّهه إلى ناحية الأهواز لمحاربة أبي موسى الأشعري ومَن معه من العساكر. وعند الالتقاء، قُتل هذان المرزبانان العظيمان ومرّت جيوش العرب في أثر العجم يقتلون مَن أدركوا منهم وينهبون، وهرب ملكهم إلى فرغان وكان آخر ملوكهم».

- **نهاية الحروب مع الروم واغتيال عمر:** شهدت السنة السابعة عشرة للهجرة (٦٣٨م) سلسلة حروب في جهات حمص شنّها ملك الروم هرقل بجحافل كبيرة من العسكر، لكن من دون جدوى ولا فائدة تُذكر بفضل أبي عبيدة القائد العربي المحنّك والمتمرّس بالحرب والذي كان في تلك الأثناء في مدينة حمص. وإذ شعر أبو عبيدة بالخطر المحدق به سارع إلى طلب النجدة من الخليفة واتخذ الاحتياطات الدفاعيّة اللازمة، وعلى الفور سارع عمرو إلى نجدته بأربعين ألف فارس هاجموا جيوش الروم وهزموهم وشتّتوا شملهم ودحروا فلولهم وفتحوا حمص عنوة. وإذ رأى عمرو أنّ فلسطين والأماكن المقدسة استسلمت لهم لشدّة الرعب الذي ضربها، فرض على سكانها الجزية والخراج يدفعونهما وهم صاغرون. ورغبة منه باستغلال الانتصارات التي حقّقها جيش المسلمين في سوريا وفلسطين، وجّه إلى ابن العاص أمراً بوجوب التوجّه على رأس جيوشه إلى مصر ليفتحها ويستولي على أراضيها الغنيّة فتؤدي له الجزية شأنها شأن كل البلدان المهزومة أمام جيوش المسلمين الظافرة.

لكن المنية لم تمهل عمراً فقُتل، وفق ابن العبري ص ١٧٤ إذ قال: «مات عمر يوم الأربعاء لخمس بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة، وكان عمره ٦٣ سنة، وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وسبعة عشر يوماً، قتله أبو لؤلؤة فتى المغيرة ابن شعبة في صلاة الفجر. وكان السبب في ذلك أنّ أبا لؤلؤة جاء إليه يوماً يشكو ثقل الخراج وكان عليه كل يوم درهمان. فقال له عمر ليس ذلك بكثير في حقّك، فإني سمعت عنك أنّك لو أردت أن تدير الرحى بالريح لقدرت عليه. فقال لؤلؤة: لأديرنّ لك الآن رحىً لا تسكن إلى يوم القيامة، وطعنه بالخنجر في خاصرته طعنتين،

الفصل الثالث

في الفتوحات المصريّة وحروب المسلمين
(من السنة ٦٣٩ - ٦٦١ = أيّ من السنة ١٨هـ إلى ٤٠)

- **الاتفاق بين العرب والأقباط:** في السنة الثامنة عشرة للهجرة (٦٣٩م) زحف عمرو بن العاص بجيشٍ جرّار على مصر ليفتحها، فحاصر مدينة الفسطاط سبعة أشهر وكان الحصار شديداً جداً، في وقت كان المقوقس حاكماً أو عاملاً على مصر من جانب هرقل ملك الروم، فتشاور مع الأقباط سكان مصر وزعمائهم، وتمّ الاتفاق على أن يطلب المقوقس الصلح من عمرو على أن تُدفع الجزية له بمقدار دينار عن كلّ رجل، إضافةً إلى دفع كلفة الضيافة طوال ثلاثة أيام عن كلّ مسلم. وكان الأقباط يكرهون الروم، وغير راغبين أصلاً في التعامل معهم بسبب جشعهم وكبريائهم، ما جعلهم يرون في العرب منقذاً لهم من كيد الروم وغطرستهم.

قَبِلَ عمرو بعقد الصلح ووقّع شروطه هو وأعداؤه في حضور نحو ستة آلاف رجل، وفيها أن يدفع الأقباط أربعة دنانير عن كلّ رجل منهم، وأما النساء والشيوخ والرهبان والأولاد الذين هم دون السادسة عشرة سنة فتمّ استثناؤهم من الشريعة ولا يدفعون الجزية أصلاً، وفق ما جاء في كتاب الرافدي «فتوح الشام المطبوع في القاهرة: السنة ١٣٨٢هـ ص ٨٤».

ثمّ وجّه عمرو جيوشه ناحية مريوط في مصر حيث كانت جيوش الروم تحشد قواها، فالتحم الجيشان وهُزم جيش الروم وتشتّت شمله، فتابع الجيش المنتصر زحفه نحو قرم الشيخ فأخذها عنوة وهزم جيوشها ودكّ حصونها، ثمّ توجّه إلى مدينة الاسكندريّة فحاصرها، لكنّ جيوش الروم كانت احتاطت للأمر وحصّنتها وعزّزت حصونها ومداخلها، كما التفّت حوله فلول الجيش المهزوم الهاربة من معارك مريوط وقرم الشيخ وأوقفت هجومه.

- **شجب البدعة المونوطيلية:** في السنة ٦٤١م عُقد في مدينة رومية مجمع لشجب البدعة المونوطيلية المضادة لوجود شيئين في السيّد المسيح، بعدما كان القدّيس مكسيموس قد بشّر في أفريقيا بتعاليم الكنيسة المقدّسة المضادة لهذه البدعة وإظهار ضلالها. كما أنّ الملك هرقل

الرومي كان صرّح علناً بأنّ سرجيوس بطريرك القسطنطينيّة هو الذي خدعه يوم كان عائداً منتصراً من حربه ضدّ الفرس ودفعه إلى الأخذ بمثل هذه الأقاويل المغايرة لدين اللّه، ثمّ أعطى أوامره بوجوب الاعتراف بالارادتين في السيّد المسيح.

وفي هذا السياق جاء على لسان البطريرك الدويهي ما يأتي:

«عقدت عدّة مجامع لشجب المونوطيلية وتحريم الأخذ بها على أثر نشأتها في أماكن مختلفة: من هذه المجامع:

أولاً: مجمع أورشليم الذي عقده القدّيس صفرونيوس البطريرك سنة ٦٣٥ ودعا إليه جميع أساقفة فلسطين لتحريم البدعة وتبيان ضلالها.

ثانياً: مجمع رومية الذي عقده البابا تاودورس سنة ٦٤٦ للغاية نفسها.

ثالثاً: مجمع رومية الثاني الذي عقده البابا مرتينوس الأول سنة ٦٤٩. ثمّ مجمعان عُقدا في مدينة ميلانو الايطاليّة وذلك سنة ٦٧٩. ثمّ مجمع رومية الثالث الذي عُقد سنة ٦٨٠ كمقدّمة للمجمع المسكوني السادس المنعقد في القسطنطينيّة وقد ترأسه معتمدو البابا اغاتون ثمّ مجمع القصر الذي سعى بعقده يوستنيانوس الأخرم سنة ٦٩٢، وهذا المجمع ولئن كان يُعتبر غير شرعيّ إلاّ أنّه جدّد البحث في أساس هذه البدعة وتحريم تعاليمها وشجب القائلين بها...».

- **الطاعون في سوريا**: وفي السنة إيّاها انتشر وباء الطاعون في مكان في سوريا يقال له عماوص وأهلك خمسة وعشرين ألف مسلم، بينهم أبو عبيدة ويزيد بن سفيان.

- **فتح الإسكندريّة**: وفي السنة العشرين للهجرة (٦٤٠ - ٦٤١م) (وفق سعيد البطريق في تاريخه المعروف هج ٢ ص ٣١٩، وابن العميد في تاريخ السراكنة ص ١٨) استولى جيش المسلمين على مدينة الإسكندريّة بعد حصارٍ استغرق أربعة عشر شهراً، وكان ذلك في مطلع شهر محرّم، وقتل في المعارك الضارية التي جرت ثلاثةٌ وثلاثون ألفاً من المسلمين، فيما فرّت جيوش الروم في مراكب عبر البحر.

وإثر ذلك كتب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب واصفاً المدينة التي دخلها بقوله: «لقد افتتحت مدينة الغربيين، ولا أستطيع أن أصفها لك إلاّ بهذا الكلام الوجيز، فهي تحوي أربعة آلاف حمّام و١٤ ألف تاجر للخضار يبيعونها طازجة، وأربعة آلاف يهودي يدفعون الجزية ويؤدّون الخراج، وفيها أربعماية مسرح». وردّ عليه عمر بن الخطاب شاكراً، قائلاً له إن الجوع

مستشرٍ في جهات المدينة وقد استولى الجزع والحزن على كلّ السكان، فما كان من ابن العاص إلاّ أن بادر بإرسال قافلة كبيرة جداً من الجمال المحمّلة قمحاً وحبوباً، يبدأ أوّلها في الاسكندريّة وآخرها في المدينة.

ثمّ كتب الخطاب إلى ابن العاص يخبره بأنّه في سياق حفر قنال بحري لنقل الحبوب والأثقال من مصر إلى البحر الأحمر، ومنه إلى المدينة بحراً. وبالفعل أنجز ابن العاص المشروع إذ أمر بحفر القنال الذي عُرف تاريخياً باسم «خليج أمير المؤمنين»، وبفضله تمكّنت المراكب من نقل الحبوب والقمح عبر البحر من القاهرة والإسكندريّة إلى البحر الأحمر ومنه إلى المدينة المنوّرة.

وفي السنة عينها استولى عمرو بن العاص على مدينة برقه، وبلاد طرابلس الغرب، وفيها أيضاً حرّر عهد الأمان لبطريرك الأقباط في الإسكندريّة السيّد بنيامين يعقوب. ثمّ عاد ابن العاص راضياً مغتبطاً إلى بلاده، بعد غياب ثلاث عشرة سنة عنها، قضى منها عشر سنوات في مملكة هرقل الرومي وثلاثاً في مملكة المسلمين.

- **فتح بلاد الموصل**: قيل إنّ المسلمين استولوا على بلاد الموصل وما بين النهرين، وبلاد آمد واستخار وأصفهان، وعلى كلّ نواحي خراسان في خلال السنة ٦٤١م. وفي السياق يؤكّد أبو جعفر الطبري في تاريخه المشهور أنّه في السنة إحدى وعشرين للهجرة تحقّقت الفتوحات الآتية:

أذربيجان افتتحها مجيرة بن شعبة، عين وردة وحران والرها على يد عمر بن سعيد، الرقة ونصيبين وما يتبعهما فتحها عيسى بن عيسى، فيما أخذ أبو موسى الأشعري الأهواز وتوابعها، وسقطت خراسان في أيدي المسلمين بفضل النعمان بن مقران.

- **وفاة الملك هرقل**: توفي هرقل بعدما استولى على مملكة الروم طوال إحدى وثلاثين سنة، أي في السنة الحادية والعشرين هجريّة، والبعض يقول في السنة العشرين. وقد خلفه في الملك ابنه قسطنطين، لكن حكمه لم يدم طويلاً إذ اغتالته زوجة والده (أو إحدى نسائه) بعد ستة أشهر فقط، ليحلّ بعده على العرش هرقليون بن هرقل الملك الذي أُسقط عنه عنوة، ليصعد مكانه قسطنطين بن قسطنطين بن هرقل، الذي حكم لسبع وعشرين سنة.

وجاء على هامش المخطوطة أنّ قسطنطين هذا يقال له اللحياني لأنّه توجّه إلى صقلية بلا لحية ليعود منها بلحية كبيرة. ويورد بعض المؤرّخين أنّ قسطنطين أخا هرقل اغتيل في السنة العشرين للهجرة، وبعد اغتياله اجتمع الوزراء والبطاركة والقادة وأعيان المملكة ضدّ هرقل هذا وقتلوه،

لأنّه في نظرهم لم يعمل حسناً في خلال ملكه، كما اعتبروا اسمه شؤماً على البلاد لأنّهم خسروا بعض أجزاء المملكة، كسوريا ومصر والاسكندريّة وغيرها. ثمّ رفعوا إلى العرش قسطنطين بن قسطنطين أخا هرقل، فملك ست عشرة سنة، وكان أرثوذكسياً ترأس مجمع البطاركة البيزنطيين (أي المجمع المسكوني السادس) ثم توفي.

- **عثمان بن عفان:** وفق ابن العبري أنّ عثمان هذا يكنّى أبا عمرو، بويع له السنة ٣٣ للهجرة، فخلع ابن العاص عن الاسكندريّة وولّى عليها عبداللّه بن مسعود أخاه لأمّه، الذي غزا أفريقيا، فيما دخل معاوية قبرص وأنقره سلماً. لكن الناس ثاروا على عثمان وقتلوه في داره وكان عمره نيّفاً وثمانين عاماً، وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة تقريباً، ولذلك سُمّي يوم مقتله يوم الدار.

- **علي بن أبي طالب:** إثر مقتل عثمان بن عفان تنادى الناس من المهاجرين والأنصار وأتوا إلى علي، وبينهم طلحة والزبير، لمبايعته، فقال علي لهما: «إن شئتما أن تبايعاني، وإن أحببتما بايعتكما»، فخرجوا إلى المسجد وأعلن الناس بيعتهما له، وكان ذلك في يوم الجمعة الخامس من ذي الحجة السنة الخامسة والثلاثين للهجرة، وكان طلحة أوّل المبايعين، لكن حصلت مشادات ومعارك في هذا الشأن، وفق ما ذكر ابن العبري (في الصفحات ١٧٩ - ١٨٥) إلاّ أنّ عليّاً مات وهو في الثالثة والستين من عمره، بعد خلافة استمرّت نحو خمس سنين.

- **الحسن بن علي بن أبي طالب:** بعد وفاة الإمام علي بن أبي طالب بويع ابنه الحسن بن علي في الكوفة، ومعاوية في الشام في مسجد إيليا، فتنازل الثاني للأول، وسار الحسن إلى المدينة حيث أقام إلى أن مات السنة ٤٧ للهجرة، ولم تتعدَّ خلافته الأشهر الخمسة.

- **معاوية بن أبي سفيان:** بوفاة الحسن آل الأمر إلى معاوية، الذي وصله رسول من القائم على أرمانيا يدعى سرجي يطلب منه النجدة على الروم، كذلك أرسل إليه الملك قسطنطين لاندرا الخصي، فأذن معاوية لسرجي بالدخول إليه أولاً، يليه اندرا، فلمّا رآه سرجي نهض له، فوبّخه معاوية قائلاً: «إذا كان العبد هالكاً فكيف مولاه؟» الأمر الذي أثار غضب الرسول وقال لمعاوية: «كأنك تزعم أنّ العرب هم الجسم والروم هم الخيال، نستعين بربّ السماء...» واستأذنه الرحيل. وتردّد أنّ معاوية أخذ بيعة أهل المدينة ومكة لابنه يزيد، فيما بايعه أهل الشام كذلك، قبل أن توافيه المنيّة في دمشق السنة الستين للهجرة وهو في عامه الثمانين.

- **يزيد بن معاوية ثمّ معاوية ابنه:** مات معاوية فانتقلت الخلافة إلى ابنه يزيد عبر مبايعة أهل

الشام. وكان يزيد بعد وفاة والده استدعى الوليد بن عتبة، وهو على المدينة، الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير ونعى إليهما والده وطلب منهما البيعة لولده، لكنهما رفضا وخرجا من عنده تحت جنح الظلام إلى مكة، ودارت معارك بينهم إثر ذلك. ثمّ قُتل الحسين السنة ٦١ للهجرة في يوم عاشوراء يوم الجمعة عن عمر ٥٨ سنة. وعندما شارف يزيد على الموت بايع ابنه معاوية، ومات عن ٣٨ سنة وكانت خلافته لثلاث سنين وثمانية أشهر.

- **مروان بن الحكم**: مات يزيد فدعا ابن الزبير الناس إلى مبايعته، مدّعياً الخلافة، فنالها في الحجاز والعراق وخراسان واليمن ومصر والشام، ما عدا الأردن، إلاّ أنّ مروان بن الحكم انتزعها منه بالسيف، لكنّه قضى مقتولاً كما قيل بعد ولاية لم تطل لأكثر من سبعة أشهر وبضعة أيام.

- **عبدالله بن مروان**: وفي السياق عينه، سياق انتقال الخلافة، بايع أهل الشام عبدالملك بن مروان بعد وفاة والده في السنة ٦٥ للهجرة، ثمّ أتته بيعة العراق بعدما زحف إليها وقتل مصعباً أخا ابن الزبير الذي كان استولى على العراق ومكة والكوفة وولّى الحجاج على الحجاز واليمامة. والسنة السبعون استجاش يوستنيانوس الرومي على مَن في الشام من المسلمين، فصالحه عبدالملك على أن يؤدي له كلّ يوم جمعة ألف دينار وفرساً ومملوكاً، إلى أن توفي في السنة ٨٦هـ.

- **الوليد بن عبدالملك**: ومن عبدالملك بن مروان إلى الوليد بن عبدالملك الذي أقرّ العمال على النواحي، وافتتح نجاراً وسمرقند صلحاً، وفي أيامه توفي الحجاج. ثمّ بنى الوليد مسجد دمشق وهدم الكنيسة التي كانت فيه، كما بنى مسجد المدينة والمسجد الأقصى، ومنع الكتّاب النصارى عن الكتابة بالروميّة بل بالعربيّة، وفتح الأندلس والهند وغيرهما، ومات في السنة ٩٦هـ بعد ولاية استمرّت تسع سنين وثمانية أشهر.

- **سليمان بن عبدالملك**: ومن الوليد بن عبدالملك إلى سليمان بن عبدالملك الذي بويع في يوم وفاة أخيه الوليد، وكان رجلاً فصيحاً خيّراً، وفق ما قيل عنه، فأنصف المظلومين وحرّر المسجونين. ثمّ في السنة ٩٨هـ جهّز مع أخيه مسلمة جيشاً كبيراً بقصد الزحف على القسطنطينيّة التي بلغها وأقام عليها الحصار وأوشك على احتلالها، لكن لاون البطريق لجأ إلى حيلة استعملها مع مسلمة، وصفها ابن العبري في تاريخه (ص ١٩٦).

ثمّ مات سليمان في اليوم العاشر من صفر السنة ٩٩ للهجرة.

- **عمر بن عبد العزيز ثمّ يزيد بن عبدالملك:** لما بويع عمر هذا، أمر بردّ المظالم وحضّ على التقوى والتواصل، ثمّ توفي في السنة ١٠١هـ، ليخلفه يزيد بن معاوية المكنّى بأبي خالد، وهو العاشر من سلالة بني مروان. وولّى يزيد عمراً بن هبيرة الغزاوي على خراسان والمراقين، وبعث بمسلمة بن عبدالملك لقتال يزيد بن المهلّب، لكنه توفي بعد ولاية أربع سنوات في السنة ١٠٥هـ. وفي السنة إيّاها تولّى هشام بن عبدالملك وكان عمره أربعاً وثلاثين سنة وهو في الرصافة، فجاء إلى الشام وملك عشرين سنة ومات في الرصافة السنة ١٢٥هـ.

- **الوليد بن يزيد بن عبدالملك:** خلافاً لما كان عليه سليمان بن عبدالملك، وعمر بن عبدالعزيز، لم يكن الوليد هذا من أهل التقوى والورع، بل كان محبّاً للشراب والمجون، فتهاون في أمور الدين واستخفّ به، فانتفض عليه رجاله وقطعوا رأسه السنة ١٢٦هـ وهو لم يكن له من الولاية بعد إلاّ سنة وثلاثة أشهر. ثمّ حلّ مكانه يزيد بن الوليد بن عبدالملك، وكان ذا سيرة حسنة ومرضي الطريقة، فأمر بالبيعة لأخيه ابراهيم بن الوليد بن عبدالملك الذي لم يبقَ في الحكم لأكثر من سبعين يوماً، قبل أن يسير إليه مروان بن محمّد على رأس جنود الجزيرة ويخلعه ويجلس مكانه على عرش الملك. وكان مروان هذا يلقّب بالجعدي والحمار لصبره في الحروب، فقامت في عهده حروبٌ داخليّةٌ فأحسّ بالخطر المحدق فسارع إلى الوصاية إلى أخيه أبي العباس ونعى نفسه إليه وأمره بالسير بأهل بيته إلى الكوفة، ففعل ومعه أخوه أبو جعفر وعمّه وستة رجال حتى بلغوا الكوفة على عجل.

- **أبو العباس:** ليلة الجمعة من ربيع الأول للسنة ١٣٢هـ خرج أبو العباس بن محمّد الإمام بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب من دار أبي مسلمة في الكوفة، فصلّى المغرب في مسجد بني أيّوب وعاد إلى منزله. فلما كان الصباح دخل عليه القادة والناس معلنين مبايعته. وعلى الأثر وجّه عمّه عبدالله إلى الفرات، فعبرها ثمّ حاصر دمشق حتى فتحها وقتل مَن فيها من بني أميّة وأحرق عظامهم بالنار... وأكمل مسيرته إلى مصر فقتل مروان وقطع رأسه وبعث به إلى السفّاح أبي العباس، الذي مات في الأنبار مدينته التي بناها واستوطنها، وملك بعده أخوه أبو جعفر المنصور السنة ١٣٧هـ... وأمر بقتل أبي مسلم الخراساني الذي كان رجلاً شجاعاً ذا رأي وعقل وتدبير وحزم ومروءة (ابن العبري ص ١٠٩). وفي السنة ١٤٠هـ سيّر المنصور ابن أخيه عبدالوهاب على رأس جيش قوامه سبعون ألف مقاتل إلى ملطية، فاستولوا عليها وأعادوا إعمار

ما كان الروم خرّبوه منها وأسكن جنوده فيها. وفي السنة ١٤٥هـ شرع المنصور في بناء عمارة مدينة بغداد وسكنها بعدما ترك الكوفة وبنى قصره في وسط المدينة التي جعلها مستديرة وبقربها المسجد الجامع. وكان المنصور كارهاً المجون والترف فأوصى ابنه المهدي بقوله: «إيّاك وأن تدخل النساء في أمرك». ثمّ أتاه المرض ولم يفلح جيورجيس بن يختيشوع في معالجته رغم كونه من أفضل الأطباء في ذلك العصر. فقضى في اليوم السادس من ذي الحجة السنة ١٥٨هـ، ونُقل جثمانه إلى مكة حيث دُفن مكشوف الرأس، وكان عمره ٦٣ سنة وخلافته ٢٢ سنة.

- **المهدي بن منصور**: ومن المنصور آلت الخلافة إلى المهدي بن منصور الذي بايعه الناس، باستثناء ابن عمّه عيسى بن موسى الذي تحصّن في الكوفة، فوجّه إليه المهدي أبا هريرة في ألف فارس وأرغمه على خلع نفسه وأرضاه بمكافأة ماليّة. ثمّ قام رجل يقال له كِرَه مدّعياً النبوّة وقائلاً بتناسخ الأرواح فتبعه ناس كثيرون، فحاول المهدي القبض عليه، لكنّه رمى نفسه في النار لئلاّ يقع في الشرك بعدما أهلك كلّ أتباعه.

في العام ١٦٥هـ سيّر المهدي ابنه الرشيد لغزو الروم، وكانت على حكم هؤلاء إيريني إمرأة لاون الملك التي طلبت الصلح من المسلمين ودفعت فدية قدرها سبعون ألف دينار كلّ عام. ثمّ مات المهدي مسموماً إثر خلافة استمرّت عشر سنين، وكان ذلك في السنة ١٦٩ للهجرة.

ولما توفي المهدي بويع ابنه الهادي، الذي طارد الزنادقة وقتل منهم جماعة كبيرة، كما من سواهم، لكنه لم يعمّر طويلاً إذ أصابه مرض، فمات كمداً بسبب غضب والدته عليه بعد خلافة لسنة وثلاثة أشهر، وكان عمره ٢٦ سنة.

- **هارون الرشيد بن المهدي**: ليلة وفاة الهادي بويع الرشيد وكان عمره ٢٢ سنة فقط وأمّه الخيزران. وفي السنة ١٨٢ بايع الرشيد لعبدالله المأمون بولاية العهد بعد الأمين ابنه وولاّه خراسان وما يتصل بها، حتى همذان، وسلّمه إلى جعفر البرمكي. وفي السنة ١٨٦ أخذ الرشيد البيعة لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون وسمّاه المؤتمن. وفي السنة ١٨٧هـ خلع جيش الروم الملكة إيريني وأحلّ في العرش نيقيفور من أولاد جبلة (ابن العبري ص ٢٢٣) الذي أعلن الحرب على الرشيد، فسارع الأمير إلى هرقلة فأحرقها ودكّ معالمها. ثمّ في السنة ١٩٢ زحف الرشيد من الرقة إلى بغداد قاصداً خراسان، لكن المرض اشتدّ عليه وهو في الطريق، وكان معه ابنه المأمون، ولفظ أنفاسه الأخيرة في طوس حيث دُفن، وكانت خلافته ٢٣ سنة وعمره ٤٧، وعُرف عنه أنّه

كان كثير الصلاة والتصدّق ووسيم الطلعة جميلاً. وكان من أطباء الرشيد يوحنا بن ماسويه النصرياني السرياني المشهور في بغداد بترجمة الكتب الطبيّة والتدريس.

- **الأمين بن الرشيد:** بوفاة الرشيد آل الأمر إلى ابنه الأمين خلال اثني عشر يوماً، إذ بويع له في عسكر الرشيد، وكان أخوه المأمون في مرو، فنشب الخلاف ما بين الأخوين، وانتهى بقتل الأمين بعد خلافة استمرّت خمس سنين ليحلّ مكانه أخوه المأمون، الذي كتب إلى الآفاق أنّه نظر في بني العباس وبني علي فلم يجد أفضل ولا أروع ولا أعلم من علي بن موسى بن جعفر بن علي الحسين بن أبي طالب، ولذلك عقد له العهد من بعده.

وفي السنة ٢١٧هـ سار المأمون إلى بلاد الروم فأقام على لؤلؤة ماية يوم قبل أن يرحل عنها، وفي السنة التالية ألمّ به المرض فخلع أخاه القاسم المؤتمن وأعطى البيعة لأخيه أبي إسحق المعتصم، وأمر بأن يكتب إلى كلّ البلاد بهذا الأمر. ثمّ توفي المأمون عن عمر ٤٨ سنة، وخلافة لعشرين سنة، عُرف خلالها بتكريم العلماء وإغداق العطاءات عليهم.

- **المعتصم بن الرشيد:** ما أن بويع للمعتصم حتى ثار الجند منادين بالعباس بن المأمون، فخرج إليهم العباس داعياً إيّاهم إلى الهدوء منكراً عليهم المبايعة وقال: «ما هذا الحب البارد وقد بايعت عمّي المعتصم؟» فسكنوا. لكن المعتصم كان يمتحن العلماء في القرآن، ومنهم أحمد بن حنبل، وكلّ مَن لا يجيب بكونه مخلوقاً، يأمر بجلده وقتله. ثمّ قاتل بابك وأمر بذبحه وإرسال رأسه إلى خراسان. وفي السنة ٢٢٣هـ هاجم ملك الروم توفيل بن ميخايل بلاد المسلمين وأغار على ملطية وغيرها وعمل فيها قتلاً وسبياً وخراباً. ولما بلغ الخبر المعتصم زحف بجيشه إلى بلاد الروم ففتح عمورية وقتل ثلاثين ألفاً وأسر ثلاثين ألفاً منهم. وفي السنة ٢٢٧هـ توفي الخليفة المعتصم وكان عمره ٤٧ سنة، وامتدّت خلافته سبع سنين تقريباً.

- **الواثق بالله هارون بن المعتصم:** يوم وفاة المعتصم انتقلت البيعة إلى ابنه الواثق بالله هارون، وفي اليوم عينه وافت المنيّة ملك الروم توفيل، وملكت بعده زوجته تاودوره وابنها ميخايل بن توفيل وهو صبي بعد. وحدث في السنة ٢٢٨هـ أن غزا المسلمون جزيرة صقلية وفتحوا مدينة مسّينة وحصل تبادل للأسرى مع الروم. وفي السنة ٢٣٢هـ قضى مرض الاستسقاء على الواثق بالله وهو في عمر ٣٢ سنة إثر خلافة استغرقت خمس سنين وبضعة أشهر، فحلّ مكانه أخوه المتوكل على الله جعفر بن المعتصم وعمره ٢٦ سنة.

السنة ٢٣٥هـ لم يعقد المتوكل الخلافة لأحد أبنائه، بل أناطها بأولاده الثلاثة، المنتصر والمعتز والمؤيّد، وأعطى كلاًّ منهم لواء، العراق والحجاز واليمن للمنتصر، وخراسان والري للمعتز، والشام للمؤيّد. وفي السنة ٢٣٧هـ ولّى الخليفة يوسف بن محمّد على أرمينية وأذربيجان، لكن بطارقة المملكة ثاروا على يوسف وقتلوه، فدفع الخليفة إليهم بغا الكبير انتقاماً لدم الوالي يوسف فقتل منهم خلقاً كبيراً وسبى مدينة تفليس ثمّ أحرقها.

وفي السنة ٢٣٨هـ جاء للروم ٣٠٠ مركب مع ثلاثة رؤساء ورسا أحدهم بمئة مركب في دمياط. ثمّ في السنة ٢٤٢ حصلت زلازل هائلة أهلكت ناساً كثيرين وهدمت المنازل وانشقّ الجبل الأقرع وغار في البحر فمات أهل اللاذقية، (وفق ما أورده ابن العبري صفحة ٢٤٨).

وفي السنة ٢٤٧هـ قُتل المتوكل وهو ثمل بيد غلام تركي يدعى باغر، بعد خلافة لخمس عشرة سنة وكان عمره ٤٠ سنة. وكان المتوكل أثناء الزلازل أطلق أحمد بن حنبل من السجن، وأمر بالتخلي عن الجدل في القرآن وأبرأ ذمّة القائلين بخلق أو بغيره، واشتهر في عهده الطبيب النصراني حنين بن إسحق وجبرايل بن يختيشوع المعروف بسعة علمه وشمول معارفه.

- **المنتصر بن المتوكل**: ثمّ ابن الأتراك الذين كانوا وراء مقتل المتوكل بايعوا ابنه المنتصر ليلة اغتيال والده، لكنه لم يعش طويلاً ومات عن عمر خمس وعشرين سنة بعد خلافة لستة أشهر فقط (في السنة ٢٤٨هـ) ليخلفه المستعين أحمد بن محمد بن المعتصم. وكان بين الموالي على خلافة المستعين بغا الكبير وبغا الصغير واتامش كأبرز مبايعيه، الأمر الذي أثار الجند والناس في بغداد لأنهم رفضوا سيطرة الأتراك على مقدّرات البلاد، يقتلون من الخلفاء مَن يريدون ويولون مَن يريدون في معزل عن رأي المسلمين.

لكن المستعين خلع نفسه من الخلافة في السنة ٢٥٢ وبايع المعتز بن المتوكل وخطب له في بغداد، فبادر المعتز إلى سجن أخيه المؤيّد الذي أُخرج من السجن جثّة لا جرح فيها ولا أيّ أثر للعنف.

وفي مؤشّر واضح إلى تفاقم النفوذ التركي، ولّى الأتراك أحمد بن طولون على مصر (٢٤٥هـ)، وكان هذا مملوكاً تركياً للمأمون. ولما طالب الأتراك بأرزاقهم ماطلهم المعتز فثاروا عليه وعملوا فيه ضرباً مبرحاً حتى مات في سرداب مظلم حبسوه فيه، وكانت خلافته لنحو خمس سنين. ثمّ بويع المهتدي بن الواثق (٢٥٥هـ) وبعد سنة تمّ خلعه وتوفي عن عمر لا يتجاوز ٣٨ سنة، ليولي الأتراك بعده ومن معهم المعتمد بن المتوكل الذي كان مسجوناً في الجوسق.

في السنة ٢٦١هـ ولّى المعتمد ابنه جعفر العهد ولقّبه بالمفوّض إلى اللّه، ثمّ ولّى أخاه أبا أحمد ولقّبه الموفّق باللّه. السنة ٢٦٤هـ اقتحم عبداللّه بن رشيد كاووس بلاد الروم بأربعة آلاف فارس فقُتل مَن قُتل وعاد بغنائم وفيرة. لكن بطريق سلوقية وخرشنة وأصحابها خرجوا عليه وأوقعوا بالمسلمين خسائر كبيرة. وفي السنة ٢٧٨، وبعد معارك مظفّرة، مات الموفّق بداء النقرس، فاجتمع القادة وبايعوا ابنه أبا العباس بولاية العهد بعد المفوّض إلى اللّه ولُقّب بالمعتضد باللّه. ثمّ توفي المعتمد باللّه (٢٧٩هـ) عن خمسين عاماً، بعد خلافة لثلاث وعشرين سنة (وفق ابن العبري ص ٢٥٨). ومع اقتراب نهاية دولة المعتمد ظهر في الكوفة قومٌ عُرف بالقرامطة، بدأت دعوته عبر رجلٍ فقيرٍ قدم من خوزستان كان يُظهر الزهد والتقشّف ويأكل ممّا يكسبه، وراح يتحدث إلى الناس في أمر الدين والزهد في الدنيا، ويدعو إلى إمام منتظر من أهل بيت النبي، فتبعته جموعٌ كثيرة اختار منها ١٢ شخصاً على عدد الحواريين وأمرهم بدعوة الناس إلى مذهبهم، ثمّ نزل ناحية الشام عند رجل يدعى كرمتية.

الفصل الرابع

في هذا الفصل يتحدث الدويهي عن جملة تطورات وحوادث ووقائع تاريخيّة، تبدأ بظهور القرامطة، وصولاً إلى وفاة الأمير الإخشيدي، نقلها عنه المؤلّف «حرفيّاً دون زيادة البتّة». لكن السياق السردي المعتمد جاء في لغة ذلك العصر، حاملاً الكثير من اللبس والغموض، فعمدنا إلى صياغة مطوّرة تنشد الوضوح تسهيلاً للفهم، وتحترم المضمون بدقّة، ومن دون أي تصرّف خارج نطاق اللغة وعصرنتها.

- **خراب كنيسة الاسكندريّة وظهور القرامطة:** (السنة ٣٠٠هـ ٩١٢م) يوم الاثنين الثالث من شوّال، احترقت إحدى كنائس الاسكندريّة المعروفة بالقمشا، التي كانت كليوبطره بنتها هيكلاً للأصنام. وفي السنة عينها توفي ملك الأندلس عبدالله بن المنذر بن محمّد عبد الرحمن بن الحكم الأموي، فبويع أخوه عبد الرحمن لمدّة، وكان يلقّب بالناصر لدين الله.

وفي السنة ٣٠١هـ قُتل أبو سعيد القرطمي، الذي سبق له أن استولى على هَجَر وهزم جيش المعتضد بالله، على يد أحد خدمه الذي داهمه وهو في الحمّام فقتله. وتولّى أمر القرامطة بعده ولده سعيد الذي قتل الخادم قاتل أبيه.

- **المغاربة وجيش المقتدر:** في السنة ٣٠٢هـ توجّه حباسه على رأس جيش من المغاربة نحو الإسكندريّة، فسارع المقتدر من بغداد إلى تجهيز عسكر مؤنس الخادم لمحاربتهم فهزموه وقتلوا من عسكره نحو سبعة آلاف، ثمّ دخلوا الإسكندريّة.

- **مقتل حسن بن المنصور الحلاّج:** السنة ٣٠٩هـ أفتى العلماء بقتل الحلاّج على خلفيّة قوله: «سبحان مَن أظهر ناسوته سرّ سناء لاهوته الناقب، حتى بدا خلفه ظاهراً في صورة الأكل والشراب، حتى لقد عاينه خلفه كلحظة الحاجب للحاجب» فأمر المقتدر بقتله بعدما صُلب في بغداد باعتبار أنّ ما تفوّه به يُعدّ كفراً.

- **حرق كنيسة دمشق:** وفي السنة إيّاها أحرق المسلمون كنيسة القديسة مريم في دمشق ونهبوا كنوزها من الأواني الذهبيّة والفضيّة والنحاسيّة وجملة من الآلات، وكانت كنيسة كبيرة، كما نهبوا ديراً للنساء بجانبها.

- **وفاة المؤرخ الطبري:** في السنة ٣١٠هـ توفي أبو جعفر محمّد بن حرير الطبري صاحب التاريخ المشهور.

- **الأمير أبو الهيجاء بن حمدان:** وفي السنة ٣١٢هـ سار الأمير أبو الهيجاء عبداللّه بن حمدان، والد سيف الدولة عامل الموصل وديار ربيعة وغيرهما إلى الحاج في المدينة، وأثناء عودته وصحبه هاجمهم أبو طاهر بن أبي سعيد القرطمي بجيش كبير فهزمهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ونهب متاعهم وأسر معظم نسائهم وأطفالهم. وقيل إنّه غنم من الأموال ما يزيد عن ألف ألف دينار، إلى الطيب والزيت، كما أسر أبا الهيجاء وجماعة من أصحاب المقتدر وغيرهم بنحو ألفين ومايتين وعشرين رجلاً، ومن النساء خمسين إمرأة وترك باقي قافلة الحجاج بلا زاد ولا جمال فقضى معظمهم عطشاً وجوعاً.

ويذكر أنّ أبا الطاهر هذا كان قبل سنة وهو في الثامنة عشرة أغار على البصرة في بغداد بألف وسبعمئة مقاتل فدخلها وقتل ونهب وأحرق وسلب كلّ مَن وما وجده فيها، ولذلك اشتدّت شوكته. وفي السنة إيّاها أغار المسلمون على كنائس اليعاقبة والنساطرة في دمشق في منتصف شهر رجب.

- **أبو الطاهر القرطمي وفرض الجزية على المسيحيين:** ثمّ انتقل القرطمي (السنة ٣١٣هـ) للإغارة على الكوفة وعمل في أهلها قتلاً وسبياً ونهباً، وقيل إنّه غنم أربعة آلاف ثوب وثلاثماية جمل. وفي السنة عينها كتب الوزير عبداللّه بن محمّد بن خاقان إلى ابن علي بن عيسى، وكان في مكة، بأن يسير إلى مصر للاطلاع على أحوالها، فدخل الفسطاط مطلع رجب وفرض على الرهبان والأساقفة والضعفاء الجزية، لكن هؤلاء استجاروا بالمقتدر باللّه في بغداد الذي كتب بأن لا تؤخذ من هؤلاء الجزية عملاً بالعهد الذي قرّره صاحب الدعوة.

وفي السنة التالية بلغ مصر خبر مفاده أنّ العدو زاحف نحوها بألف وحدة مقاتلة فأحضر نائبها المهندسين الذين أشاروا بإقامة سدّ الأرمسية بين الإسكندريّة ودمياط ورشيد في أبراج من خشب على إطارات من حديد، لكن الرياح لم تسمح لهم بالعمل، وسرعان ما جاءهم الخبر بأنّها حطّمت من مراكب العدو ما يزيد عن ثلاثماية قطعة وعاد الباقون أدراجهم. وحينذاك كتب نائب مصر إلى الشام مستدعياً الجيوش.

- **القرطمي يدخل الكوفة:** دخل القرطمي الكوفة واستولى عليها (السنة ٣١٥هـ) بعدما أوقع

الهزيمة بجيش المقتدر باللّه وقتل منه قوماً كثيراً وعمل في المدينة نهباً وأسر يوسف قائد عسكرها. ثمّ هاجم الكوفة ثانية (السنة ٣١٦هـ) وأعمل السيف في أهلها، فيما طلب أهل قرقيسيا الأمان فأمّنهم، قبل أن يعود إلى دياره في مدينة هجر حيث عظم شأنه وطالت باعه ولُقّب بالمهدي.

- **القاهر باللّه ابن المعتضد**: ثمّ في السنة ٣١٧هـ دخل القرطمي دار الخلافة يتقدّمة مقدم الجيش، وطرح تنصيب ابنه أبي أبي العباس لأنه ولد عاقل فيه دين وكرم ووفاء، وفق قوله. لكن إسحق الندبختي اعترض بقوله بعد الكد استرحنا من خليفة له أم وخالة وخدم يدبّرونه فنعود الآن إلى تلك الحال؟ لا واللّه لا نرضى، لا نرضى إلاّ برجل كامل يدبّر نفسه ويدبّرنا معاً... فكان كلامه عليه وبالاً (وفق ابن العبري) لأنّ القاهر قُتل، فأمر مؤنس بإحضار محمّد بن المعتضد باللّه من الكوفة وأقاموه ولقّبوه بالقاهر باللّه فأقال وزيره ووزّر بدلاً منه أبا علي بن مقلة...

- **القرطمي في مكة**: وفي السنة إيّاها هاجم القرطمي مدينة مكة وقتل الحاج في المسجد الحرام واقتلع الحجر الأسود وقبّة زمزم، ثمّ عاد إلى هجر، وظلّ الحجر الأسود في أيديهم اثنتين وعشرين سنة إلاّ شهراً، قبل أن يردّوه.

- **أبو الهيجاء واغتيال المقتدر باللّه**: السنة ٣١٨هـ كلّف المقتدر باللّه ناصر الدولي بن أبي الهيجاء إدارة شؤون ديار بكر وآمد وميافرقين، مقابل مبلغ من المال يحمله إليه كلّ سنة. وهذا الخليفة المقتدر خانه في المعركة أحد قادته وذبحوه ورفعوا رأسه على خشبة وجرّدوا جثته من الثياب وتركوها عارية في العراء، إلى أن مرّ رجل من الأكرة فغطّاها بحشيش ثمّ دفنها. ولمّا حمل رأس المقتدر إلى مؤنس الخادم بكى ولطم وجهه، وأوفد إلى دار الخليفة مَن منع نهبها، وكانت خلافة المقتدر خمساً وعشرين سنة وعمره ثماني وثلاثين.

وفي السنة ٣٢٠ بلغ المظفر مؤنس أنّ المقتدر يعدّ مؤامرة لسجنه فسار مع جيشه إلى الموصل فدخلها، وقصد بغداد، فخرج المقتدر إلى قتاله، لكنّه هُزم وقُتل يوم الأربعاء آخر شهر شوّال. وكانت خلافة المقتدر شهدت حروباً كثيرة من القراطمة والديلمة والقاهر ومؤنس. وكان كثير الصوم والصدقة ونقش على خاتمه عبارة «الحمد للّه الذي ليس كمثله شيء وهو الخالق كلّ شيء». وقال المؤرّخ أنّ انقضاء مملكته كان لتمام السنة ثلاث ماية وتسع عشرة.

ثمّ بويع القاهر باللّه أبو المنصور محمّد بن المعتضد ببغداد قبل ليلة من نهاية شوّال من هذه

السنة، وهو الأربعون من الخلفاء والتاسع عشر من بني العباس.

- **القاهر بالله:** سنة ٣٢١هـ قبض القاهر على أحمد بن أبيه المكتفي فأماته جوعاً، ثمّ على أم المقتدر وأماتها تعذيباً، بعدما أقرّت له بماية ألف دينار، ثمّ قبض على الأمير علي بن بليق وعلى المظفر مؤنس وقتلهما. وفي السنة عينها توفي يكين الحريري أمير مصر فولاها القاهر إلى محمّد بن طغج المعروف بالإخشيد، ثمّ عزله وولاّها لمحمّد بن كيخلك.

- **خلع القاهر بالله:** السنة ٣٢٢هـ هجم الجند على القاهر فخلعوه وسملوا عينيه فراح يتوسّل في الجامع قائلاً «أيها الناس تصدّقوا عليّ، بالأمس كنت خليفتكم وأنا اليوم من فقرائكم». وقال المؤرّخ إنّ مدّة خلافته كانت سنة وستة أشهر وخمسة أيام لنهاية السنة ٣٢١هـ، أي ماية وثلاثة وعشرين يوماً.

- **نهب بغداد:** وفي هذه السنة تمّ نهب بغداد، وبويع بالخلافة الراضي بالله السنة ٣٢٢هـ وهو أبو العباس أحمد بن المقتدر، وبايعه القادة والناس، وسار الراضي بالله وأطلق السجناء واستوزر علياً بن قعلة. والراضي هو العشرون من العباسيين والحادي والأربعون من خلفاء المسلمين.

- **وفاة المهدي ودخول المغرب:** وفي السنة إيّاها توفي المهدي أبو محمّد عبدالله وكان يزعم أنّه من ضلع أبي طالب، فدخل إلى المغرب وملك أفريقيا وصقلية، وخاض حروباً مع بني تغلب حتى أخرجوه، وكان بدء الدولة الفاطميّة. وتوفي المهدي في هذه السنة في ١٤ ربيع الأول، وبويع بالخلافة بعده ولده القائم بأمر الله أبو عبدالله، وكان ذلك في المهدية التي ابتناها والده.

- **الحنابلة والإخشيد:** السنة ٣٢٣هـ سلّم الأمير ناصر الدولة الحسن بن عبدالله بن حمدان ميافرين وديار بكر إلى أخيه سيف الدولة أبي الحسن علي. وفيها عظم شأن الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يضغطون على دور القادة والعامة، وإن وجدوا نبيذاً أهرقوه على الأرض، ومغنّية ضربوها وحطّموا آلات الغناء. وفي السنة عينها تغلّب الإخشيد بن طغج على الشام وتوجّه إلى مصر في رمضان ففتحها ودخلها فدانت له مصر والشام. كما هجم أبو طاهر القرطمي صاحب هَجَر على الحاج فقتل منهم كثيراً وسلبهم وعاد سالماً إلى دياره.

- **الراضي وأبو بكر محمّد وتقسيم الدولة:** وفي السنة ٣٢٤هـ فوّض الراضي بن المقتدر شؤون المملكة إلى الأمير محمّد بن رائق، وأعطاه إمارة الجيش وجعله أمير الأمراء، وولاّه الخراج والمعادن والدواوين في كلّ البلاد وأمر بأن يُخطب له في كلّ المنابر، وأبطلت الوزارة منذ ذلك

الحين، فلم يعد الوزير ينظر في أي من الأمور، بل كان ابن رائق وكاتبه ينظران في مختلف الشؤون، وكذلك كلّ مَن تولّى أمرة الأمراء بعده. وهكذا صارت الأموال تذهب إلى خزائنهم فيتصرّفون بها على هواهم، إذ صار كلّ شيء في أيدي الأمراء ولم يبقَ لوزارة بغداد إلاّ الاسم فقط. واستمرّ ذلك حتى انقراض دولة بني بويه والسلجوقية ببغداد، حين تولّى أبو عبداللّه وإخوته على البصرة وواسط والأهواز.

ثمّ تولّى عماد الدولة بن بويه الديلمي ووسمكين على فارس، والقايم بن المهدي على المغرب وأفريقيا، وتغلب بنو أمية على الأندلس، وولي بن أحمد الساماني على خراسان، وأبو طاهر القرمطي على اليمامة وهجر والبحرين، والديلم على جرجان وطربستان، وبنو حمدان على ديار ربيعة والموصل وديار بكر، والإخشيد محمّد بن طغج على مصر والشام... ولم يبقَ شيء للخليفة وابن رائق في بغداد، ولا للوزارة وضعف ملكها، وتعطّلت بيوت المال وبطلت دواوين المملكة وصار الحكم كلّه بيد الأتراك المتغلّبين الذين حملوا الأموال إلى خزائنهم، فكثرت الحروب والمناوشات بينهم.

- **الراضي يقطع يد الوزير ولسانه:** في السنة ٣٢٥هـ أمر الراضي باللّه بقطع يد أبي علي بن مقلة الوزير ولسانه، لأنّه كان يعمل لعزل ابن رائق من الوزارة ليحل محلّه (وفق ابن حرير التركي). وكان بن مقلة يتقن الخط العربي، وهو أوّل مَن نقل الخط الكوفي المستولد بالطريقة العربيّة الكوفيّة ومعانيها. وجاء بعده ابن البواب فزاد في تعريبه وبلغ الغاية فيه. ثمّ قصد بجكم التركي بغداد فخرج الوزير أبو بكر بن محمّد رائق لمقابلته، فوقعت الهزيمة على الوزير وحكم التركي بغداد وخلع عليه الراضي وأسماه أمير الأمراء يحكم محمّد بن شيرزاد وقام بتولّي شؤون المملكة.

- **حرق كنيسة القيامة:** وفي السنة عينها اقتحم المسلمون في بيت المقدس كنيسة القيامة ونهبوا محتوياتها ثمّ أحرقوها.

- **قصة البطريرك يوحنا مارون:** وفي هذه السنة (٣٢٧هـ)، واستناداً إلى بعض تواريخ سريانيّة قديمة، أنّ البطريرك يوحنا انتقل من إنطاكية إلى جبل لبنان، ثمّ قصد زيارة القدس الشريف والأماكن المقدّسة، فلم يتح له المسلمون ذلك، وتوجّهوا إلى يانوح وهي من أشرف المجالس في جبّة المنيطرة، وأهلها أصحاب غيرة وعبادة، فبنوا دير مار جرجس كلّه من الحجر الأزرق وفي غاية

الصنعة والفخامة. وهذا الدير باقٍ حتى اليوم، إلاّ أنّه خالٍ، وقد حاولت جموع شتّى من غير المؤمنين نقل أحجاره ففشلوا.

ولمّا دنا أجل البطريرك يوحنا جمع كلّ كهنة البلد وأقام لهم بطريركاً باسمه من قرية دملصا.

وفي السنة ٣٢٧ زحف الراضي، ومعه الأمير بجكم التركي، إلى قتال ناصر الدولة ابن حمدان، فهزمهما وتقهقرا حتى نصيبين والموصل وآمد، ثمّ طلبا إليه الصلح فصالحهما على دفع خمسماية ألف دينار، ما أرضى ناصر الدولة.

ثمّ برز أبو بكر بن رائق في بغداد وانضمّ إلى الصلح على أن تكون له الفرات وقنسرين والعواصم.

وفي السنة إيّاها طلب أبو طاهر القرطمي من الحاج خمسماية وعشرين ألف دينار، بعدما كان منعهم عن الحاج السنة ٣١٩هـ.

- **أبو بكر الإخشيد يحتل حمص ودمشق:** السنة ٣٢٨هـ حرّك أبو بكر بن رائق الإخشيد جيشه، فاحتلّ حمص ثمّ دمشق ثمّ الرملة، حتى بلغ عريش مصر. لكن الإخشيد محمّد بن طغج تصدّى له وتقاتل الجيشان، فهزم بن طغج، وانصرف عسكر بن رائق إلى النهب، وفيما هم على هذه الحال، انقضّ عليهم كمين بن طغج على حين غرّة فقتل منهم جماعة كبيرة، وهزم بن رائق وعاد إلى دمشق. وفي تلك السنة حصلت الواقعة باللجون بين بن رائق وأبي النصراخي الإخشيد، فهزم الأخير وقتل معظم جماعته، واضطُرّ إلى توقيع الصلح على أن يحمل إليه الإخشيد كلّ عام مئة وأربعين ألف دينار.

- **هدم كنيسة العذراء في عسقلان:** وفي السنة تلك اقتحم المسلمون كنيسة ستنا مريم في عسقلان فنهبوا محتوياتها وهدموها، بمساعدة اليهود الذين صعدوا بالحطب إلى سقوفها وأضرموا فيها النار حتى احترقت عن بكرة أبيها.

وفي السنة عينها توفي بطرك الاسكندريّة افتيشيوس، المعروف بسعيد بن البطرك صاحب التاريخ، وكان مقامه في البطريركيّة لسبع سنين ونصف السنة، وكان على شقاق كبير مع شعبه، وكان الإخشيد بن طغج استولى على آلات الفضّة والذهب التي كانت موجودة في الكنائس بكميات وفيرة، لكن أسقف تينيس استعادها.

- **وفاة الراضي:** السنة ٣٢٩هـ توفي الراضي نتيجة إصابته بمرض الاستسقاء، بعدما استمرّت

خلافته لست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام. وكان الراضي أديباً وشاعراً، سمحاً، سخياً، فصيح اللسان، يهوى محادثة الأدباء والفضلاء ومجالستهم. وكان سبب موته الاستسقاء لكثرة النكاح، وعمره آنذاك اثنتين وثلاثين سنة.

- **خلافة المتقي بن المقتدر:** بعد موت الراضي اجتمع المسلمون واتفقوا جميعاً على أبي إسحق ابراهيم بن المقتدر بن المعتضد، وبايعوه ولقّبوه بالمتقي للّه، وأعطى الخلع واللواء إلى بجكم التركي إلى واسط، وأقرّ سليمان على وزارته وليس له منها إلاّ اسمها، وإنما التدبير كلّه كان إلى الكوفي كاتب بجكم. والمتقي هو الثاني والأربعون من الخلفاء المسلمين والحادي والعشرون من بني العباس. وفي تلك السنة خرج بجكم إلى الصيد فقتله رجل كردي ففوّض المتقي تدبير المملكة إلى كورتكين الديلمي، واستدعى أبا بكر بن رائق من الشام إلى بغداد وفوّض إليه تدبير المملكة.

وفي هذه السنة أي ٣٢٩هـ استفحل الغلاء في مصر وبغداد ووقع الناس في ضائقة شديدة من الجوع وانعدام وجود القوت، فأكل الناس النخالة والحشائش، وضرب البلاد وباءٌ عظيم حتى بات الأهالي يدفنون موتى كثيرين في قبرٍ واحد بلا صلاة ولا غسل، حتى كان يتمّ بيع ما يساوي ديناراً بدرهم واحد.

- **أبو عبداللّه البريدي ناصر الدولة:** السنة ٣٣٠هـ قصد البريديون دار الخلافة في بغداد، وقد كان أبوهم أولاً صاحب البريد، ثم استولى على البصرة والأهواز، وعزم على الاستيلاء على بغداد التي ملكها البريديون، وهزم أمامهم المكتفي ومعه ابن رائق الوزير وأبو الحسن بن علي بن مقلة. وفي السياق قال ابن العبري ص ٢٨٦: «دخل عبداللّه البريدي بغداد... وأنفذ إلى المتقي للّه يطلب منه ٥٠٠ ألف دينار ليفرّقها على الجند فامتنع عليه، فأرسل إليه يهدّده فأنفذ المبلغ إليه، ولكنه لم يؤثر الجند بالمال فشغبوا عليه وحاربوه، فهرب هو وأخوه وابنه وأصحابه إلى واسط...».

ثمّ خرج إلى لقائهم أبو الحسن علي بن عبداللّه بن حمدان في تكريت، وحملهم أخوه أبو محمّد الحسن إلى الموصل وأهدى إليهم الالطاف والأموال والدواب، وقام بخدمة المكتفي أحسن قيام، فلقّب المكتفي بالله الحسن بناصر الدولة، ولقّب أخوه بسيف الدولة.

وفي السنة إيّاها جهّز ناصر الدولة أخاه سيف الدولة أبا الحسن لمقاتلة البريديين، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى هزمهم وملك بغداد. ثمّ جمع البريديون شملهم وهاجموا بغداد، فخرج إليهم سيف الدولة وهزمهم، وقتل وأسر منهم ما يزيد عن ألفين من الجند، وكتب إلى أخيه ناصر الدولة

يخبره بما حصل، وكانت هزيمة البريديين قاسية قبيحة.

وفي تلك السنة أيضاً قتل أبو بكر بن رايق، ففوّض المكتفي إلى ناصر الدولة تدبير شؤون المملكة، ولمّا رجع إلى بغداد زوّج ولده المنصور من ابنة ناصر الدولة على صداق قدره ماية ألف دينار وخمسماية ألف درهم، وآلت أمور الخلافة كلّها إلى حكم ناصر الدولة أبي محمّد الحسن.

- **حرب استرجاع المنديل المقدّس:** وفي السنة ٣٣١هـ هاجم جيش الروم ديار بكر فخرّبوها وأحرقوا وقتلوا ونهبوا وأسروا خلقاً كثيراً. ثمّ اكتسحوا آشور ودار ونصيبين، ووصلوا إلى الرها، وطلبوا الى المتقي للّه أن يعيد إليهم المنديل المقدّس الذي كان السيّد المسيح مسح فيه وجهه، بعدما بات في عهدة ملك الرها، وذلك مقابل إطلاق كلّ الأسرى المسلمين في أيدي الروم. استفتى المتقي القضاة والفقهاء في الأمر، فأنكر بعضهم تسليم المنديل، وأجاب بعضهم الآخر بالقول: إنّ خلاص المسلمين من الأسر والضرّ والضنك الذي هم فيه أوجب، وكان أسراهم كثراً في قبضة الروم، فأمر المتقي بتسليم المنديل إلى الرسل، وبعث معهم مَن يتسلّم الأسرى. وحمل الروم المنديل إلى القسطنطينيّة ودخلوا به في اليوم الخامس من شهر آب، وأطلقوا أسرى المسلمين، فيما خرج البطرك والملك والمطارنة والكهنة لاستقبال المنديل بالإنجيل والمباخر والتراتيل، وجعلوه في الكنيسة العظمى المعروفة بكنيسة أجيّا صوفيا.

- **دولة الأتراك في بغداد:** وفي السنة ٣٣٢هـ كان ناصر الدولة تمكّن من نفقات الخلافة، فتنكّر له الأتراك بشخص الأمير توزون، فحصل بين الطرفين شقاقٌ عظيم ورحل ناصر الدولة وأخوه سيف الدولة من بغداد إلى الموصل، وسلّم أمور الدولة إلى بوزون الثاني، وأسماه أمير الأمراء وفوّض إليه شؤون المملكة.

ولمّا ثار الأتراك على سيف الدولة وحاصروه هرب ليلاً من معسكره، ولمّا بلغ الخبر أخاه ناصر الدولة سار إلى الموصل، وكانت ولايته ١٣ شهراً، فتولّى توزون إمارة الأمراء.

وفي السنة ٣٣٣هـ وقع الشقاق بين المكتفي (المتقي للّه) وبين بوزون (التركي) فتنكّر الأتراك للمكتفي لأنّه فوّض تدبير المملكة إلى توزون الثاني أمير الأمراء، فخرج من بغداد وقصد الموصل واستدعى بني حمدان ليصحبوه إلى الموصل.

ثم خرج في حرمه وأهله ووزيره وساروا إلى الموصل وأقام المتقي بها عند ابن حمدان، ثمّ سار منها إلى الرقة، وأنفذ رسلاً إلى توزون لطلب الصلح، فحلف توزون للخليفة والوزير، وانحدر

المتقي من الرقة إلى الفرات، فلمّا وصل إلى هيت أقام بها، وأنفذ مَن يجدّد اليمين على بوزون فعاد وحلف وسار عن بغداد ليلتقي المتقي، والتقاه بالسندية ونزل وقبّل الأرض وقال: «ها أنا قد وفيت بيميني والطاعة لك». ثمّ وكل به وبالوزير وبالجماعة، وأنزلهم في مضرب نفسه مع حرم المتقي، ثم كحله فأذهب بعينيه وعمي المتقي للّه، وانحدر بوزون إلى بغداد في الغد والجماعة في قبضته. وكانت خلافة المتقي ثلاث سنين وستة أشهر.

وقال المؤرّخ: وكانت انقضاء حياة المتقي للّه يوم السبت لتتمّة سنة شلب (أي ٣٣٢هـ) وخمسين يوماً للهجرة، ... وبويع ابن عمّه المستكفي باللّه أخو القاسم عبداللّه بن المكتفي، وهو الرابع عشر من الخلفاء المسلمين والثاني والعشرون من العباسيين.

- **سيف الدولة في حلب:** وفي هذه السنة زحف الأمير سيف الدولة بن حمدان إلى حلب فملكها من بانس المؤنسي الذي كان الإخشيد بن طغج صاحب مصر والشام ولاّه عليها، ثمّ إنّه وثب على ابراهيم العقلي بن سرمين والمعرة بقرية تسمّى بداريج، فنهب عياله وجميع مَن معه، إلاّ أنّه هرب بنفسه.

ثمّ هاجم سيف الدولة حلب واحتلّها وسار منها بجيشه إلى حمص، وكانت في يد نواب الإخشيد محمّد بن طغج فاستولى عليها أيضاً، وسار إلى دمشق فاستنجد أهلها بالإخشيد صاحب مصر والشام. ثمّ جهّز الإخشيد لهم جيشاً عظيماً من مصر، وعلى رأسه كافور الإخشيدي، فلمّا قارب كافور دمشق، قام للقائه سيف الدولة وأقام كلّ منهما مخيمه قبالة الآخر.

ثمّ إنّ سيف الدولة أعلن أنّ يوم الجمعة لن يكون فيه قتال وأذن لجماعته بالذهاب إلى ضياعهم لكي يأتوا بالعلف إلى دوابهم، فبلغ كافوراً الخبر، وأنّ معسكر سيف الدولة خلا من معظم رجاله. عندئذ، جهّز كافور الإخشيدي عسكر مصر وهجم على سيف الدولة وهزم عسكره شرّ هزيمة واستولى على كلّ أثقاله وأمواله، وطارده إلى حمص، ففرّ سيف الدولة من حمص إلى العاصي وعبر النهر من جهة حماة. لكن كافوراً طارده وقطع عليه النهر. ثمّ عاد سيف الدولة عند معبر الرستان وارتدّ إلى مقاتلة كافور فهزمه عند الجسر وسقط من جنده في النهر الكثير وغرقوا، فيما أسر من عسكر كافور نحو أربعة آلاف مقاتل واستولى على كلّ أثقاله وأمواله.

مضى كافور مهزوماً إلى دمشق، وأمّا سيف الدولة فعاد ظافراً مع جماعته إلى حلب. ولمّا بلغ الخبر الإخشيد في مصر، سار بجموعه إلى الكوفة، واختار الإخشيد عشرة آلاف من جنده وأسماهم

الصابريّة وأمر قائدهم بمطاردة سيف الدولة، وسط قرع الطبول والأبواق. لكن سيف الدولة هاجم مقدّمة جيش الإخشيد فظفر بهم وأسر مجموعة من قادتهم، ولمّا رأى الإخشيد ذلك دخل في الصابريّة وأنقذ قوّاده، وحينئذ انفصل الفريقان، فعاد سيف الدولة إلى حلب، ومنها إلى منبج، ثم قطع الجسر ودخل الجزيرة. وأمّا الإخشيد فتوجّه إلى الرقة في الفرات.

ثمّ استأنف سيف الدولة قتاله في الرقة ولم يكن يفصل ما بين الفريقين سوى الفرات، وجرت بين الإخشيد وسيف الدولة جملة مراسلات، آخرها أن يتزوج الثاني من أخت الإخشيد وتكون له حلب وحمص وما بينهما، ويكون من حمص إلى أقصى العرب للإخشيد صاحب مصر والشام. واستقرّ الأمر على ذلك، فعاد الإخشيد إلى مصر وسيف الدولة إلى حلب، وكانت ميافرقين وديار بكر اللتان أنعم بهما عليه أبوه ناصر الدولة في يد سيف الدولة أيضاً.

- **وفاة بوزون التركي وما جرى بعده:** السنة ٣٣٤هـ، توفي بوزون في داره ببغداد فاجتمع الأجناد وعقدوا الرئاسة عليهم لزيرك بن شيرزاد وحلفوا له حلف المستكفي ودخل إليه ابن شيرزاد وعاد مكرماً يخاطب بأمير الأمراء (المؤلف). وبعد مدّة قصيرة سار أحمد بن بويه إلى بغداد فانهزم الأتراك خوفاً منه إلى الموصل، واختفى المكتفي (أي المستكفي) في بغداد وكذلك ابن شيرزاد أيضاً. ثمّ أرسل له المكتفي هدايا وخلع عليه الخلع وفوّض إليه تدبير شؤون المملكة وعقد له اللواء وأمر بأن تضرب السكة باسمه وأن يخطب له من على المنابر ولقّبه بمعز الدولة، ولقّب أخاه الأكبر الحسن أبا علي بعماد الدولة، وأخاه الحسن بركن الدولة، فعظم شأنهم بعدما كانوا استولوا على بني بويه في بلاد فارس، ثمّ على الأهواز، وأخيراً على بغداد.

ثمّ وثب معز الدولة على المكتفي واعتقله وسمل عينيه وخلعه ونهب دار الخلافة حتى لم يبقَ فيها شيء.

- **المطيع للّه أبو القاسم الفضل ومعز الدولة:** بعد المكتفي بويع ابن عمّه المطيع للّه أبو القاسم الفضل بن المقتدر، وهو الثالث والعشرون من خلفاء العباسيين، والرابع والأربعون من خلفاء المسلمين، وفوّض تدبير المملكة إلى معز الدولة أحمد بن بويه الديلمي.

- **الحرب بين معز الدولة وناصر الدولة:** وفي تلك السنة زحف ناصر الدولة بن حمدان على بغداد لمحاربة معز الدولة بن بويه فدارت بينهما معارك طاحنة وكثيرة، دخل بنتيجتها ناصر الجانب الشرقي من المدينة، واحتفظ معز بالجانب الغربي منها، لكن الحرب استمرّت إلى أن

هُزم ناصر الدولة وانسحب تاركاً الساحة لمعز.

- **وفاة الإخشيد صاحب مصر:** في السنة إيّاها توفي الإخشيد أبو بكر بن طغج صاحب ديار مصر بدمشق، وكان ذا شجاعة وحنكة في الحرب ولُقّب بالإخشيد، ويقال إنّ عديد جيشه كان أربعماية ألف مقاتل ومماليكه ثمانية آلاف، يخدم كلّ ألف منهم يوماً وليلة، فيما هو لم يكن ينام الليالي ويقضيها متنقّلاً ما بين خيام الجند، من دون أن يعلم أحد بذلك حتى خدّامه، وذلك حماية لنفسه. وبوفاته حلّ مكانه ولده أبو حور محمّد، فيما تولّى تدبير شؤون الملك مملوك أبيه كافور.

- **سيف الدولة في بلاد الروم:** في السنة ٣٣٥هـ غزا الأمير سيف الدولة بن حمدان بلاد الروم وقاتل الدمستق قائد جيوش الروم وهزم عسكره وأوقع فيهم نحو عشرين ألفاً وأسر نحواً من ألفين وأحرق وغنم ونهب بلادهم وعاد سالماً.

وفي السنة ٣٣٦هـ زحف سيف الدولة إلى حصن برزيه ففتحه ثمّ هدمه. ثمّ إنه في السنة ٣٣٧هـ قام في حلب وحمص رجل من القراطمة يقال له المرتفع داعياً إلى نفسه، فتبعته قبائل من العرب، وألقى القبض على أبي أويل ابن عم سيف الدولة وكان متولّياً على حمص. وبلغ الخبر سيف الدولة فسار إليه من حلب والتقاه في ناحية دمشق فقتله وجماعته وعاد إلى حلب ومعه رأس المرتفع على رأس رمح.

وفي تلك السنة أيضاً قصد الأمير معز الدولة بن بويه مدينة الموصل، فخرج إليه سيف الدولة، وعقد الصلح بينهما وعاد كلّ منهما إلى مكانه.

وفي هذه السنة وقع قتال بين ناصر الدولة محمّد والدمستق عند سورا فقُتل من جماعة الأخير الكثير من الرجال وتمّ أسر الكثيرين.

- **حرب الملقاة بين الروم وسيف الدولة:** في السنة ٣٢٩هـ حصلت واقعة الملقات (أي الملاقات)، إذ إنّ سيف الدولة قام بغزو بلاد الروم واستمرّت غزوته نحو شهرين من القتل والنهب والسبي والحرق، ثمّ جاء الخرسنة والتقى الدمستق (قائد الروم) بن لاوون في موضع يقال له الملقات وراء خرسنة، فانتصر سيف الدولة على الروم وقتل منهم نحو ثلاثين ألفاً وأسر من البطارقة نحواً من ألفين.

وفي تلك السنة أيضاً حصلت واقعة المصّيصة، إذ إنّ سيف الدولة سار في درب كيكرون، درب مقتل الأظفار كما يقال لها، فهاجمه الدمستق ودارت معركة هناك، فهُزم سيف الدولة وقتل الدمستق من

جماعته نحو خمسة آلاف وأسر نحو ثلاثة آلاف ونجا الباقون في معركة دارت رصاصاً ليلاً.

- **وفاة المنصور بالله وخلافة المعز لدين الله:** السنة ٣٤١هـ توفي المنصور بالله أبو طاهر السمعيل بن المهدي صاحب القيروان، وكانت مدّة ملكه سبع سنين وستة عشر يوماً، وبويع بالخلافة بعده المعتز لدين الله أبو تميم معبد، فخضعت له القبائل حتى استأثر في ما بعد بخلافة مصر.

وفي السنة ٣٤٧هـ عزم الأمير معز الدولة بن بويه على مقاتلة ناصر الدولة بن حمدان فسيّر معه ديار ربيعة جميعاً، أي الموصل والجزيرة ونصيبين وسنجار والرحبة ورأس العين والخابور، فهزم ناصر الدولة إلى حلب. ثمّ في السنة ٣٤٨هـ عقد الصلح بين الجانبين، وعاد معز الدولة إلى بغداد وناصر الدولة إلى دياره.

- **حرب الروم مع أبي فراس الحمداني:** في السنة ٣٤٨هـ أغار تاودروس وهو ابن أخت ملك الروم، بألف فارس على منبج، وكان أبو فراس الحرث بن سعيد بن حمدان يصطاد في سبعين فارساً، فقاتلهم الحمداني قتالاً شديداً حتى سقط جريحاً فأسروه واقتادوه إلى القسطنطينيّة حيث بقي هناك سبع سنين إلى أن افتداه ابن عمّه سيف الدولة.

- **وفاة بن حور الساماني:** في السنة ٣٤٩هـ توفي الأمير أبو حور بن الإخشيد صاحب مصر، فملك بعده ابنه عبدالملك، إلاّ أنّ شؤون الحكم الحقيقيّة ظلّت في يد كافور.

- **الحرب بين الروم وسيف الدولة:** في السنة ٣٥١هـ زحف الدمستق، القائد المعروف، بمايتي ألف مقاتل من بلاد الروم قاصداً احتلال حلب، ومعهم أربعة آلاف بغل عليها أدوات الحديد. فسارع سيف الدولة إلى تسيير عسكره مع خادمه رجا، وأبقى معه جماعة قليلة، فجاء الدمستق من غير الطريق التي مضى فيها العسكر الذي مع نجا وبلغ حلب، فخرج إلى مواجهته سيف الدولة وجماعته القليلة، وتقاتل الجيشان على جبل بانشوسا، حيث وقعت الهزيمة على سيف الدولة ودخل الروم المدينة. وقد حاصر الروم حلب لثلاثة أيام حتى ملكوها بالسيف، وقتلوا كلّ مَن كان فيها، واستولوا على أموال سيف الدولة وذخائره، وأقاموا حصاراً على القلعة. ثمّ بلغ الخبر إلى طالع العسلي والي الشام من قبل الإخشيد، فجمع عشرة آلاف مقاتل وقدم إلى نجدة سيف الدولة، فعرف الروم بذلك، وتراجعوا عن حلب في اليوم الثامن من حصار قلعتها.

- **مولّى سيف الدولة، نَجَلا يتمرّد عليه:** وفي السنة ٣٥١هـ توفي أبو الورد صاحب خلاّط، فتولاها من بعده نَجَلا مولّى من سيف الدولة، فعظم أمره إلى حدّ العصيان على مولاه، وفي السنة ٣٥٢هـ

مات قسطنطين ملك الروم في ٢٦ آذار أي السنة ٩٦٤ للميلاد، وجلس بعده باسيل وقسطنطين. والسنة ٣٥٣هـ نازل نَجَلا في ميافرين لينتزعها من مولاه وليعطيها إلى معز الدولة بن بويه. وأثناء الحصار دخل واحد من أقرباء أبي الورد بلاد كرد فرحل عن ميافرين وكرد ونهب عسكره.

- **استيلاء الروم على المصّيصة**: وفي السنة ٣٥٢هـ إيّاها تملّك على الروم نيقيفور الدمستق وجعلوا شخصاً يسمّى شمشقيق دمستقاً له. وفيها أنّ الدمستق حاصر المصّيصة لكن النجدة أتتها من مسلمي طرسوس. وعندما عجز الدمستق عن دخول المصّيصة ارتدّ إلى محاربة الآتين من طرسوس، فقتل منهم نحواً من خمسة آلاف رجل، بينما خسر الروم خلقاً كبيراً أيضاً.

وفي السنة ٣٥٤هـ عاد الدمستق إلى محاصرة المصّيصة فدخلها عنوة وعمل في أهلها قتلاً وأسراً، ثمّ قصد طرسوس وفي تلك السنة أيضاً قتل سيف الدولة بن حمدان نفلا الذي كان أعلن العصيان عليه وتسلّم خلاط.

- **كافور يتولّى الحكم في مصر**: السنة ٣٥٥هـ توفي الأمير علي بن الإخشيد صاحب مصر والشام وفوّض شؤون المملكة إلى كافور، الذي كان عبداً شديد السواد اشتراه الإخشيد بثمانية عشر ديناراً، فحظي بملكيّة الديار المصريّة والشاميّة وتبارى في مديحه الشعراء وأسلت له الشعوب قيادتها، ولم يوالِ ملكاً حتى مات.

- **وفاة سيف الدولة ثمّ معز الدولة ثمّ كافور**: وبعد سنة، أي السنة ٣٥٦هـ توفي الأمير سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب ودُفن في ميافرين بعدما ملك حلب لثلاثة وعشرين سنة، وكان شجاعاً عالماً محبّاً للعلماء وكثير الاحسان والعدل، فتولّى حلب بعده ولده الأمير شريف الذي لُقّب باسم سعد الدولة.

وفي تلك السنة عينها توفي أيضاً الأمير معز الدولة بن بويه الديلمي العراقي بعد إحدى وعشرين سنة وبضعة أشهر، وتولّى بعده ولده عز الدين وكان اسمه الأصلي بختار. وكان والده ملكاً شجاعاً قويّ القلب صلب النفس، وطوال مدّة حكمه لم تحرفه السعادة عن أخلاقه يوماً.

وفي السنة ٣٥٨هـ مات كافور صاحب مصر وعقدت الولاية بعده لعلي بن محمّد بن الأمير، وكان خليفته الحسين بن عبدالله بن طغج والوزير أخو الفضل جعفر بن المديون، وكان عمر الأمير بن محمّد إحدى عشرة سنة فقط.

الفصل الخامس

تواصلت فصول الصراع والحروب بين المسلمين أنفسهم من جهة ومع الروم والأتراك للسيطرة بالسلطة والاستئثار بمصر وسوريا والعراق، وسواها من الأقطار، كما دخل الفرنجة طرفاً في هذا الصراع، مع احتلال الصليبيين مدينة عكا، وامتدّت شرارته إلى طرابلس وعكار والمنيطرة... الخ.

في السنة ٣٥٨هـ وصل جوهر غلام المعزّ لدين اللّه على رأس جيش إلى مصر فبايعه أهلها، لكنّه خطب لبني العباس ولمولاه المعز لدين اللّه صاحب القيروان، وأمر خطباء المساجد بالتخلّي عن اللباس الأسود واعتماد الأبيض. وفي السنة ٣٢٦هـ دخل المعز لدين اللّه القاهرة بعدما كان جوهر قد مهّد له الطريق على صعيد الشعب المصري، كما أنّ الحسين بن طغج صاحب مصر كتب إليه طالباً قدومه. وفي السياق ما إن وصل المعز لدين اللّه إلى الديار المصريّة حتى بادر إلى إعادة بناء القاهرة، وأمر الأمراء والأثرياء من أهاليها بأن يبني كلّ منهم داراً له، فاستقرّ له حكم البلاد.

أمّا في العراق (السنة ٣٦٢هـ) فهاجم الروم نصيبين وديار ربيعة وعملوا في السكان السيف ونهبوا كلّ ما طالت أيديهم وأسروا أعداداً كبيرة ممّن تصدّوا لهم، فسارع جوهر بن بوية إلى مهاجمة الموالين للروم وقتل منهم خلقاً كثيراً، وأسر بعضهم ومن بينهم الدمستق، الذي لم يطل أسره إذ سرعان ما وافته المنيّة. وفي بغداد هاجم سبكتكين التركي أحد حجاب معز الدولة بن بويه المدينة (٣٦٣هـ) فاحتلّها بمؤازرة من الأتراك والسنّة، وأمّا الشيعة والديكم فكانوا إلى جانب عز الدولة، ودارت بينهم حروب، أسفرت عن بلوغ سبكتكين تخوم بغداد. ولمّا رأى ذلك الخليفة المطيع للّه خلع نفسه عن عرش الخلافة وسلّمها لابنه عبدالكريم الذي لُقّب بالطائع للّه، وهو الخليفة الخامس والأربعون من ملوك الاسلام والرابع والعشرون من الخلفاء العباسيين. لكن سبكتكين وافته المنيّة، فعقد الأتراك البيعة لافتكين الشرابي خادم معز الدولة ابن بويه، فلم يتردّد افتكين هذا في شنّ الحرب على عز الدولة الذي طلب النجدة من ابن عمّه عضد الدولة ابن بويه، فهزم الأتراك بعد حربٍ طاحنة أسفرت عن دخول عز الدولة إلى بغداد والسيطرة

عليها. وأمّا افتكين فبعد هزيمته زحف بثلاثماية مقاتل من الأتراك إلى دمشق التي كان يعيث فيها العياريون قمعاً ونهباً، فاستجار به أهلها فقاتل العياريين وأخرجهم وحكم دمشق.

وفي السنة ٣٦٤هـ زحف سمسق ملك الروم إلى بلاد الشام ففتح حمص وبعلبك، وقارب دمشق فتصدّى له افتكين الشرابي مصرف النظر عن دخولها، وتوجّه نحو صيدا فصالحه أهلها، ثمّ سار إلى طرابلس فحاربها لأربعين يوماً. وهناك دسّ له باسيل وقسطنطين ولدا رومانوس ملك الروم سمّاً في شرابه، فأصابه مرض شديد فرحل إلى إنطاكية وحاصرها وقطع أشجارها، ثمّ اشتدّ عليه المرض فتوجّه إلى القسطنطينيّة، بعدما أوكل إلى البرجي البطريق الاستمرار في حصار إنطاكية، حيث توفي.

بوفاة سمسق آل ملك الروم إلى باسيل بن رومانوس وكان عمره ثمانية عشر عاماً، بعدما أوصى له أخوه قسطنطين فالتفّ حوله كثير من السنّة إلى الأرمن والمسيحيين، فملك ملطية وجوارها بعسكر أخيه في الكابادوك. وعظم أمر قسطنطين وأوعز إلى قائد جيوشه السقلارس البطريق بامتلاك الثغور وبلاد الشرق، وأرسل عبدالله المنتصر بطارقة من مالطة لتدبير شؤون إنطاكية. وكان أهل إنطاكية ميّالين إلى الملك باسيل وطلبوا منه تعيين أغابيوس أسقف حلب بطركاً عليهم، فاستجاب لهم.

وفي السنة ٣٦٥هـ توفي المعز لدين الله صاحب مصر وكان علوياً، فبويع ولده العزيز أبو المنصور الذي استقدم إليه جوهر مولى المعز الذي كان مهتماً بعلم الفلك والكواكب وأدخله إلى سرداب تحت الأرض حيث مكث سنة كاملة، لكنه لم يطل أن توفي.

ثمّ إنّه بعد سنة نشبت الحرب بين عضد الدولة وابن عمّه عز الدولة صاحب بغداد، فاستولى الأول على بغداد وفرّ منها الثاني، ثمّ قتل عز الدولة.

وفي السنة ٣٦٧هـ استقدم باسيل ملك الروم إليه برداس الفقّاس بن لاوون أخي نقفور الذي كان منفيّاً في الجزيرة لسبع سنين خلت، وعيّنه دمستقاً وقائداً للجيش، وسيّره إلى قتال السقلارس، لكنّه هُزم شرّ هزيمة. وعلى الأثر أوفد السقلارس بهرام إلى إنطاكية لاستمالة أهلها إلى طاعته، لكنهم رفضوا، فحاصرها بهرام حصاراً شديداً وفشل في دخولها، فعمل في القرى المحيطة بها نهباً وتدميراً قبل أن يرحل عنها.

ثمّ في السنة التالية سيطر عضد الدولة على الموصل وديار ربيعة وميافرقين وديار بكر، فهرب عز

الدولة إلى مصر وأمر الخليفة بأن يخطب لعضد الدولة في مساجد بغداد وأسماه ملك الملوك، وكان أوّل مَن خوطب بالملك في الإسلام. سارع عضد الدولة إلى إعادة إعمار بغداد بعدما كان أصابها الكثير من الدمار نتيجة الحروب التي كانت مسرحاً لها، فعمّر مساجدها وأسواقها، وأغدق الأموال على العلماء والقرّاء الغرباء والضعفاء، وأظهر ما اندثر من الأنهار بإعادة حفرها... ويقال إنّه كلّف الوزير المسيحي نصر بن هارون إعمار الأديار وإعطاء الهبات للفقراء. طلب السقلارس النجدة على الملك باسيل من عضد الدولة وعزّ طلبه بالكثير من الهدايا، فأمدّه ببعض عسكره، لكن قبل وصول النجدة تواجه بدراس النقاس مع جيش الملك باسيل والسقلارس مع جيش قسطنطين، فهزم السقلارس وانكفأ إلى ميافرقين. وعلى الأثر أبلغ عضد الدولة نائبه في ميافرقين سرّاً بأن يدلف إلى السقلارس ويأخذه إلى بغداد، فاستجاب النائب لأمر سيّده وقبض على السقلارس وولده رومانوس وحاشيتهما وأرسل الجميع إلى بغداد حيث اعتقلهم عضد الدولة، وكتب إلى ملك الروم عارضاً تسليمه السقلارس شرط أن يردّ كلّ الحصون التي افتتحها الروم وأخذوها من المسلمين. وإذ ذاك أرسل ملك الروم هدايا ثمينة إلى عضد الدولة، عارضاً عليه الاتفاق عبر موفد اسمه نقفور. ولمّا علم السقلارس بذلك أبلغ عضد الدولة أنّ نقفوراً هذا جاء بالسمّ ليدسّه له، أي لعضد الدولة، فما كان من الأخير إلاّ أن قبض الموفد ومَن معه وأودعهم السجن، ثمّ مرض ومات وظلّ السجناء في أسرهم ثماني سنوات. وبعد وفاة عضد الدولة خلفه ابنه صمصام الدولة في بغداد.

ثمّ اندلعت الحرب بين العزيز بن المعتز للّه صاحب مصر وإلى جانبه جوهر الغلام من جهة، وافتكين الشرابي صاحب دمشق في الجانب الآخر وتواصلت طوال شهرين، فطلب الشرابي النجدة من حسن بن أحمد القرطمي، فوافاه، وتراجع جوهر إلى طبريه، فنزلها افتكين والقرطمي، فهزم جوهر وانسحب أيضاً إلى الرملة، وراسل افتكين طالباً الأمان مستجيباً لكلّ الشروط التي وضعها العزيز، وهكذا عاد جوهر إلى مصر. لكن العزيز أعاد حشد جيوشه وزحف بهم من مصر إلى الشام والتحم مع جيش افتكين الذي مني بالهزيمة، ثمّ عاد المنتصر إلى مصر.

وفي السنة ٣٧٥هـ وقعت الحرب ما بين الأخوين شرف الدولة أبي الفوارس بن عضد الدولة وصمصام الدولة، فظفر أبو الفوارس بالأهواز وواسط والبصرة، وأسر أخاه وسجنه وسمل

عينيه، واستقر له الحكم في بغداد. لكن سرعان ما توفي شرف الدولة في العراق، وولي أخوه بهاء الدولة أبو نصر. وفي تلك السنة امتنع سعيد الدولة أبو الفضائل عن تأدية المال الذي فرضه عليه الروم كلّ سنة، فوجّهوا إليه بدروس الفقاس فقاتله وهزمه، واتجه نحو أفامية وحاصرها، أمّا سعيد الدولة فسار إلى دير سمعان من أعمال إنطاكية، لكن الفقاس حاصره واقتحمه وقتل جماعته من رهبانه وسبى أناساً كانوا لجأوا إليه من بلاد إنطاكية واقتادهم معه إلى حلب كأسرى.

ولمّا بلغ الملك باسيل ما حصل في دير سمعان، أوعز إلى الفقاس بمغادرة أفامية، ثم خلعه من الدمشقية وجعله على المشرق وولاّه إنطاكية. فسارع الفقاس إلى عقد هدنة مع سعيد الدولة ابن حمدان، مقابل أربعة آلاف درهم يحملها إلى الملك كلّ سنة.

ثمّ إنّ صمصام الدولة أطلق السقلارس وابنه وجماعته من السجن وزوّده الرجال والسلاح ووجّهه إلى ملطية حيث قبض على كليب البطريق واستولى على أمواله، وعظم شأنه إلى درجة أن دعا لنفسه بالملك، والتفّ حوله الأرمن والعرب وجمعٌ كثير، وزوّده صاحب ديار بكر نيار الكردي عسكراً كثيراً، الأمر الذي أثار المخاوف لدى الملك باسيل.

وفي هذه الأثناء طلب بدراس الفقاس إلى الدمستقية أن يلتقي عسكر السقلارس وكتب إلى السقلارس داعياً إيّاه للاتفاق على الملك باسيل والاستيلاء على مملكته، لأنّ مدينة القسطنطينيّة كانت في عهدة الفقاس، فاجتمعا وتعاهدا على ذلك، لكن الفقاس انقلب على السقلارس واعتقله، ثمّ طلب لنفسه الملك وملك سائر بلاد الروم وتعاظم أمره، لذلك ثارت ثائرة باسيل الملك، إلاّ أنّ إمكاناته الماديّة كانت ضئيلة جداً، فاتجه إلى ملك الروس طلباً للمساعدة، وكان هذا الملك غير مؤمن فأجاب إلى طلبه وطلب إليه المصاهرة بتزويجه أخته. وعلى الأثر أوفد باسيل مطارنة إلى الملك الروسي لتنصيره، أي جعله مسيحياً، وتنصّر وكذلك أهالي بلاده، واتفق الرجلان على الوفاق والإلفة، وأرسل ملك الروس كلّ جيوشه ووضعهم في خدمة ملك الروم، وسار الجيشان معاً برّاً وبحراً لمواجهة الفقاس، وقبضوا عليه وقتلوه واستولى باسيل على كلّ مملكته.

ولمّا علمت زوجة الفقاس بما جرى أطلقت سراح السقلارس فانضمّ إليه أعوان الفقاس وتابعوه، وارتدّ الخفّ الأحمر مدّعياً الملك. ثمّ كتب إلى قسطنطين أخي باسيل طالباً شفاعته لإصلاح

الحال مع أخيه على أن يعود إلى طاعته فأجابه إلى ذلك، ثمّ خلع نفسه وأحضره قسطنطين إلى أخيه الملك الذي عفا عنه.

كانت السنة ٣٧٨هـ سنة كوارث طبيعيّة ضربت مصر وسواها، إذ حصل رعدٌ قويّ وهبّت عواصفٌ عاتية، وسادت البلاد ظلمةٌ حالكة وانتصب عمودٌ ناريّ احمرّت جرّاءه الأرجاء وتبدّل لون الشمس. وفي السنة ٣٧٩هـ ظهر في المغرب كوكبٌ مذنّب استمرّ في الأجواء لعشرين يوماً، كما شهدت القسطنطينيّة زلازل عظيمة هدمت كنائس وابتلعت الأرض منازل كثيرة في نيقو ونديه. وفيها توفي شرف الدولة وحلّ مكانه أخوه بهاء الدولة.

ثمّ في السنة ٣٨١هـ تعرّضت دمشق لزلزال عنيف أوقع نحواً من ألف منزل واختفت إحدى قرى بعلبك عن سطح الأرض وتوالت الزلازل حتى هرب الناس إلى الصحارى.

بعدما قُبض على الطائع للّه، سأل بهاء الدولة عمّن يصلح للخلافة، فتمّ إجماع على القادر باللّه أبي العباس أحمد بن اسحق المقتدر الذي كان في البطيحة آنذاك، فتمّت مبايعته السنة ٣٨١هـ. وفي السنة إيّاها توفي سعد الدولة وتسلّم الحكم في حلب بعده ولده سعيد الدولة أبو الفضائل، وبما أنّ سعيداً هذا كان صغير السن آلت أمور الحكم جميعها إلى لؤلؤ الخراجي.

فلمّا علم العزيز باللّه صاحب مصر ما حصل من تغيّرات في حلب أرسل جيشاً جرّاراً لقتال القائمين على الحكم فيها، فسارع لؤلؤ إلى طلب النجدة من ملك الروم الذي دفع إليه بجيش كبير حيث اشتبك الجيشان وكانت الغلبة لقائد الجيش المصري منجوبكين وقُتل من الروم عددٌ كبير. ثمّ لم يلبث المصريون أن غادروا حلب بسبب حاجتهم إلى المواد الغذائيّة وعلف الحيوانات.

ولمّا بلغ الخبر إلى العزيز صاحب مصر غضب غضباً شديداً وأمر المغادرين بالعودة فوراً إلى حلب، فعادوا وأقاموا فيها ثلاثة عشر شهراً، وبنوا في ضواحيها الحمّامات والفنادق وأقاموا الأسواق. لكن لؤلؤاً عاود طلب النجدة من ملك الروم وحاول إقناعه بأنّ حلب هي حاجة أساسيّة للروم ومَن يأخذها يصبح قادراً على أخذ بلاد الروم، فأرسل الملك هذه المرة جيشاً لا يحصى عدده، فهزم العسكر المصري وعاد إلى دمشق.

إلاّ أنّ الخبر بلغ إلى العزيز صاحب مصر فخرج بعسكره إلى بلبيس حيث عرض عليه الصلح لكنّه مات قبل أن يقرّر أمره، وخلفه ولده الحاكم بأمر اللّه منصور ثالث الملوك الفاطميين على الديار المصريّة ولُقّب بالحاكم بأمر اللّه المنتقم بسيف اللّه من أعداء اللّه.

ثمّ انقلب بهاء الدولة على الملك العزيز وسلّم السلطة إلى القادر أبي الفضائل أحمد بن اسحق بن المقتدر. وبعد وفاة العزيز احتلّ ملك مصر الجديد الحاكم بأمر اللّه حمص ونهبها وأعمل السيف في أهلها وسبى مَن أراد منهم، ثمّ توجّه إلى طرابلس وحاصرها لأربعين يوماً من دون أن يتمكّن من دخولها، فعاد على أعقابه إلى بلاده.

وفي السنة ٣٩١هـ توفي أبو الفضائل صاحب حلب، وخلفه ولداه فأخرجهما لؤلؤ وذهبا إلى مصر واستقرّ الحكم للؤلؤ وولده منصور. ثمّ ولّي الحكم على دمشق صاحب مع كتسكين، لكنّ المصريين هبّوا عليه لأنّه سرق أموالهم وظلمهم، فعزله الحاكم وولّى طرملة بن بكارا، الذي فعل أسوأ من سلفه فعزله كتسكين.

الفصل السادس

الحروب الصليبيّة

في السنة ٤٨٩هـ أقام الأفضل إبن أمير الجيوش الجمالي الحصار على القدس ووجّه إليها المنجنيق، وقاتل أهلها لأربعين يوماً، إلى أن طلبوا منه الأمان، فأعطاهم إيّاه، ففتحوا له الأبواب، فيما تمكّن سكمان بن ارتق التسلّل من أحد الأبواب الخلفيّة وفرّ إلى الرها.

وفي هذه الأثناء كان على كرسي روما أوربانوس الثاني دعا إلى الاحتشاد في مكان يقال له كلارمونت فاستجابت له جموعٌ كبيرة لأنّه رفع راية تحرير القدس وأرض الميعاد من قبضة الإسلام، وأقبل إليه متطوّعون كثر من فرنسا والنمسا وغيرهما، ووضع الجميع شارة الصليب على أكتافهم وتأهّبوا للقتال. لكن هذا الجيش اختار طريق القسطنطينيّة كونه الأقرب من بلاد المسلمين فقضى منهم ما يزيد عن ثلاثين ألفاً بسبب الجوع والعطش والمشقّة، فيما عاد الكثيرون إلى بلادهم. وكان على رأس الفرنجة هؤلاء قادة عسكريون وروحيون من فرنسا وسواها نجحوا في بلوغ القسطنطينيّة حيث استقبلهم القائم بسلطنة الروم مرحّباً بهم، وعقد معهم العهد على أنّ كلّ ما يحتلّونه من بلاد الروم يكون لهم، مقابل أن تبقى المدن والضياع الأخرى تحت سلطته.

لكن الفرنج لم تطل إقامتهم في بلاد الروم، ففي السنة ٤٩١هـ ساروا بست وحدات من المشاة ووحدة من الخيّالة فهبّ لمواجهتهم سليمان سلطان الروم بجيش من التركمان إلى جيش الإسلام، وكان الفرنج حاصروا مدينة نيقية، والتقى الجيشان فهُزم جيش السلطان هزيمة نكراء ونهب الفرنج المدينة وسبوا وقتلوا...

إلاّ أنّ السلطان سليمان تمكّن من حشد جيش قوامه مئة وخمسون ألف رجل من الخيّالة وهاجم عسكر الفرنج على حين غرّة فقتل منهم الكثير بواسطة السهام. ثمّ جمع الفرنج شملهم وشنّوا عليه هجوماً معاكساً فهزموه وغنموا كلّ عتاده، وتوجّهوا نحو إنطاكية، فسبقهم أحد قادة جيشهم تنكريد المركيس واحتلّ طرطوس وبلاد قيليقية بأسرها. أمّا بلدوين أخو جوفريد فتوجّه إلى ما بين النهرين واستمال إليه النصارى في الرها فقتلوا حاكمهم وسلّموه المدينة وشميشاط وصور

ورجه فبسط سلطته على كلّ تلك البلدان. وفي هذه الأثناء وصل عسكر الفرنج إلى نهري الفرات والصاحي وعبروهما بأمان، حتى بلغوا مدينة إنطاكية، وحاصروها حصاراً محكماً لتسعة شهور وكان حاكمها يومئذٍ باجي سنان. وسارع سنان إلى إبعاد نصارى المدينة إلى خارجها لئلاّ يفعلوا به ما فعلوه بحاكم الرها ونهب أموالهم وكنائسهم، ثمّ طلب الدعم والنجدة من أهل حلب وحمص وحماه وغيرهم استعداداً للمعركة.

وعندما اكتملت الاستعدادات للمعركة الكبرى من جانب المسلمين إذ بلغ عدد جيشهم ثمانية وعشرين ألف فارس، كما من جانب الفرنج، هاجم جيش الفرنج تحت جنح الليل المسلمين فشتّتوا شملهم وأوقعوا فيهم نحواً من ألفي قتيل وغنموا أموالهم وعتادهم ورفعوا رؤوس بعضهم على أسنّة الرماح قبالة أهل إنطاكية الذين وقعوا في الخوف والرهبة، وجرت هذه المعركة في السنة ٤٩٢هـ. لكن الفرنج ضعفت عزيمتهم بعد طول حصار في ظلّ شتاءٍ قاسٍ ودبّ فيهم اليأس من دخول المدينة فغادروا بحراً. وكان المسلمون يشنّون عليهم الغارات خارج المدينة ويعودون إليها، في وقت كانت الإمدادات والنجدات تتدفّق على المسلمين في إنطاكية التي كانت تحت سلطان بغداد الذي أوفد إليهم كربوغا صاحب الموصل لنجدتهم فنزل في مرج دابق، حيث التقى أيضاً بسليمان صاحب نيقية بجيشٍ كبير من الروم.

لكن الفرنج كانوا في حال مزرية نتيجة نقص الغذاء والماء والروح المعنوية المتدنّية، فعمد أحد قادتهم في البرج إلى مراسلة بيومند الفرنسي واعداً إيّاه بتسليمه البرج سرّاً، فدبّر الأخير الأمر مع قوّاده وأدخلوا عسكراً ليلاً من كوّة في جدار البرج واحتلّوه. ولمّا أفاق أهالي إنطاكية ومَن فيها صباحاً ورأوا رايات الفرنج ترفرف فوق البرج أدركوا أنّ المدينة قد سقطت، وعندما دخلها جيش الفرنج سارع باجي سنان إلى الهرب بثلاثين فارساً تاركاً أهله وحريمه واتجه إلى حماه، لكنّه مرض وخارت قواه فتركه أصحابه ونجوا بأنفسهم. ثمّ التقاه رجلٌ أرمنيّ فقطع رأسه وحمله إلى الفرنج الذين لم يجدوا في داخل إنطاكية ما يأكلونه بعدما فرغت من المؤن بفعل الحصار الطويل، لكن المراكب البحريّة جاءتهم بها من المغل، كما أرسل لهم بلدوينوس صاحب الرها والنصارى في المنطقة المزيد من المؤونة.

غير أنّ خبر سقوط إنطاكية في أيدي الفرنج بلغ إلى كربوقا صاحب الموصل وكان في مرج دابق، فأرسل جيشاً ليسبقه إلى المدينة ثمّ لحق به في اليوم الثالث وأقام الحصار على الفرنج وقطع

عليهم كلّ المنافذ البريّة والبحريّة، ولم يلبثوا أن وقعوا مجدّداً في حال الجوع الشديد حتى أكلوا لحم الدواب والجيف وتمكن بعضهم من الفرار عبر البحر. وهكذا لم يعد أمامهم من مفرّ سوى مهاجمة كربوقا فاتكلوا على اللّه وخاضوا حربهم ضدّه فانتصروا على جيش المسلمين، وفرّ كربوقا وعبر نهر الفرات.

لكنّ وباءً ضرب جيش الفرنج وقيل إنّ معدّل ضحاياهم اليومي كان أربعين جنازة، وبلغ عدد موتاهم أربعين ألفاً في خلال ثلاث سنوات، ما جعلهم يعدلون عن التوجّه نحو القدس. وكان الفرنج قد احتلّوا البيرة، ثمّ انتقلوا نحو معرة النعمان، المدينة القويّة المعروفة بشدّة بأس رجالها، فدخلوها، لكنهم لم يجدوا فيها أحداً لأنّ أهلها كانوا لجأوا إلى المغاور تحت الأرض، فضخّ الفرنج الدخان إلى داخل هذه المغاور والسراديب حتى أخرجوا مَن فيها وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف واستولوا على المدينة.

ثمّ بعد حين حاول قوّاد العسكر المسير نحو بيت المقدس فقصد بعضهم طريق البحر واحتلّ جبلة وطرطوس وحرّروا الأسرى الذين كانوا في اللاذقية، أمّا البعض الآخر فقصد طريق البرّ، والتقى الفريقان في أرض عرقة، حيث عيّد جيش الفرنج عيد الفصح هناك وهم يقيمون الحصار على عرقة لأكثر من شهرين. وبادر صاحب طرابلس بإرساله لهم خمسة عشر ألف دينار، إضافةً إلى الخيل والبغال والأقمشة مقابل حماية طرابلس، كما زوّدهم أدلاّء لإرشادهم في الطرق، وتلقّوا هدايا من نصارى لبنان وجبل سير...

وصل عسكر الفرنج بأمان إلى قيسارية التي هي رأس فلسطين الثاني، فاكتشفوا أنّ المسلمين قد خرّبوا هيكل مار جرجس الذي كان بناه يوستنيانوس ملك الروم، واحتلّوا الرملة التي أخلاها أهلها وفرّوا منها خوفاً من الفرنج. إلاّ أنّ صاحب بيت المقدس الخاضع للخليفة المصري حشد جيشه وحصّن المدينة وزوّدها آلات الحرب والمياه، ورمّم أسوارها، ورفع المظالم عن المسلمين من أهلها وحرّضهم على مسيحييها فنهبوا دورهم وكنائسهم وطردوهم خارج مدينتهم بيت المقدس.

ثمّ التفّ عسكر الفرنج حول بيت المقدس بنحو ألف ألف مقاتل (وفق الحريري) وأربعين ألفاً (وفق أسقف صور). وأمّا جيش المسلمين فكان عدده في داخل المدينة نحو أربعين ألفاً، وحاول المهاجمون تسلّق السور فلم يتمكّنوا، فصنعوا برجين من الخشب واستقدموا منجنيقات وسلالم وأدوات الحصار استعداداً لإعادة الكرّة. ثمّ زحفوا بالبرج الأوّل من جهة الوادي وأقاموا البرج

الثاني في باب صهيون وتمكّنوا من الاقتراب بهما حتى التصقا بالسور، فأحرق المسلمون البرج الثاني وقتلوا مَن عليه، فعبر الفرنج بالبرج الأوّل وهاجموا المدافعين عن المدينة واجتاحوها فهُزم المسلمون وفرّوا إلى الأقصى والصخرة واعتصموا فيهما. واقتحم الفرنج المعقلين وقيل إنّهم قتلوا من المسلمين مئة ألف ونهبوا كلّ متاع المسلمين في المدينة، بعدما كانت تحت سلطة المسلمين لنحو أربعماية وستة وثلاثين سنة منذ فتحها عمرو بن الخطاب في السنة العاشرة للهجرة، وظلّت في أيدي الفرنج ثمانية وثمانين سنة، إلى أن حرّرها منهم صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٨٧م.

ولمّا بلغ خبر حصار بيت المقدس الأفضل ابن أمير الجيوش زحف من مصر بعشرين ألف مقاتل، وانضمّت إليه جموع من الشام والعرب بأكثر من عشرة آلاف رجل، وتقدّم نحو الفرنج لكنّه ولّى هارباً إلى عسقلان فلاحقوه وقتلوا من جماعته الكثيرين وأحرقوا جوار عسقلان وعادوا إلى القدس، وهرب أناس كثيرون من دمشق، فيما تمّ إحراق كنيس اليهود بمَن فيه. ثمّ أقام الفرنج على القدس ملكاً اسمه جوفريد الذي كان بطلاً في الحرب، لكنه رفض وضع التاج على رأسه إكراماً للّذي كُلّلت هامته بإكليل من الشوك في تلك المدينة.

وفي السنة ٤٩٥هـ اجتمع أمراء الحرب من الفرنج مع أساقفتهم وانتخبوا برنردوس ليكون بطريركاً على بيت المقدس وكان جوفريد ملكاً على أورشليم وبواند أميراً على إنطاكية، ثمّ بعثوا برسائل إلى البابا بسقاليس يعلمونه بكلّ ما حصل من حوادث. وبعدما ثبّت الملك جوفريد سلطانه في القدس مع الأمير تنكراد وكان لديهما من العساكر نحواً من ألفي راجل ومايتي فارس فقط، الأمر الذي حفّز الأعداء المحيطين بالمدينة، فسار جوفريد نحو سواحل البحر وأقام الحصار على المدينة المقدّسة، ثمّ عكا، لكنّه وجدهما جاهزتين للمقاومة والقتال لاكتفائهما بالرجال والماء وآلات الحرب، فتخلّى عن مواجهتهما وتوجّه إلى خارج الأردن، قبل أن يعود غانماً كنوزاً وثروات إلى بيت المقدس.

لكن المنيّة لم تمهله طويلاً إذ ألمّت بالملك جوفريد حمّى شديدة سرعان ما توفي على أثرها وتمّ دفنه تحت جبل الجمجمة في كنيسة القيامة بالقدس. ولمّا بلغ الخبر أخاه الأمير بلدوين وهو في مدينة الرها انتقل إلى إنطاكية بألف من رجاله، ثمّ أرسل زوجته بحراً إلى يافا، وأكمل سيره عبر طريق الساحل حتى وصل إلى نهر الكلب في لبنان، حيث كمن له مسلمون قاومهم وهزمهم، وأكمل سيره إلى يافا ومنها إلى بيت المقدس حيث توجّه البطريرك ملكاً عليها.

بعد تتويجه السنة ١١٠٠م. ثار العرب في نواحي اللد وقطعوا الطرق وقتلوا كلّ عابر طريق فهاجمهم الملك بلدوين وقتل منهم الكثيرين وطاردهم بعسكره إلى خارج الأردن. ثمّ توفي المستعلي باللّه الخليفة العلوي المصري، فملك بعده ابنه أبو علي المنصور وهو في سن الخامسة ولُقّب بالآمر بأحكام اللّه، فتولّى إدارة الملك ابن أمير الجيوش.

وفي السنة ٤٩٦هـ توجّه من بلاد النصارى عددٌ من القادة الفرنج ومع كلٍّ منهم عسكره إلى القسطنطينيّة، وحاولوا دخول البلاد من طرق عدّة، لكن السلطان دقّاق حشد جيشاً عرمرماً من البلاد النامية والعرب وانضمّ إليه صاحب حماة جناح الدولة، وأقاما كميناً للفرنج وقتلوا منهم ما يزيد عن خمسين ألف رجل وفرّ الباقون في اتجاه إنطاكية. وهناك أعاد المنهزمون الفرنج حشد قواهم وما لبثوا أن خرجوا من إنطاكية إلى طرطوس وأقاموا الحصار عليها حتى سقطت في أيديهم، ثمّ قصدوا السير إلى بيت المقدس لكنهم كانوا خائفين من أهالي السواحل في بيروت وصيدا وصور وعكا الذين كانوا متحكّمين بهذه الطريق الساحليّة، لذلك طلبوا النجدة من الملك بلدوين الذي زحف بجيشه إلى نهر الكلب وأمّن عبور عسكر الفرنج في اتجاه القدس.

وفي السنة إيّاها (٤٩٦هـ) قدم النصارى الجنوبيون بعددٍ من المراكب إلى مدينة يافا وعقدوا مع بلدوين الملك اتفاقاً، وتوجّهوا معاً إلى مدينة حيفا وأحكموا عليها الحصار برّاً وبحراً حتى دخلوها، ثمّ انتقلوا إلى قيسارية سطراتون ونصبوا أبراجهم الخشبيّة وحاصروها لخمسة عشر يوماً قبل أن يفتحوها بالسيف ويعملوا فيها قتلاً ونهباً وأسراً، وأقالوا قاضيها ووضعوا لها مطراناً يدير شؤونها، وأكملوا زحفهم نحو الرملة فوجدوها خالية من الناس.

ثمّ وصلت الجيوش المصريّة لمقاتلة الفرنج وكان عدد مشاتها عشرين ألف مقاتلة وأحد عشر ألفاً من الخيّالة، لكن الملك بلدوين تصدّى لهم ولم يكن في إمرته سوى مايتين وستين فارساً وتسعماية رجل. والتحم الجيشان في الرملة فقتل مقدّم عسكر المصريين إلى خمسة آلاف من جيش المسلمين مقابل ماية وخمسين من الفرنج.

وفي السنة ١١٠٢م انضمّ أهل عسقلان إلى جيش المصريين وبلغ العدد عشرين ألف مقاتل ساروا إلى الرملة، ولمّا بلغ الخبر صاحب القدس سارع قاصداً إقناع أهل عسقلان بعدم خوض الحرب ضدّ الفرنج إلى جانب جيش المسلمين وتبعه عددٌ من أنصاره، لكن جماعة من الجيوش المصريّة هاجمته فاشتبك معها لكنّه هُزم أمامها وأدخلته إلى قلعة الرملة.

لكن أمير طبرية تنكريدة تقدّم مع جماعته نحو إنطاكية وحاصر حماة واللاذقية وأخضعهما بقوّة السيف. وفي السنة ١١٠٤م وصلت من مدينة جنوا الإيطاليّة سبعون سفينة وعقد أصحابها معاهدة مع بلدوين صاحب القدس على الثلث وقصدوا عكا وحاصروها من البرّ والبحر وقتلوا من أهلها الكثيرين وسقطت في أيديهم. ثمّ عقد فرسان الفرنج وبطاركتهم، أي الملك بلدوين والأمير بيومند والأمير انكريد وبطرك إنطاكية وبطرك بيت المقدس وغيرهم اجتماعاً قرّروا خلاله محاصرة حران قرب الرها، وزحفوا إليها بجيوشهم وشدّدوا عليها الحصار ما اضطرّ أهلها إلى تسليمها طوعاً بعدما نفذت المؤن لديهم وقلّت المياه. ولكن سرعان ما دبّ الخلاف بين الملك وبولند بسبب خلافهما على مَن يحكم المدينة وانعكس الخلاف انقساماً بين العسكر. وقد استغلّ هذا الوضع أهالي حيران الذين كانوا نزحوا من مدينتهم قبل سقوطها بأيدي الفرنج، فجمعوا شملهم وشنّوا هجوماً صاعقاً على المحتلّين وهزموا جيشهم المنقسم على نفسه وقتلوا منه الكثيرين وغنموا كلّ ما كان فيها، وأسروا الملك بلدوين ومعاونيه وعدداً من القادة العسكريين.

أمّا بيومند فعاد إلى فرنسا وتزوّج إبنة ملكها، فيما عاد بطريرك القدس إلى روما.

ثمّ أقدم بلدوين على إطلاق زوجته خلافاً للشريعة المسيحيّة، ما اضطرّها إلى الترهّب في أحد أديار القدس، لكنها سرعان ما نزعت عنها الثوب الأسود وسافرت إلى القسطنطينيّة حيث انجرفت إلى الموبقات والقبائح.

وفي هذه الأثناء وصل قوما الكفرطابي مطران كفرطاب إلى جبل لبنان حيث قضى أربع سنين في يانوح وبشري وراح يزرع تعاليمه الفاسدة بين الناس لكنهم لم يؤخذوا بها، ما عدا خوري فرشع.

وفي السنة ١١٠٥م توفي رايمند أمير تولوصه ودُفن في طرابلس، ثمّ هاجم رضوان ملك حلب أرض إنطاكية وعمل فيها قتلاً وحرقاً وهدم ضياعاً كثيرة، قبل أن يتصدّى له تنكريد الفرنجي ويهزمه.

وفي السنة إيّاها (١١٠٥م) دفع خليفة مصر بحملة على الفرنج قوامها نحو من خمسة عشر ألف مقاتل، فهبّ لمواجهتهم بلدوين ملك القدس بحوالى ألفين من المشاة وخمسمئة فارس يتقدّمهم بطريرك القدس شاهراً عود الصليب تشجيعاً للمقاتلين. ثمّ دارت رحى المعركة في منطقة ما بين الرملة ويافا، فهزم جيش المسلمين، وتردّد أنّ عدد قتلى الفرنج لم يتجاوز الستين، مقابل نحو أربعة آلاف من عسكر المسلمين وبينهم حاكم عسقلان، كما أُسِر حاكم عكا، الذي أُطلق سراحه

مع عددٍ من الأسرى. وأمّا باقي المهزومين ففرّوا إلى يافا محاولين التوجّه إلى المراكب لكن العواصف الشديدة هبّت في وجههم، فعادوا إلى أرض النصارى الذين غنموا منهم عشرين مركباً وأسروا نحو ألفين من البحّارة.

وفي السنة خمسماية للهجرة هاجم السلطان محمّد بن ملكشاه قلعة أصبهان الحصينة فانتزعها من قبضة الإسماعيليّة وقتل ابن غطاش رأس الاسماعيليين وسلخه وهو حي بعد ودمّر القلعة. ثمّ بعد ذلك بسنة حاصر الملك بلدوين صور وأقام في مواجهتها حصناً، فسارع المتولي عليها ونقد بلدوين سبعة آلاف دينار، فرحل عن صور إلى صيدا. ثمّ غزا طفتكين مدينة طبرية وكانت تحت سيطرة الفرنج، فتصدّى له ابن شقيقة بلدوين فهزم الفرنج وأسر مقدّمهم، فعرض على طفتكين إطلاقه مقابل خمسماية أسير وثلاثين ألف دينار فرفض العرض وذبح المقدم. ثمّ وقعت مذبحة الاسماعيليين على أيدي أولاد منقذ ولم ينجُ أحدٌ من الاسماعيليين الذين تمّ ذبحهم بالخناجر.

في السنة ١١٠٨م عاد رايمندوس أمير طولوجه إلى فرنسا بعدما ثبت ابن أخيه يوردان والياً على البلاد التي كانت تحت سلطانه في بلاد الشام، لكنّه سرعان ما وافته المنيّة هناك، فهبّ ابنه بيلترانوس مع أهل جنوى على متن سبعين سفينة متوجّهين إلى بلاد الشام لاستعادة أملاك أبيه. لكنه بوصوله وجد أن ابن عمّه يوردان يحاصر مدينة طرابلس وقد بسط سيطرته على تركة والده، فوقع بينهما خلافٌ شديد، فتدخّل قادة فرسان الفرنج وسطاء وأصلحوا الأمر بين الرجلين على أن تكون عرقا وطرطوس وما يتبعهما ليوردان وطرابلس وجبيل وجبل الغرباء وما يتبع لها من حصة بيلترانوس، وأن يكون يوردان خاضعاً لسلطة ملك إنطاكية وابن عمّه لملك القدس.

ثمّ بعد حصارٍ استغرق نحواً من خمس سنين تمكّن الفرنج من مقاربة طرابلس حيث أقاموا بقربها حصناً. لكن صاحب المدينة هاجم الحصن ودمّره وقتل كلّ مَن كان في داخله، وأرسل طلباً للنجدة عبر البحر فجاءه شرف الدولة بالمؤن، وكان ذلك في السنة ١١٠٩م. استمرّ الحصار على المدينة من جديد عبر ابن الأمير رايمندوس ومعه قوم من الجنوب، ثمّ قدم ملك القدس بلدوين الفرنجي إلى دعم المحاصرين الذين أقاموا أبراجاً من خشب وحديد حول طرابلس وألصقوها بالأسوار، وتمكّنوا من دخولها وقتلوا عدداً كبيراً من سكانها بينهم علماء مسلمون. بعد طرابلس واحتلالها زحف الفرنج إلى بانياس فاحتلّوها، ثمّ سقطت جبيل في أيديهم

لافتقارها إلى القوت، وكان فيها ابن عمار صاحب طرابلس الذي فرّ إلى دمشق حيث أكرمه طفتكين، وولاّه على الزبداني. ثمّ كرّت سبحة الاحتلالات الفرنجيّة لتمدّ إلى حصن عكار وحصن المنيطرة وحصن مصياف وحصن الأكراد... ثمّ في السنة ١١١٠م حشد ملك القدس جيوشه وزحف بها نحو بيروت فحاصرها طوال شهرين برّاً وبحراً، قبل أن يأخذها بالسيف ويقتل الكثيرين من أهلها.

ومن بيروت إلى صيدا، إذ وصل العديد من السفن من بلاد الغرب لزيارة الأماكن المقدّسة والتي رست في مدينة يافا، فتوافق مع مَن كان على متنها والملك بلدوين على أخذ مدينة صيدا، فحاصروها من البرّ والبحر حتى سقطت في أيدي الفرنج وفرضوا عليها عشرين ألف دينار.

ويروي مطران صور اللاتيني أنّ جيوشاً كثيرة وفدت من بلاد الشام وبغداد والعجم بخيول كثيرة كالجراد فعبروا نهر الفرات وحاصروا حصن دير سمعان لشهر، ثمّ دخلوا مدينة حلب، فسارع صاحب إنطاكية إلى الاستنجاد بالملك بلدوين والتقى الجيشان قرب مكان يقال له شيزر. ثمّ استولى الفرنج على حصن الأتراك وحصن روديا بالسيف وهما من أعمال حلب، فأخلى أهل منبج وبالس بلديهما بعدما استولى الفرنج على إقليم الشام بكامله، فطلب المسلمون الهدنة فأُعطيت لرضوان صاحب حلب مقابل ثلاثين ألف دينار وأمتعة وخيول... كما صالحهم شيزر على عشرة آلاف دينار، وصاحب حماة على ألف دينار، وصاحب صور على أربعة آلاف، وبذلك باتت بلاد الشام تحت سيطرة الفرنج بكلّ سواحلها.

ثمّ قدم الفرنج إلى مدينة صور وأقاموا عليها الحصار لنحو أربعة أشهر، لكن المدينة لم تسقط كونها كانت مكتفية بالأغذية وآلات الدفاع، فبنى الغزاة برجاً خشبياً ألصقوه بسورها، لكنّ المسلمين أحرقوه بالنفط واستبسلوا في الدفاع عن المدينة. ولمّا عجز الفرنج عن دخول صور وطال الحصار خافوا من أن يقدم طفتكين على حرق المؤن والغلال، فصالحوا أهلها مقابل مبلغ من المال وانصرفوا عنها.

وفي هذا الوقت انتعشت النصرانيّة وانتشرت في بلاد الشرق وبات النصارى يجاهرون بدينهم، ويقرعون أجراس كنائسهم، كما بنى البعض أديارًا وكنائس، ومن هؤلاء ثلاث بنات للخوري باسيل البشراني، مريم التي بنت هيكل مار سابا في بشري، وسالومي بنت هيكل مار دانيال في الحدث، فيما بنت تقلا هيكل مار جرجس في بقرقاشا وكنيستين في الكورة.

وفي تلك الحقبة استمرّت الحرب سجالاً ما بين الجانبين حتى السنة ١١١٣م، حينما وصلت جيوش الموصل لدعم جيش المسلمين. وكانت أعدادهم ضخمة جداً وكان قائد جيوش الموصل صاحبها مودود، فعبروا نهر الفرات إلى درب البقاع، وصولاً إلى طبرية، فأسرع الملك بلدوين إلى طلب النجدة من صاحب إنطاكية وصاحب طرابلس، وخرج مع جيشه لمواجهة المسلمين. وكان جيش المسلمين قد نصب كميناً للفرنج قبل وصولهم إلى الأردن وقتل منهم نحو ألف وثلاثماية جندي، وفق مطران صور، كما أسر كثيرين، وتمكّن أحد المسلمين من أسر الملك بلدوين من دون أن يعرفه فاكتفى بسلبه ما يحمل من متاعٍ وتركه جريحاً في العراء فنجا من الموت. وفجأة وصلت النجدة من طرابلس ومن إنطاكية إلى الفرنج فاشتدّت عزيمتهم واستجمعوا قواهم واستأنفوا الحرب على المسلمين الذين شحّت موارد القوت لديهم فاتجهوا إلى ناحية بيسان وفي طريقهم نهبوا قرى الفرنج وأحرقوها ما بين القدس وعكا.

إضافةً إلى ذلك اغتنم رجال عسقلان وجود جيوش الفرنج في طبرية فهاجموا مدينة القدس وحاصروها وأحرقوا بيادر السكان وقتلوا كلّ مَن عثروا عليه خارج أسوار المدينة، قبل أن يشعروا بعودة بلدوين ويفرّوا هاربين. ولمّا بلغ أهل الموصل خبر رسو مراكب الفرنج في يافا فرّوا إلى دمشق، لكن صاحبها طفتكين لم يسمح لهم بدخول المدينة واستقروا في مرج السفر.

وذات يوم جمعة بينما كان طفتكين يهمّ بدخول الجامع للصلاة يداً بيد مع مودود، تقدّم منهما رجل إسماعيلي بدا وكأنه يتسوّل وسرعان ما انقضّ على مودود وطعنه بأربع طعنات من خنجره، فسقط قتيلاً لتوّه. لكنّ الحرس قبضوا على القاتل وقطعوا رأسه وطافوا به في الأنحاء فلم يتعرّف عليه أحد، غير أنّ البعض قال إنّ الأمر تمّ بمؤامرة أعدّها طفتكين لقطع الطريق على مودود لئلاّ ينقلب عليه ويستولي على الملك.

وفي هذه الأثناء كان الملك بلدوين يستقبل أميرة صقلية وافرة الثراء كان طلبها للزواج بعد طلاقه من زوجته الأولى، فعُقد قرانهما على يد ارنلفوس بطرك القدس.

وتوفي فخر الملوك رضوان بن تتش السلجوقي، ليحل محلّه أخوه تاج الدولة أرسلان (وكان أخرس) قتل أخويه وأبا طاهر الصانع الاسماعيلي من حلب، وتسلّم المدينة وقلعتها لؤلؤ خادم تاج الدولة بن الجلال، ثمّ في السنة ٥١١هـ تسلّم الأمير بلغاري بن أريق ولاية حلب وحكمها لخمس سنين.

ولمّا أطلّت السنة ١١١٤م (وفق مطران صور اللاتيني) ضربت هزّة وزلازل عظيمة قيليقيا وحلب وبلدان الشام فتهدّمت ضياع وبيوت وحصون وأسواق كثيرة، ومات الكثيرون تحت الردم... وفي السنة ١١١٥م وصل إلى بلاد الشام آق سنقر البرسقي ومعه خمسة عشر ألف فارس في طريقه إلى غزو الفرنج وبلغ إنطاكية وحلّ عند شيزر. ولمّا بلغ الخبر إلى طفتكين صاحب دمشق ساورته الشكوك من أن تكون الحملة تستهدفه انتقاماً لمقتل مودود صاحب الموصل الذي قُتل أمام الجامع في دمشق، فأوفد إلى بلدوين من حمل الهدايا الثمينة وكذلك إلى صاحب إنطاكية وصاحب طرابلس فاستجابوا له جميعاً وزحفوا بالعساكر إلى شيزر حيث وقعت الهزيمة على البرسقي.
وفي السنة عينها مني جيش المسلمين أيضاً بهزيمة نكراء في عسقلان، ذلك أنّ هؤلاء لمّا أيقنوا من سفر الفرنج ناحية إنطاكية طلبوا النجدة من ملك مصر وبادروا إلى حصار يافا، بعدما وصلت إليهم سبعون سفينة مصريّة أحاطت بمينائها من كلّ الجهات بحراً وبرّاً. لكن أهل يافا كانوا قلّة إلاّ أنهم واجهوا المسلمين الغزاة بكلّ شجاعة وإصرار، وأرغموا محاصريهم على فكّ الحصار والعودة إلى مصر، خشية أن يأتي الفرنج لنجدة المدينة.
وعندما علم البرسقي بانسحاب المسلمين وإنهاء الحصار وعودة عسكر الفرنج وعسكر الشام من يافا، ولم يبقَ فيها إلاّ القليل من المدافعين، ضربه الطمع وعاد مع العسكر الموصلي إلى نواحي إنطاكية حيث مارس النهب والقتل والسبي وإحراق القرى، فطلب صاحب المدينة عوناً عاجلاً من بلدوين صاحب الرها الذي استجاب له، فخرج بجماعته من المدينة وزحفا بجيشهما إلى قتال الموصلين وانتصرا عليهم وقتلا منهم ما يزيد عن ثلاثة آلاف رجل، وعادا إلى إنطاكية منتصرَين.

وفاة بلدوين

إثر هذه الحروب والمعارك، وما تخلّلها من هزائم وانتصارات قرّر بلدوين ملك القدس أن يعبر بجيشه نهر الأردن ففعل، ووصل إلى منطقة الشوبك حيث بنى برجاً على رأس جبل، أحاطه بالخنادق والمراكز الدفاعيّة، وعزّزه بموارد المياه، حتى إذا ألمّت بالفرنج هزيمة ما في تلك النواحي لجأوا إليه واحتموا فيه. ثم أوعز بلدوين إلى كثيرين من السريان في المنطقة بالانتقال إلى بيت المقدس مع عيالهم وممتلكاتهم التي كانت في تلك الحقبة قليلة السكان، ففعلوا مع

غيرهم من المسيحيين. وفي أثناء توجّهه إلى شواطئ البحر الأحمر لاستكشافها ألمّ به مرض شديد، فعاد مسرعاً إلى المدينة المقدّسة. وكانت غضبة قامت على بلدوين عندما طلّق زوجته وتزوّج من أميرة صقلية خلافاً للشريعة الانجيليّة، ما حمله على إعادتها إلى بيت أبيها، الأمر الذي أسّس لحال من العداء بينه وملك صقلية. وكان ذلك في السنة ١١١٦م.

ولمّا تعافى بلدوين سار إلى عكا وبدأ في بناء حصن على شاطئها في المكان عينه الذي بنى الإسكندر قلعة عُرفت باسمه، لأنّ الشواطئ وسواحل البحر كانت في يد الفرنج ما عدا مدينة صور. وفي السنة ١١١٧م زحف بلدوين بجيشه نحو مصر ليستوفي البدل الذي وعد به مقابل تحييدها فوصل إلى فارام على النيل فأخذها عنوة وأباحها لعسكره، ثمّ بلغ عريش مصر حيث أسلم الروح نتيجة حمّى شديدة ضربته، ونُقل جثمانه إلى القدس وسط حزنٍ عمّ ممالك الفرنج برمتها، حيث دُفن في هيكل القيامة قرب أخيه الملك جوفريد.

وكان بلدوين ملك بيت المقدس لأكثر من ست عشرة سنة ونصف السنة وحرّر طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وقيسارية وعكا وحيفا والرملة وبانياس وحصونها جميعاً من أيدي المسلمين، إلى حلب وحاران، وفارام في مصر، وفي عهده تمكّن المسيحيون من الجهر بدينهم صراحة وممارسة طقوسهم وراحوا يبنون الكنائس والأديار ويقرعون أجراسهم للصلاة...

وفي السنة ١١١٨م، وفي حضور بطرك بيت المقدس وقادة الجيش تمّ تنصيب بلدوين أمير الرها وأحد أنسباء بلدوين المتوفي، على عرش السلطة وسُمّي بلدوين الثاني.

ولمّا علم الآمر بأحكام اللّه خليفة مصر بوفاة بلدوين، طلب إلى طفتكين صاحب دمشق ملاقاته مع عسكره في عسقلان لتحرير القدس من قبضة الفرنج، فزحفت الجيوش من مختلف الأصقاع المصريّة والشاميّة عبر البرّ والبحر، بعدما أتتهم المراكب من صيدا ناقلة مقاتلين. أمّا بلدوين الثاني ملك القدس فدعا قادة الفرنج إلى الاجتماع فجاء هؤلاء من إنطاكية وطرابلس والقدس وساروا معاً لمواجهة جيوش المسلمين على أرض فلسطين. ولمّا اصطفّ الجيشان وجهاً لوجه أخذ الخوف مأخذه من المسلمين فعادت الجيوش المصريّة إلى مصر والشاميّة إلى الشام والفرنج إلى ممالكهم.

ثمّ في السنة إيّاها توفي ألكس ملك اسطنبول وخلفه ولده الملك حنا، كما توفي البابا بسقاليس الثاني (١١١٨م) فحلّ محلّه في السدّة البابويّة في روما جيلاسيوس، كذلك توفي أرنلفوس

البطريرك وانتُخب مكانه جرمند. وفي هذه الأثناء ظهر مَن عُرفوا بفرسان القدس الذين نذروا أنفسهم لمواكبة الزوار من البحر إلى القدس، وكانوا يرتدون ثياباً بيضاء عليها صلبان حمراء، ثمّ راح عددهم يتزايد بعدما قوبلت أعمالهم بكلّ ترحيب وإعجاب.

لكن طفتكين ملك دمشق سعى إلى معاودة حربه على الفرنج فاتفق مع أمير الترك ويبويه أمير العرب وساروا معاً بجيوشهم، من جيش الشام وجيش الترك وجيش العرب إلى نواحي حلب مستهدفين الفرنج في إنطاكية، التي سارع صاحبها روجيار طالباً النجدة من بلدوين ملك القدس، ومن فنطيوس أمير طرابلس، واستبق وصول النجدة وخرج بجيشه إلى مواجهة جيوش المسلمين فوقعت عليه الهزيمة وتمكّن المسلمون من حلب وإنطاكية نتيجة لتسرّع روجيار وقلّة عدد جيشه.

لكن عندما وصل بلدوين بجيشه إلى الجبل الأسود تصدّى له جيش من عشرة آلاف مقاتل لمنعه عن دخول إنطاكية. لكن ملك القدس وأمير طرابلس تمكّنا من سحق جيش المسلمين بعدما سقط من جيشهما نحو سبعماية قتيل وأربعة آلاف من المسلمين الذين فرّوا من ساحة المعركة وعادوا مهزومين من حيث أتوا... وهكذا دخل بلدوين إنطاكية ومعه الصليب مرفوعاً. غير أنّ تلك السنة حملت الجراد والجرذ إلى البلاد التي أكلت نباتها وثمارها فعمّ الغلاء واستشرى الوباء.

وفي السنة ١١١٠م كان بطرك الموارنة قاطناً في بلاد البترون فأوفد عدداً من الرهبان إلى قبرص ليستقرّوا في دير مار يوحنا كوزبندي هناك.

ثمّ حاول غازي التركي مجدداً مهاجمة إنطاكية بجيوش كثيرة، فسارع الملك بلدوين لنجدتها رافعاً شعار الصليب، إلاّ أنّ غازي توفي نتيجة عارضٍ صحّي مفاجئ فتفرّقت جيوشه وعاد كلٌّ إلى بلاده.

وفي السنة ١١٢٢م عاود طفتكين صاحب دمشق محاولته الاستيلاء على طبرية وانتزاعها من أيدي الفرنج، فخرج إليه بلدوين، فعاد من حيث أتى، إلاّ أنّ بلدوين أكمل سيره إلى قبله وحاصر شيروصه إحدى المدن العشر قرب نهر الأردن حيث هدم الحصن الذي كان طفتكين أقامه قبل نحو سنة.

لكن الخلاف انفجر بين الملك بلدوين وبنطوس صاحب طرابلس، فطمع بهما أمير الترك وراح يشنّ غزوات في نواحي إنطاكية ويعمل فيها نهباً وقتلاً، فوقع جوسلين صاحب الرها في يده

فأرسله مقيّداً وزجّ به في حصن خارج الفرات. ولمّا بلغ الخبر إلى بلدوين سار إلى طرابلس وأعاد صاحبها إلى طاعته، قبل أن يتوجّه إلى إنطاكية ويهزم الأتراك، لكنّه عاد ووقع أسيراً في أيديهم بينما كان متوجّهاً إلى الرها لفك أسر جوسلين وزجّوه معه في السجن. لكن مجموعة من نحو خمسين أرمنيّ حاولوا تحرير الأسرى وتمكنوا من دخول الحصن عبر إحداث فجوة في سوره، فعلم بهم أهالي الضياع في تلك النواحي وجميعهم مسلمون واستقدموا أمير الترك ولم ينجُ سوى جوسلين واثنين من السجناء، فشدّد المسلمون حصارهم على الحصن ودخلوه وقتلوا الأرمن ونكلوا بهم ودفنوا بعضهم وسلخوا جلودهم وهم أحياء. أمّا جوسلين فتمكّن ومَن معه من عبور نهر الفرات سباحة ووصلوا إلى بيت المقدس طلباً للنجدة، وأمّا بلدوين فنُقل أسيراً من الحصن إلى مدينة حران قرب الرها.

ولمّا تحقّق الخليفة المصري ممّا آل إليه وضع الملك بلدوين فجهّز جيشاً بريّاً ونحو سبعين سفينة ليحرّر القدس من أيدي الفرنج. وكان الفرنج اختاروا صاحب صيدا ليكون حافظاً للملك في أثناء غياب الملك بلدوين فجمع هذا مع البطرك نحو سبعة آلاف مقاتل توجّهوا من قيسارية إلى يافا التي كان المصريون يحاصرونها، لكنهم سارعوا إلى الانسحاب ما إن سمعوا بقدوم الفرنج إليهم. ثمّ وصل عسكر المصريين من البرّ فانقضّ عليه الفرنج وقتلوا منه نحو سبعة آلاف وفرّ الباقون مهزومين.

ثمّ خرج أمير البندقية مخايل بأسطول بحري كبير لنصرة المسيحيين في بلاد القدس ووصل إلى جزيرة قبرص حيث رست مراكبه فيها، وكانت مراكب مصر راسية في سواحل الشام في ميناء عسقلان الذي قصدته مراكب الفرنج، فاعتقد المصريون أنها مراكب مصريّة. لكن مراكب البندقية حاصرتهم وقتل عسكرها أعداداً هائلة من المصريين، وطاردتهم حتى العريش. ثمّ تمّ الاتفاق على تحرير صور وعسقلان من المسلمين، عبر اتفاق على تقاسم المغانم فتكون بنسبة ثلاثة لأهل البندقية والباقي لملك القدس. وفي السنة ١١٢٥ حاصر الفرنج برّاً وبحراً مدينة صور وأقاموا أبراجاً عالية من الخشب لاستكشاف ما يدور في داخلها، ثمّ قذفوا عليها النفط والحجار بواسطة المنجنيق وآلات الحصار التي لم تتوقف نهاراً وليلاً، فطلب أهالي صور النجدة من الخليفة المصري والملك الدمشقي اللذين لم يستجيبا لأنّ جيش البندقية كان قطع طريق البحر فيما قطع صاحب طرابلس طريق البرّ، ما أحكم الحصار الشديد وحال دون وصول أي نجدة،

فاضطُرّ الصوريون إلى تسليم المدينة.

وفي سياق تلك الحرب الطويلة ما بين الفرنج والمسلمين والترك والعرب، وفي وقت كان الفرنج يحاصرون مدينة صور، أغار أهل عسقلان مرّتين على بيت المقدس لكنهم فشلوا دخولها، غير أنّ بلدق أمير الترك هاجم مدينة هيرابوليس التي قتل صاحبها، لكن جوسلين صاحب الرها انقضّ عليه وقتله وأرسل رأسه إلى إنطاكية ومنها إلى الجيش الذي كان يحاصر صور لدعم معنوياته.

وفي هذه الأثناء تمكّن بلدوين من فكّ أسره مقابل مبلغ من المال وعاد إلى القدس.

غير أنّ إنطاكية لم تنعم بالهدوء والسلام طويلاً إذ في السنة ١١٢٥م (٥٢٠هـ) سار البرسقي أمير الموصلين إليها من خارج الفرات على رأس جيش كبير، ثمّ انضمّ إليه طفتكين التركي ملك دمشق، واحتلوا حصن الفرات بلا قتال، وتوجّهوا إلى حصن صردان وحاصروه لبضعة أيام لكنهم انصرفوا عنه، إلى حصن حصرت حيث شرعوا في رفع آلات الحصار عليه. وفي هذه الأثناء فاجأهم بلدوين ملك القدس ومعه صاحب طرابلس والرها ودارت معركة قاسية ما بين الجيشين، فوقعت الهزيمة على جيش المسلمين. وقيل إنّه سقط من الجيش الأخير ألفا مقاتل مقابل أربعة وعشرين فقط من جيش الفرنج، وفق مطران صور.

استمرّت عجلة الحرب في الدوران إذ في السنة ١١٢٦م حصلت واقعة طبرية يوم سار بلدوين وجميع قادة جيوشه إليها، فبلغ الخبر طفتكين ملك دمشق، الذي لم يتردد عن الزحف لملاقاته بجيشٍ كبير، والتحم الجيشان في قتال ضارٍ لمدة سبع ساعات، وسقط من الفرنج نحو ماية قتيل ومن جيش الشام ألفان وفرّ الباقون. وسرعان ما زحف صاحب طرابلس على نواحي حماة وأتى بلدوين لدعمه، وحاصرا رافانه ومكاها.

إلاّ أنّ أنباء وردت إلى بلدوين من إنطاكية مفادها أنّ سنقر البرسقي عبر الفرات بجيش من الموصل قاصداً إنطاكية، ولمّا بلغ سنقر أنّ بلدوين قادم إليه لاذ بالفرار فانقضّ عليه أحد أتباعه وقتله. وفي السنة عينها توفي طفتكين ملك دمشق، وحلّ مكانه ولده تاج الملوك بوري، توفي بعد سنتين بطرك القدس جينارمند، وخلفه اسطفانوس، الذي مات بعد سنتين ليخلفه حولياموس، كما قضى من أهالي دمشق ستة آلاف رجل لاتهامهم بالانتماء إلى المذهب الاسماعيلي.

ولمّا شاع خبر موت طفتكين بادر بلدوين إلى جمع صاحبي إنطاكية، وطرابلس وقادة عسكر الفرنج وزحف بجيوشهم قاصداً محاصرة دمشق، لكنه هُزم أمام عسكرها وعسكر التركمان

وعسكر العرب، وزادت من هزيمته العواصف والأمطار والسيول التي ضربت المنطقة آنذاك، أي السنة ١١٣١م، وفق مطران صور.

وفي السنة ١١٢٩م مات الآمر بأحكام اللّه المنصور خليفة مصر، واتجهت الأنظار إلى وزيره شاه نشاه بن برد المجالي الأرمني الذي كان نقيض سيّده الظالم والسيئ السيرة، لكن ابن عم الخليفة عبد المجيد المعروف بالميمون الملقّب بالحافظ لدين اللّه أزاح الوزير وتولى الخلافة فكان الحادي عشر من سلالة الخلفاء الأمويين الفاطميين.

لكن الحرب عاودت اشتعالها في السنة التالية إذ زحف رضوان صاحب حلب بجيشه إلى قيليقية فخرج لمواجهته بيومند صاحب إنطاكية الذي سرعان ما قتله رضوان. ثمّ إن زوجة بلدوين طلبت النجدة من عماد الدين زنكي قائد عسكر الإسلام، إلاّ أنّ والدها بلدوين وصل إلى إنطاكية لتدبير أمورها بعد وفاة ملكها وسلّم المدينة لأناس أمناء من أهلها وعاد إلى بيت المقدس. ولم يكد بلدوين يصل إلى القدس حتى أصابته حمّى شديدة أودت بحياته ودُفن في مقبرة الملوك تحت الجلجلة، فحلّ الفرح لموته لدى المسلمين في مقابل حزن شديد لدى الفرنج. ثم تُوِّج فولقان ملكاً على بيت المقدس وفق رغبة البطريرك ورؤساء البيعة والأمراء، فدخل إلى طرابلس وإنطاكية، وعزل زنكي، وعاد إلى القدس، ولم يكد يصلها حتى بلغه أنّ عسكر الموصل دخل الفرات وبلغ قنسرين لكي يطرد الفرنج من تلك الأنحاء، فأسرع فولقان إلى قتاله وانتصر عليه.

ثمّ توفي تاج الملوك بوري بن طفتكين ملك دمشق في السنة ١١٣١م متأثراً بجروح أوقعها فيه رجل اسماعيلي، وحلّ بعد ابنه شمس الملوك اسماعيل الذي أوصى ببعلبك وأعمالها لولد شمس الدولة محمّد. وفي تلك السنة غزا عسكر حلب مدينة اللاذقية وأسروا نحو سبعة آلاف من الفرنج ودمّروا المدينة. وبعد سنة دبّ الخلاف بين الفرنج بسبب صاحب يافا، فقدم إليهم فولقان للصلح، لكن شمس الملوك صاحب دمشق فاجأهم في بانياس فملك المدينة بالسيف واحتلّ قلعتها وأسر منهم كثيرين.

وفي السنة إيّاها أقدم بطريرك إنطاكية على تزويج فونسطنسة بنت بيومند صاحب إنطاكية من الأمير رايمندوس، وبرضا الملك وأمراء الفرنج، وتملّك رايمندوس على إنطاكية بسبب نسب زوجته. كذلك شيّد فولقان حصوناً في جهات عسقلان، وقرّر الخليفة المصري اعتماد استراتيجيّة لإضعاف الفرنج تقضي بشنّ حرب على عسقلان كلّ ثلاثة أشهر، فيما استولى

اسماعيل ملك دمشق على مدينة حماة وطرد منها زنكي، وهاجم شيزر ونهبها وسار نحو دمشق. وفي هذا الوقت زحف عماد الدين زنكي وابن آق سنقر على طرابلس فهزما جيشها الفرنجي وقتلا صاحبها ينطوس وحاصر التركمان الفرنج في حصن بعرين، لكن رايمندوس بن ينطوس جمع عسكر الفرنج وهاجم التركمان وأجلاهم عن بعرين وانتقم من قتلة أبيه.

راوحت الحرب الطويلة الضروس ما بين الفرنج والروم والمسلمين عقوداً طويلة ما بين كرٍّ وفرّ وتقدُّم وتراجع لهذا الفريق أو ذاك، إلاّ أنها دارت في معظمها حول المدن الأساسيّة والمناطق والمواقع الاستراتيجيّة. ففي السنة ١١٣٢م هبّ ملك الروم، على أثر علمه بزواج الأمير رايمندوس من ابنة بيومند وتملّكه مدينة إنطاكية، إلى حشد جيوش كبيرة وزحف بها إلى بلاد الشام بخيول وعربات كثيرة، وكان يملك الأموال الوافرة، فبلغ قيليقية واحتلّ ترصوص وأدامه وماميستره (المصّيصة)، وبسط سيطرته في مدّة قصيرة على كلّ قيليقية بما فيها من حصون وقلاع ومدن، بعدما كان الفرنج سيطروا عليها طوال أربعين عاماً. ثمّ شدّد الحصار على إنطاكية، بمعاونة زنكا بن آق سنقر، فبلغ الخبر إلى فولقان ملك القدس فزحف بجيش الفرنج إلى طرابلس التي كانت تحت حصار المسلمين، فسارع زنكي إلى رفع هذا الحصار والزحف لمواجهة جيش الفرنج وتمكّن من سحقه. وأمّا فولقان الملك ففرّ ولجأ إلى أحد الحصون، حيث وقع في داخل الحصار الذي يفرضه عماد الدين زنكي، الذي بلغه خبر تحرّك جيوش الفرنج من غير اتجاه لنجدة ملكهم المحاصر ما اضطُرّه إلى فكّ الحصار.

ولمّا وصل الفرنج على عرقا اجتمع صاحبا الرها وإنطاكية اللذان تركا بلدانهما تحت سيطرة أعدائهما ليبادرا إلى نجدة ملكهما الذي عاد إلى القدس، أمّا هما فسارا إلى إنطاكية، إلاّ أنهما لم تكن لديهما القوة العسكريّة الكافية لمواجهة ملك الروم بعد الهزيمة التي ألمّت بهما. لذلك رفعا راية ملك الروم فوق أسوار القلعة وأدخلا جيش الروم إليها وعقدا مع الملك اتفاقاً يقوم على أن يحرّر هو حلب وسنجر وحماة من يد المسلمين وتكون هذه المدن للبرنس، وإنطاكية من حصة الملك وحده.

ويبدو أنّ هذه الانتصارات التي حقّقها جيش المسلمين، مقابل الهزائم التي مُنيت بها جيوش الفرنج، قد شجّعت اسماعيل ملك دمشق وزنكي سنقر على مواصلة حربهما، إذ في العام ١١٣٣م زحف اسماعيل إلى حصن الشقيق وانتزعه من الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم، الأمر

الذي حرّك جيش الفرنج فتقدّم إلى بلاد حوران، حيث قام بمناوشتهم وإلهائهم ليغير على بلادهم من ناحية طبرية. وفي الوقت عينه استولى عماد الدين زنكي على كلّ قلاع الأكراد الميدية وأخضع قبائل الهكارية ولواسي.

ثمّ إنّه في السنة التالية ثار الاسماعيليون على اسمعيل بن يوري صاحب دمشق وقتلوه، وأحلّوا في الحكم أخاه محمود شهاب الدين واتابكة معين الدين.

وفي السنة إيّاها كان غريغوريوس من حالات بطريركاً على الموارنة، وبتحرّك من الكاردينال جولليلموس قاصداً بابا رومية، اجتمع في طرابلس رؤساء الكهنة وعلماؤهم مع بطريركهم وتوافقوا على طاعة بابا رومية زخيا الثاني.

لكن الحرب بين الفرنج والمسلمين اشتعلت مجدداً في السنة ١١٣٥م مع تسلّم شهاب الدين محمود بن بوري حمص وقلعتها. فبعد سنة سار ملك القدس فولقان عابراً نهر الأردن قاصداً حصن قمّة جبل جلعاد، فاحتلّه بمواكبة الكثيرين من الحجّاج المسلمين، ثمّ وقعت المواجهة عند حبرون بين الفرنج وجيش عسقلان لكنهم هُزموا.

كما زحف عماد الدين زنكي صاحب الموصل على المعرّة وكفرطاب في كورة حلب وانتزعهما من الفرنج، وأكمل زحفه على بعرين، فحشد الفرنج ما تيسّر لهم من القوى وجرت بين الجانبين معركة عنيفة لكن الفرنج هُزموا وانسحبوا إلى حصن بعرين، فحاصرهم زنكي حتى طلبوا السلام فأعطاهم إيّاه مقابل إخلائهم الحصن وخمسين ألف دينار.

ثمّ إنّ ملك الروم حنا زحف على بلاد الشام للمرة الثانية ومعه أولاده على رأس جيشه، وعندما وصل إلى إنطاكية مات اثنان من أولاده فحملهما إسحق أخوهما الثالث لدفنهما في القسطنطينيّة. ولمّا قارب الفرات لاقاه طوربسيل طالباً منه ضمانة لكي يقدّم له الطاعة فأزوجه جوسلين ابنته، قبل انتقاله إلى إنطاكية ليطلب إدخال أولاده إليها. لكن أهل المدينة رفضوا ذلك.

وشهدت تلك السنة أيضاً وصول بطرك الأرمن إلى بيت المقدس وإعلانه الاستقرار بالإيمان المستقيم تحت طاعة الكنيسة الرومانيّة التي تتمسّك بها الطائفة الأرمنيّة، واعداً ببذل كلّ جهد لإعادة طائفته إلى الإيمان القويم. وفيها توفي برتردوس الفرنجي بطريرك إنطاكية. لكن ودلفوس استأثر بكرسي البراطيل خلافاً لرضا الكهنة والأساقفة، مطالباً بالطاعة، زاعماً أنّه مساوٍ لبابا رومية في المرتبة والدرجة والسلطان وأنّ الكرسي الإنطاكي أجلّ من الروماني بسبب

الأقدميّة. لكنّه بعد مدّة استقرّ على رومية الكبرى وأقرّ بخطئه وقدّم الطاعة والولاء إلى الكرسي الروماني.

ولم تتوقّف عجلة الحرب طويلاً إذ فيما كان فولقان يعمل جاهداً لتحصين القدس عبر بناء الحصون الدفاعيّة، وفي السنة ١١٣٧م زحف ملك الروم حنا على مدينة براغة (والأصح مراغة) في جوار حلب فدخلها سلماً، ثمّ غدر بأهلها وأذقهم مرّ القتل والأسر والسبي، إلى درجة أنّ قاضيها ومعه جماعة كبيرة تنصّروا، ثمّ رحل عنها بمَن وما معه إلى حلب، حيث نزل على قويق، قبل أن يهاجم حلب ويهزم الفرنج بعد قتالٍ عنيف. بعدها أكمل زحفه إلى الأتارب فاحتلّها، ثمّ سار إلى شيزر ونصب عليها ثمانية عشر من منجنيقاته، فخرج إليه نائب زنكي في حلب ومَن معه وسيطر على أتارب وقتل الروم وحرّر أسرى مراغة وسباياها. أمّا صاحب شيزر فطلب النجدة من زنكي الذي نزل بجيشه إلى العاصي ما بين حماة وشيزر، فرحل ملك الروم عنها، وطلب إلى فولقان ملك القدس أن يستضيفه وجيشه في المدينة. لكن الخشية والشكوك راودت فولقان، فأجابه بأنّ القدس وأهلها ليسوا في حال يسر كافية، وإذ أصرّ على رغبته فيأتِ ومعه عشرة آلاف شخص فقط، فاقتنع بذلك. ثمّ مات ملك الروم بعد عودته إلى طرسوس نتيجة جرح بسهم مسموم كان يحمله، وخلفه ابنه منوال، وأمّا الفرنج فاطمأنوا بعدما لم يبقَ لهم من بلاد الفرس إلاّ مدينة عسقلان، فعمل فولقان على تحصينها، كما عمّر غزة وعزّزها بالأسوار والأبراج.

تمدّدت الحرب بين الفرنج والمسلمين إلى حرب شنّها المماليك في السنة ١١٣٨م على شهاب الدين محمود ملك الشام وقتلوه، ثمّ جيء بأخيه جمال الدين محمّد من بعلبك وتسليمه دمشق، فيما سُلّمت بعلبك إلى معين الدين أفز. هذا التطور أثار عماد الدين زنكي فزحف على بعلبك ودخلها سلماً، لكن قلعتها عصته ورفضت دخوله إليها، وبعدما سلّموه إيّاها مقابل شروط معيّنة غدر بهم وصلبهم وقتل معظم أهاليها. وفي السنة تلك ضربت بلاد الشام موجة من الزلازل، لاسيّما مدينة حلب.

السنة ١١٣٩م زحف عماد الدين زنكي إلى دمشق وحاصرها، فتصدّى له صاحبها محمّد بجيشه الذي سرعان ما هُزم وقُتل منه عددٌ كبير. وإذ شعر زنكي بقوّته أكمل زحفه وكاد أن يستولي على البلاد بكاملها، ثمّ راسل محمّد بن بوري وأعطاه حمص وبعلبك، فمرض صاحب دمشق ومات وتولّى مكانه ابنه مغير الدين اتق. لذلك عصف الطمع والشعور الزائد بالقوّة بزنكي فتحرّك

للاستيلاء على دمشق التي استنجد صاحبها مغير الدين بفولقان ملك القدس، واعداً إيّاه بدفع عشرين دوكات ذهباً كلّ شهر لعسكر الفرنج وبأن تكون بانياس لفولقان بعد رحيله عنها، وأودعه أبناء أمراء دمشق كرهائن لديه تأكيداً لصدقيّته. قبل ملك القدس العرض وحشد جيشه عند طبرية تمهيداً للزحف على زنكي الذي هُزم وفرّ من المواجهة. عندها حاصر الفرنج بانياس ودخلوها سلماً، إلاّ أنّ زنكي عاود حصار دمشق وأحرق العديد من القرى، واحتلّ شهرزور وجوارها وانتزعها من صاحبها ابن البرسلان التركماني، فيما احتلّ الاسماعيليون حصن مصياف وجبلة.

وسجّلت السنة ١١٤٢م نشوب الخلاف ما بين جوسلين صاحب الرها والبرنس صاحب إنطاكية، الأمر الذي شجّع زنكي صاحب الموصل على محاصرة الرها بينما كان جوسلين في سفر، وبعيداً منها مسار يوم، فطلب الأخير النجدة من رايمندوس البرنس صاحب إنطاكية رغم الخلاف بينهما، فأفاد زنكي من هذا الوضع وشدّد حصاره على الرها لأنّ النجدة طال انتظارها فأسقطها عنوة وفتك بأهلها.

مدفوعاً بما حقّقه من انتصار في الرها وغيرها وسّع زنكي دائرة حروبه على الفرنج في اتجاه العراق فصالح السلطان مسعود وسار في السنة ١١٤٣م بعسكره شطر ديار بكر، واحتلّ طعزة واسطوت وجيزان وحصن الروم وحصن بطليس وحصن بابا وحصن ذي القرنين. ثمّ اقتطع من بلاد ماردين كلّ ما كان في أيدي الفرنج منها حملين والموزر وحصون شبّ جناز... كذلك سقط الحصن في وادي موسى، حيث قيل إنّ النبي ضرب الصخرة وأخرج منها الشعب العطشان والذي كان في أيدي الفرنج بيد المسلمين، فتحرّك على الأثر الملك بلدوين لاستعادته لكنه لم ينجح في ذلك، فاتّجه نحو حصن الزيتون ودخله سلماً.

ولم يكتفِ زنكي بما حقّقه من اجتياحات لمواقع الفرنج بل إنّ ذلك زاده اندفاعاً فسيطر في السنة ١١٤٤م على سروج وسائر الأماكن التي كانت تحت السيادة الفرنجيّة في شرقي الفرات، فحاصر مدينة البيرة التي كانت من أمنع الحصون وكادت تسقط في يده لولا بلوغه خبر مقتل نائبه نصير الدين في الموصل واضطراره للرحيل. إلاّ أنّ الفرنج خافوا أن يعود إليها ثانيةً فسلّموها طوعاً إلى نجم الدين صاحب ماردين، ما أعادها إلى المسلمين.

ثمّ في السنة تلك قد صاحب حوص في بلاد العرب إلى بلدوين وطلب منه أن يسلّمه بوري، فقبل

الملك بذلك وسارا معاً إلى بلاد الشوبك متحمّلَين مشقّات الطريق والحرّ الشديد ومقاومة بعض أهالي تلك المناطق الشاميّة، لكنهما عندما وصلا إلى بوري وجدا أنّ زوجته قد سلّمتها إلى المسلمين فأمعن قائد جيشهم تنكيلاً بصاحبها وسمل عينيه ونهب كلّ أمواله. كما شهدت تلك السنة زحف أمواج من الجراد لم توفّر كلّ ما أمامها.

لكنّ السنة ١١٤٥م شهدت حدثاً مدوّياً تمثّل في مقتل زنكي أثناء حصاره قلعة جعبر لصاحبها علي بن مالك العقيلي، إذ هاجمته جماعة من مماليكه وهو مخمور وقتلته، فتسلّم ولده نور الدين محمود خاتم والده وسار إلى حلب فاحتلّها. ولمّا سمع مغير الدين سلطان دمشق بمقتل زنكي حاصر حصن بعلبك ودخله سلماً، وأعطى نجم الدين أيوب حافظ بعلبك إقطاعاً وقرى عدّة من بلاد الشام.

ثمّ اندلعت حرب الأخوين زنكي في العام ١١٤٥م عندما حشد نور الدين زنكي جيوش حلب والشام وزحف على الموصل لقتال أخيه سيف الدين، وبعث رسولاً إلى الرها أبلغ جوسلين أنّ الرها باتت خالية من المسلمين. عبر جوسلين الفرات بجيشه وبلغ الرها ليلاً فأدخله النصارى عبر السور واحتلّ المدينة، وأقام الحصار على قلعتها التي كانت في أيدي المسلمين. لكن نور الدين حشد جيشاً من جانبي الفرات وحاصر المدينة ونصب المنجنيقات حولها، فما كان من الفرنج إلاّ أن لاذوا بالرحيل لافتقار جيشهم إلى آلات الحصار والمياه، وخرج معهم نصارى المدينة نسوة وأولاداً. إلاّ أنّ نور الدين انقضّ عليهم ومعه أهل القلعة وأبادوا قسماً كبيراً منهم وسلبوهم ما يحملون، ولم ينجُ منهم سوى جوسلين ونفر قليل من جماعته... ثمّ دخل نور الدين بلاد الفرنج وفتح مدينة ارتاح بالسيف وحصن مأسوله وبصرفوت وكفرلاتا. وفي تلك السنة توفي جوليلماوس بطرك بيت المقدس، وخلفه مطران صور فولغار.

حيال سلسلة الهزائم التي مني بها الفرنج في مختلف مناطق نفوذهم، خصوصاً في بلاد الشام، وفي السنة ١١٤٦م، بعثوا إلى البابا أوجانيوس الثالث يطلبون منه النجدة، فقام الأخير باستنجاد بلدان النصارى وملوكهم يحضّهم على عون المؤمنين في بلاد الشرق. استجاب الكثيرون لنداء البابا وفي مقدّمهم الامبراطور الألماني كونرادو، ولويس ملك فرنسا، ومجموعة من الأمراء والمقدمين من بلدان مختلفة. وصل في الطليعة إلى القسطنطينيّة كونرادو وكان في صحبته عددٌ من وحدات الجيش المقاتلة إلى النساء والعائلات فرحّب بهم ملك الروم وزوّدهم دليلاً

لإرشادهم في الطريق، فاجتازوا بلاد بيطينية وليقاونيه عبر البرّ، قبل أن يغدر بهم ليلاً ويتركهم. وقيل إنّ جيوشهم جفّفت الأنهار وخيولهم غطّت الأرض.

وسارع سلطان ايقونية إلى طلب النجدة من بلاد المسلمين واعداً مَن يلبّيها بالمال الوفير والخدم، فجاءته جموعٌ من بلدان الأرمن والقبادوق وأيصورية وقيليقية ومادية والموصلية، ولمّا رأوا حال جيش الفرنج المزرية جرّاء نقص الماء والغذاء انقضّوا عليه وغنموا أمواله وذخائره وخيوله وأسروا أعداداً كبيرة منه، ولم ينجُ من الرجال سوى عشر عددهم، فعاد الامبراطور بمَن بقي حيّاً منهم مهزومين إلى نيقية. ثمّ وصل إلى القسطنطينيّة الملك الفرنسي بسبعين ألف مقاتل وتوجّه مع كونرادو من نيقية إلى أزمير، ومنها إلى أفسس، لكن سرعان ما عاد مع رجاله إلى القسطنطينيّة حيث ملكها قريباً له.

وفي السنة أيضاً توفّي بطرك بيت المقدس وخلفه في الكرسي بطرس القسيس رئيس قبر المخلّص. لكن لعنة الهزائم لاحقت جيوش الفرنج حتى أسوار دمشق، ففي السنة ١١٤٧م انتقل لويس ملك فرنسا إلى نواحي اللاذقية، ولمّا بلغوا النهر وقف جيش المسلمين بوجههم، فأرشدهم أحد الأعوان إلى مخاضة للعبور وهاجم العدو وهزموه، لكن بعد اجتيازهم اللاذقية اصطدموا بجبل عالٍ وعر أنهك تسلّقه مقاتليهم، فباغتتهم جيوش المسلمين وأوقعت بهم شرّ هزيمة...

وبعد عناءٍ شديد نتيجة صعوبة الطرق ونقص الماء والغذاء وصل ملوك الفرنج إلى بلاد الشام حيث استقبلهم البرنس صاحب إنطاكية، أمّا ملك فرنسا فسار منها بطريق البرّ وكونراد من القسطنطينيّة بحراً، راغبين في زيارة القدس التي استقبلهم بطريركها وملكها بحفاوة. ثمّ اجتمع الملوك الثلاثة مع مطارنتهم وأمرائهم وقادة جيوشهم، واتفق الجميع على تحرير دمشق، فساروا إلى طبرية وبانياس، حتى وصلوا إلى داريا غير البعيدة من دمشق. ويقال إنّ عددهم كان ستين ألف عسكريّ وستة آلاف فارس، أمّا عسكر دمشق فكان عدده لا يحصى. والتحم الجيشان في قتالٍ شديد، فقُتل من المسلمين نحو مئتي رجل وعدد كبير جداً من الفرنج. واستمرّ القتال خمسة أيام متواصلة قبل أن يصل صاحب الموصل سيف الدين مع عشرين ألف مقاتل ومعه أخوه نور الدين محمود من حلب بعشرة آلاف لنجدة المدينة.

ومع وصول النجدة احتدم القتال وزادت حماسة المسلمين وارتفعت روحهم المعنويّة وقويت وحدتهم، فيما دبّ الخلاف بين قادة الفرنج وتضاربت آراؤهم، وضعفت إرادة القتال لدى

عساكرهم، فتقهقروا عن دمشق بعدما فقدوا ألوف المقاتلين، كما فقد المسلمون عدداً كبيراً بينهم شاه نشاه بن نجم الدين أيوب. وقد أذلّت هذه المعركة جيوش الفرنج وخرقت قواهم فيما عزّزت ثقة المسلمين وزادت من اندفاعهم نحو النصر.

كان من نتائج الهزيمة التي منيت بها جيوش الفرنج عند أسوار دمشق أن دبّ الطمع في جيوش المسلمين للاستيلاء على آخر المواقع الفرنجيّة. ففي السنة ١١٤٨م حشد نور الدين جيشاً كبيراً من بلاد الشرق وزحف به إلى قلعة نيبّه (Nipa) التي كانت في يد البرنس رايمندوس صاحب إنطاكية وحاصرها، لكنّ البرنس جمع خاصته وخرج إليه بجيشٍ قليل، فعمد نور الدين إلى خطة لاستدراجه إلى عمق منطقة سيطرته، إذ تراجع أمامه، فطمع البرنس وراح يطارده. ولمّا وصل إلى مكان معيّن أحاط به نور الدين وقتله مع ونيلدوس صهر جوسلين صاحب الرها وقطع رأسه ويمينه وأرسلهما إلى الخليفة. وهكذا تلقّى الفرنج هزيمة جديدة زادت في ضعفهم وتفكّك جيوشهم وسقوط روحهم المعنويّة والقتاليّة، خصوصاً بعدما احتلّ نور الدين قلعة حارم، ومقتل رايمندوس أمير إنطاكية...

ثمّ زحف سلطان ايقونية على بلاد إنطاكية وسقطت أمامه حصونٌ كثيرة. وفي هذه الأثناء توفي ابن آق سنقر صاحب الموصل وأخو نور الدين محمود، وكذلك أتابك دمشق معين الدين للدين صاحب المعينيّة في دمشق، كما توفي الحافظ لدين اللّه صاحب مصر وبويع بعده ولده الظافر بأمر اللّه أبو المنصور اسماعيل.

إثر هذه الهزائم المتتالية لجيوش الفرنج في الشرق جهّز جوسلين جيشاً والتقى نور الدين في واقعة السنة ١١٥٠م التي هزم فيها الأخير وتمّ أسر الكثيرين من جماعته، فقرّر مغادرة البلاد وجمع زعماء التركمان ووعدهم بأموال طائلة إن هم تمكّنوا من جوسلين بأي وسيلة، وبالفعل أطبق هؤلاء على جوسلين فيما كان يمارس هواية الصيد واقتادوه إلى نور الدين الذي قتله على الفور. ثمّ زحف على البلاد التي كانت تحت سلطان جوسلين واحتلّ كلّ حصونه وقلاعه من دون أي مقاومة تُذكر، وكان كلّما احتلّ مكاناً حصّنه بالرجال والسلاح والذخائر، فذلت بذلك مجمل بلاد الرها وإنطاكية نتيجة خلافات قادة الإفرنج في ما بينهم.

أمّا أمراء القلاع والحصون التي احتلّها نور الدين فآلت إلى حكم النساء وتدبيرهنّ، الأمر الذي شجّع ملك الروم على غزوها فأرسل جيشاً كبيراً لهذه الغاية لاستعادتها. ثمّ اجتمع في طور

باسيل ملك القدس وصاحب إنطاكية وطرابلس وقرّر تسليم تلك المناطق إلى الروم بدلاً من المسلمين ليعيدوا إعمارها، وغادر النصارى وعلى رأسهم زوجة جوسلين وأولادها البلاد. وإذ علم بلدوين بذلك شنّ حملة على تلك المناطق واستعادها حتى بلغ أسوار إنطاكية.

وفي تلك السنة وقعت الفتنة بين بلدوين ملك القدس ووالدته، فانقسمت المملكة بينهما، وأخذت الملكة القدس ونابلس بذريعة أنهما من أبيها، وأخذ الملك صور وعكا وسواحل البحر. لكن بلدوين سارع إلى اجتياح نابلس، وأكمل طريقه نحو القدس ففرّت والدته منها إلى برج داود وبسط بلدوين سلطانه على المدينة برغبة أعيانها، وسار نحو برج داود وحاصره، فتدخّل البطريرك مع الأعيان وتمّت التسوية على أن تكون نابلس للوالدة وكلّ الباقي للملك.

كان مقتل رايمندوس في السنة ١١٥٢ عند باب طرابلس فيما كان بلدوين موجوداً فيها مع زوجته وأختها زوجة جوسلين، فسلّم الملك شؤون المدينة إلى زوجة رايمندوس وولدها رايمندوس وعمره ١٢ سنة. ثمّ إنّ بعض المسلمين الذين كانوا أصحاب بيت المقدس قرّروا استرجاعها فجمعوا جيشاً عبروا به نهر الأردن وحلّوا في جبل الزيتون شرقي المدينة، وكان يومئذ بلدوين الملك في نابلس. فخرج عسكر الفرنج من القدس وحاصروا المسلمين في طريق أريحا وهزموهم، أمّا الذين فرّوا منهم فوقعوا في يد بلدوين الذي أهلك معظمهم بالسيف، وقيل إنّ عدد قتلاهم بلغ نحو خمسة آلاف.

وفي السنة ١١٥٤م قتل العادل وزير الظافر، فزحف الفرنج إلى مدينة عسقلان التي كانت من أعمال مصر وحاصروها بغية إسقاطها. لكنّ المدينة كانت مزوّدة بالسلاح وآلات الحرب والمياه فظلّت تقاوم، إلى أن وصلتها النجدة من مصر بجيشٍ كبير وعددٍ وافر من المراكب المحمّلة بالمؤن، ففرّت من أمامهم مراكب الفرنج الذين طلبوا النجدة من بلاد النصارى، فطلبت المدينة السلام مقابل تسليمها للفرنج فدخلها هؤلاء، وولّى بلدوين عليها أخاه الميريكوس.

ولمّا تزوّج ونيلدوس قسطنسة أرملة البرنس وتولّى على ملكه، غضب بطريرك إنطاكية المارينوس عليه بسبب هذا الزواج، فألقى ونيلدوس القبض عليه وسلبه كلّ أمواله ودهن رأسه بالعسل لتأكله الذئاب. لكن بلدوين أمر البرنس بأن يردّ للبطريرك كلّ ما أخذ منه، فغادر الأخير إنطاكية إلى بيت المقدس.

وبعد أشهرٍ اغتال نصر بن عباس الوزير سيّده الظافر الخليفة المصري واستولى على أمواله

وذخائره وهرب بها إلى الشام، لكنه وقع في طريقه في أيدي الفرنج فقتلوه وأخذوا كلّ ما كان يحمله. ثمّ تولّى الخلافة ابن الظافر الفائز بنصر اللّه أبو القاسم عيسى.

وفي هذه الأثناء خشي نور الدين محمود من أن يستولي الفرنج على دمشق بعدما استقرّت لهم عسقلان، فكاتب الدمشقيين واعداً إيّاهم بما يرضيهم إن هم سهّلوا دخوله مدينتهم، وزحف بجيشه وحاصرها، وفُتح له أحد مداخلها فدخلها وسيطر عليها.

وفي السنة ١١٥٥م تسلّم الملك نور الدين محمود بعلبك وأباقيس. وبعد سنة برز ملك الأرمن على رأس جيش كبير في قيليقية وكانت تحت سلطان الروم، وحصل قتالٌ شديد ونهبٌ وقتل، فطلب ملك الروم من ونيلدوس البرنس أن يطرد الأرمن من البلاد فسار إليهم وهزمهم بعدما وعده الملك بمكافآت سخيّة. إلاّ أنّ الأخير نكث بوعده فاستعاض جماعة البرنس عن ذلك باجتياح جزيرة قبرص ونهبها، لكن أثناء عودتهم غرقت بعض مراكبهم وخسروا معظم ما حملوه من مكاسب.

كذلك هاجم صاحب مصر مدينة غزة وانتزعها من أيدي الفرنج. أمّا بلدوين ملك القدس فشنّ عسكره غزوة على التركمان والعرب من رعاة المواشي في بانياس، ناقضاً بذلك اتفاقاً بينهم، لكنهم في طريقهم إلى بانياس انقضّ عليهم نور الدين وانتزع منهم كلّ ما غنموه، وحاصر المدينة، حتى وصل بلدوين بجيشه فولّى هارباً.

في هذه الأثناء شعر الفرنج بالطمأنينة والأمان فسرّحوا العديد من جيوشهم وساروا نحو طبرية ففاجأهم نور الدين وهم في الطريق عند مخاضة يعقوب على نهر الأردن وقتل منهم الكثير وأسر آخرين، وفرّ ملكهم مع بعض أعوانه إلى قلعة صفد. وإذ تراءى لنور الدين أنّه في الموقع القوي زحف على بانياس وحاصرها وأقام عليها مختلف آلات الحرب، لكنه سرعان ما عاد أدراجه خوفاً من صاحبي إنطاكية وطرابلس فور علمه بأنهما تحرّكا نحوه.

ولعلّ أبرز ما ميّز تلك السنة هي موجة الزلازل العنيفة التي ضربت حماة وحلب وشيزر وكفرطاب وأفامية وحمص وحصن الأكراد وعرقة واللاذقية وطرابلس وإنطاكية... وكان حصة حماة الأكبر تدميراً وخراباً إذ لم ينجُ من سكانها سوى القليل حتى أنّ التلامذة قضوا تحت ركام مدارسهم. لذلك سارع نور الدين إلى إعادة إعمار شيزر وتولّى عليها.

لكن لم يهنأ المقام في شيزر لنور الدين إذ اجتمع الملك بلدوين وأمير فلندرا تاودوريكوس وصاحب

طرابلس وصاحب إنطاكية وباقي أمراء الفرنج واتفقوا على استعادة شيزر، وانضمّ إليهم أيضاً ملك الأرمن، ففتحوها وأخذوها بالسيف. لكن صاحبها تحصّن في قلعتها، وقبل أن يهاجموها ويأخذوها دبّ الخلاف في ما بينهم على مَن يكون صاحبها. وعندما لم يتفقوا نهبوا المدينة ورحلوا عنها إلى قلعة حارم التي احتلّوها بالسيف.

ثمّ أكمل جيش القدس زحفه إلى قلعة المغارة في جلعاد وأخذها من المسلمين.

وفي هذه السنة توفي فولقان بطريرك بيت المقدس وخلفه هيمريكوس، فكان التاسع بين بطاركة الفرنج على القدس.

وفي تلك السنة أي ١١٥٨م. حاصر نور الدين بالجيوش الشاميّة قلعة المعرّة، لكنه رحل عنها عندما علم بتحرّك جيش بلدوين، ثمّ التقى جيش الرجلين في قتالٍ عنيف كانت الهزيمة بنتيجته من نصيب المسلمين.

ثمّ إنّ بلدوين تزوّج من تاودوره بنت إسحق أخي ملك الروم وجهّزها بما يزيد عن أربعين ألف دينار إلى الكثير من الهدايا والتحف الثمينة، وعندما وصلت إلى القدس توّجها بطريركها بتاج الملك.

ولم تهدأ قرقعة الحروب في هذه الحقبة التاريخيّة إلاّ قليلاً، لتعاود نشاطها في غير منطقة من الشرق المضطرب. ففي السنة ١١٥٩م تكاثرت الشكاوى من ممارسات نور الدين وآخرها زحفه على قبرص وفيها صاحب إنطاكية، كما استولى صاحب الأرمن على بلاد قيليقية. لذلك زحف ملك الروم بجيشه على بلاد الشام في حين غفلة، فهرع إليه البرنس زاحفاً مستجدياً الأمان، الأمر الذي سرّ الملك أمنوال الذي أبدى احتقار البرنس. وأبدى بلدوين رغبة في الاجتماع بملك الروم فبعث إليه منوال بجماعة واكبته حتى الخيمة التي كان قائماً فيها، فاستعطفه بلدوين ليعفو عن ملك الأرمن ففعل وردّ له كلّ ما كان يملك من بلاد قيليقية. ثمّ دخل ملك الروم إلى إنطاكية وسط مظاهر العظمة والترحيب، قبل أن يعود إلى القسطنطينيّة وملك الفرنج إلى القدس.

ولمّا علم نور الدين بعودة ملك الروم إلى القسطنطينيّة هاجم بجيشه ايقونية واحتلّ مناطق كثيرة في تلك الأنحاء وزرع فيها الدمار والفساد والخراب، في غياب سلطانها عن بلاده. كذلك استغلّ بلدوين غياب نور الدين فزحف على بلاد الشام حتى بلغ أبواب دمشق، فسارع حافظ المدينة إلى تقديم ما يرضيه من الأموال والهدايا مقابل أن يكفّ بلدوين عن غزواته المتلاحقة على بلاد

الشام لمدّة ثلاثة أشهر فقبل الملك، لكنه بعد انتهاء المهلة اجتاح عدداً من الحصون والقرى وشرّد أهلها.

ثمّ بادر ونيلدوس البرنس إلى غزو بلاد الرها وعاث فيها نهباً وخطفاً، وكانت كلّها موطن السريان والأرمن النصارى، لكنّه وقع في كمين أعدّه له صاحب حلب وقتل الكثير من جماعته واقتيد أسيراً إلى حلب. وفي تلك السنة توفي الخليفة المصري الفائز بنصر اللّه، ولأنّه لم يكن له من عقب آلت الخلافة بعده إلى ابن عمّه العاضد عبداللّه بن محمّد بن يوسف بن الحافظ، الذي عُرف بأبي محمّد، وهو الرابع من الخلفاء الفاطميين، وبنهايته انقرضت السلالة الفاطميّة.

وفي السنة ١١٥٦م حاصر نور الدين قلعة حارم في العراق والتي كانت في أيدي الفرنج، وإذ عجز عنها توجّه نحو حصن الأكراد قاصداً حصار طرابلس، لكنّ الفرنج فاجأوه وأخذوه في حين غفلة وأسروا معظم عسكره، وفرّ هو على متن جواده إلى بحيرة حمص وأقسم أن ينتقم لهزيمته.

العام ١١٦٢م كان الملك بلدوين متوجّهاً إلى إنطاكية عندما ألمّت به حمّى شديدة فحُمل إلى طرابلس ومنها إلى بيروت حيث وافته المنيّة، ليخلفه أخوه الماريكوس الذي كان متزوّجاً من اغنيس إحدى قريباته خلافاً لمنطوق الكنيسة، فأُلزم بالتخلي عنها ووضع الحظر على تولّي أولاد الملك بعده. وفي هذه الأثناء وقع القتال بين درغان وشاور البدوي بسبب الخلاف على الوزارة في مصر، فهزم الثاني وانتقل إلى دمشق طلباً لنجدة نور الدين. ولمّا رأى الماريكوس ملك القدس الفتنة تضرب في الديار المصريّة، وأنّ الخليفة لم يفِ بوعده بإرسال المال المتفق عليه إليه، زحف بجيشه على مصر والتحم الجيشان في قرية بلبيس، ووقعت الهزيمة على المصريين، والماريكوس غانماً مظفراً إلى القدس.

وأمّا شاور فنال من نور الدين جيشاً شاميّاً يقوده أسد الدين وبضعة أمراء جاؤوا معه إلى مصر، لكن قدرغان طلب النجدة من ملك القدس على أن يقدّم له أكثر ممّا كان يقدّمه لبلدوين. لكن قبل أن تصل النجدة وقع القتال مع شاور، فانتصر فيه درغان، قبل أن يغتاله أحد جماعته، وتؤول الوزارة إلى شاور.

لكنّ الوزارة لم تدم لشاور، إذ في السنة ١١٦٣م طمع بها أسد الدين شيركوه فحاصر بلبيس حتى دخلها، وعلى الأثر أجرى شاور اتصالات مع ملك القدس الميريكوس وتعهّد له بألف دينار إذا ما ساعده على أسد الدين، فزحف الملك بجيشه على الديار المصريّة وحاصر، مع شاور، بلبيس

ودخلاها سلماً، ثمّ حاصر الميريكوس القاهرة وأضرم فيها شاور النار لأكثر من خمسين يوماً، فخشي المسلمون أن يبسط النصارى سلطانهم على مصر بأكملها.

ولمّا كان الفرنج منهمكين بالقتال في مصر للسنة الثانية هاجم نور الدين طرابلس، لكن عسكرها هزمه فولّى هارباً تاركاً وراءه كلّ شيء، حتى سيفه. إلاّ أنّه جمع شتات عسكره من رجال المدن والعربان واتجه بهم إلى قلعة حارم لفتحها، فيما كان البرنس القوس صاحب طرابلس وقولمان حافظ قيليقية وطور قائد جيش الأرمن في إنطاكية، فسار هؤلاء جميعاً إلى قتال نور الدين حتى انسحب من أمام حارم. ولمّا فرّ نور الدين طمع به أعداؤه هؤلاء وطاردوه، فتمكّن منهم عبر كمين محكم أسر بنتيجته نحواً من عشرة آلاف عدا القتلى، إلى أسر البرنس صاحب إنطاكية والقوس صاحب طرابلس وقولمان قائد جيش الروم، واقتادهم إلى مدينة حلب، ليعود ويحتل قلعة حارم.

وبدا أنّ نور الدين يشعر بفائض القوّة إذ توجّه نحو بانياس (١١٦٥م) لفتحها وأقام عليها المنجنيقات والألغام تحت الأرض، ثمّ دخلها خلسة فيما كان صاحبها في مصر مع الملك الميريكوس، لينتقل منها إلى حصن المنيطرة في جرود كسروان.

أمّا ملك القدس الميريكوس فعاد إلى مصر وهزم أسد الدين شيركوه وثبّت شاور في الوزارة، وعاد إلى بيت المقدس بأموال طائلة، وتمكّن من تحرير البرنس صاحب إنطاكية، ثمّ نجح في أخذ قلعة حيرون بالحيلة وقتل صاحبها وحرّر الأسرى الذين كانوا فيها.

وفي السنة ١١٦٧م وهب نور الدين أسد الدين شيركوه مدينة حمص التي بقيت في عهدة أولاده إلى أيام الملك الظاهر بيبرس، وأبلغ الخليفة عما رآه في مصر من ثراء وقوّة، وأنّه متوافق مع الفرنج. لذلك حشد الخليفة جيشه وجمع شيركوه ما تيسّر له من عسكر النورية، وزحفا معاً من الشام إلى مصر، فيما توجّه الميريكوس إليها لدعم الوزير شاور. لكن تمّ التوافق على أن يقدّم العاضد خليفة مصر إلى ملك الفرنج أربعماية ألف دينار كلّ عام، ويُعطى نصف المبلغ ويُدفع في مصر والنصف الآخر يُرسل إلى القدس. وبنتيجة هذا الاتفاق ما بين الخليفة وملك الفرنج سار الجيشان المصري والفرنجي إلى قتال شيركوه أسد الدين وابن أخته صلاح الدين الأيوبي، ودارت معارك كثيرة أسفرت عن طلب شيركوه الأمان، وارتفعت أعلام الفرنج على قلعة الاسكندريّة بعدما حرّروها من أسد الدين.

وإبّان هذه الحروب المستعرة عقد الميريكوس ملك القدس قرانه على مريم بنت أخي عمانوئيل

ملك الروم، في سياق الإعداد لتحرير مصر من قبضة المسلمين وفق تفاهم ما بين الملكين. وهكذا زحف ملك القدس بجيش الفرنج على مصر وتمكّن من احتلال بلبيس، ونكلوا بأهلها خلافاً للهدنة الموقّعة بين الخليفة المصري وملك الروم. ثمّ تقدّم الجيش إلى القاهرة وشدّد عليها الحصار، فلجأ الخليفة إلى التفاوض على رحيل الفرنج مقابل مبلغ من المال، لكن سرعان ما وصلت عمارة بحريّة للفرنج إلى الشاطئ حيث تمّ احتلال نابيس على ضفة نهر النيل وقتل بحّارتها خلقاً كثيراً من أهلها. لذلك لم يجد الخليفة العاضد أمامه سوى طلب النجدة من الملك العادل نور الدين بن زنكي عبر كتاب ضمّنه شعور النساء، فأخذت الحمية الملك فيما أعدّ شيركوه بن مغير السعدي جيش قوامه عشرة آلاف فارس وخمسون ألف راجل، وانضمّ إليهم عددٌ من الأمراء، فتهيّب الفرنج الأمر وغادروا إلى بلادهم.

إلاّ أنّ شيركوه قتل الوزير شاور غدراً قبل أن يدخل القاهرة بجيشه، فخلع الخليفة عليه الوزارة ولقّبه باسم الملك المنصور وأمير الجيوش، لكنه توفي بعد نحو شهرين من تسلّمه الوزارة خلفاً لشاور. ثمّ أجمع الأمراء على تولية صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة ففعل الخليفة ولقّبه بالملك الناصر. ثمّ سرعان ما اتسع نفوذ يوسف في مصر وضعف أمر العاضد.

وتراءى للفرنج أنّ الفرصة متاحة أمامهم (١١٦٩م) فحشدوا حملة بحريّة وتوجّهوا بها إلى ناحية دمياط، وبادر ملك الروم إلى تعزيزها بعددٍ من الرجال وكميات كبيرة من المؤن وآلات الحرب، وأقاموا الحصار على المدينة الواقعة على شاطئ النيل. لكنّ الوزير صلاح الدين كان شحنها بالرجال والعتاد، ما اضطُرّ الفرنج إلى فكّ الحصار عنها بعد نحو خمسين يوماً، إلاّ أنّ عواصف بحريّة ضربت مراكبهم، فيما أرسل نور الدين ألف دينار وأقمشة وسواها لنجدة أهل مصر وإعادتهم إلى السواحل التي نزحوا عنها.

وفي السنة ١١٧٠م ضربت الزلازل العنيفة بلاد الشام، فقضى نتيجتها في حلب وحدها ثمانون ألف إنسان، وقال مطران صور إنّ هذه الزلازل استمرّت أربعة أشهر ودمّرت إنطاكية وحبلة واللاذقية وشيزر وحماة وحمص، كما امتدّت الزلازل إلى طرابلس التي لم يبقَ فيها بيت قائماً ولا نجا رجلٌ ليحكمها، فصارت كلّها أشبه بمقبرة فسيحة. وفي السنة هذه توفي نور الدين بن زنكي.

وعلى أثر الرعب والبلبلة والدمار التي ضربت بلاد الفرنج زحف صلاح الدين يوسف من مصر

بنحو أربعين ألف مقاتل معظمهم من الخيّالة، وغزا تلك البلاد قرب عسقلان والرملة وأقام الحصار على قلعة تيرون على حدود فلسطين. عندها خرج الميريكوس ملك الفرنج من عسقلان للقاء صلاح الدين ولم يكن معه سوى ألفي راجل ومايتين وخمسين فارس، فانسحب صلاح الدين إلى أربل قرب الموصل فحاصرها برّاً وبحراً وفتحها واستباح أهلها الفرنج وعاد إلى مصر.

شهدت السنة ١١٧١ تطوّراً لافتاً، إذ التقى الملك الميريكوس امنوال ملك الروم واتفق الملكان على إنقاذ مصر من أيدي المسلمين وفق شروط معيّنة، ودخل الميريكوس مدينة صيدا. ولمّا بلغ الملك العادل نور الدين أنّ صلاح الدين بسط سلطانه على مصر، أصدر أمراً بمنع الخطبة العلويّة وإقامة الخطبة العباسيّة محلّها، فلفته صلاح الدين محذّراً من الفتنة بين المسلمين، لكن نور الدين لم يبدّل أمره. وكان الخليفة المصري العاضد قد مرض فأمر صلاح الدين الخطباء بأن يخطبوا للمستضيء خليفة بغداد ويقطعوا خطبة العاضد، ففعلوا، ثمّ مات العاضد من دون أن يكون له ولد، وبموته انقرضت سلالته وتملّك صلاح الدين الأيوبي مصر واعتقل أقارب العاضد وحظّر عليهم النساء لئلاّ يتوالدن. وبذلك انتهى الفاطميون في مصر والشام بعد الإخشيديين وأحد عشر خليفة ومايتين وسبع سنين من الحكم.

الفصل السابع

الدولة الأيوبيّة وفتوحاتها

بعدما تولّى شاور البدوي الوزارة في مصر، حلّ مكانه شيركوه، ثمّ ولّى العاضد عليها صلاح الدين يوسف ثمّ توفي، فملك الأخير قصر العاضد ودياره وقبض على أهل بيته لكي لا يقوم مَن يدّعي وراثته، فبعث نور الدين طالباً إلى صلاح الدين المثول أمامه فأرسل أخير موفداً اعتذر عن عدم الحضور، الأمر الذي أثار غضب نور الدين، لكن الأول عاد وخضع لرغبة الخليفة.

ثمّ سار نور الدين إلى الموصل حيث صلّى في جامعها، وفتح مرعش والرقة وخابور ومرزبان وسنجار في السنة ١١٧٢م التي مات فيها طوروس أمير الأرمن، الذي كان مؤيّداً للفرنج وخلفه ميلون الذي كان يكنّ لهم العداء. لذلك سعى لدى نور الدين محرّضاً إيّاه على سحق الفرنج والاستيلاء على كلّ أملاكهم، فكان له ما أراد حتى القضاء على فرسان الهيكل في قيليقية. لذلك أنّبه ملك القدس الميريكوس بسبب تآمره ضدّ النصارى وسار نحو إنطاكية، لكن ميلون لم يرتدع ما حمل الملك على غزو بلاد قيليقية والكثير من المناطق حيث أعمل السيف في سكانها.

لم يتردّد صلاح الدين في استخدام قوّته ونفوذه فاحتلّ الكرك (١١٧٣م) وكلّ ما كان في قبضة الفرنج خارج الأردن وأمعن قتلاً وسبياً وقطعاً للشجر والكروم. وزحف نور الدين بدوره من دمشق حتى بلغ الرقيم قرب الكرك، ففهم صلاح الدين الرسالة ورحل عنها عائداً إلى مصر حيث كتب إليه أنّ والده أيوب مريض وأنّه يخشى أن تضيع مصر من أيدي المسلمين في حال وفاته.

في هذه الأثناء نجح صاحب طرابلس القوس في تحرير نفسه من الأسر مقابل ألف وخمسماية درهم أعطاها إلى نور الدين وعاد إلى طرابلس. ويقول مطران صور إنّه في هذه السنة تقبّل النصيريون في جوار طرطوس المعمودية وتنصّروا، وكان عددهم نحو ستين ألفاً.

وفي السنة عينها سقط برد على بغداد وقيل إنّ وزن الحبّة منه سبعة أرطال فمات خلقٌ كثير من الناس والمواشي وهبّت أمطار غزيرة على الموصل لمدّة أربعة أشهر ودمّرت ضياع وهلك أناس

كثيرون.

ثمّ جهّز صلاح الدين جيشاً لأخيه شوران شاه ودفع به إلى اليمن فاحتلّها بعد معارك ضارية وجنى صلاح الدين كلّ ما كان في خزائنها من أموال طائلة، وهذا ما حدا بنور الدين إلى مطالبته بالحساب، فأرسل إليه كميّة كبيرة من التحف النفيسة والكنوز النادرة، لكنّها عندما وصلت إليه وافته المنيّة. وبعد وفاة الملك العادل نور الدين محمّد بن زنكي الذي عُرف بالتقوى ومساعدة المحتاجين وتوسيع دائرة سيطرة المسلمين، تولّى الملك بعد ولده الصالح إسماعيل وكان بعد ولداً، وسارع صلاح الدين إلى الاستئثار بمملكة الديار المصريّة والشاميّة وتعزيز نفوذه وقوّته.

وبعد وفاة نور الدين سارع ملك القدس إلى محاصرة بانياس فأرسلت إليه زوجة المتوفى مبلغاً من المال وعشرين أسيراً فرحل عنها وعاد إلى بيت المقدس، حيث توفي بمرض سيلان الدم ودُفن إلى جانب أبيه في الجلجلة. وكان الملك الميريكوس هذا جليلاً متعبّداً صبوراً في الحرب، وتولّى سدّة الملك بعد ابنه بلدوين وله من العمر ثلاثة عشر عاماً، فيما أنيطت إدارة شؤون المملكة بشخص يدعى ميلون، وكان متعجرفاً متكبّراً، فنفر منه الجميع، خصوصاً صاحب طرابلس الذي قيل إنّه كان أفضل أمراء الفرنج. ثم قام بعض متمرّدين وقتلوا ميلون وهو في عكا، فتولّى المحافظة رايمندوس القوس ابن رايمندوس الكبير، الذي وصل إلى بلاد الشام برفقة الملك جوفريد وولّي على طرابلس الشام.

إلاّ أنّ صلاح الدين لم يستكن فسار بنحو خمسماية مقاتل إلى دمشق (١١٧٤م) بعدما كان توافق سرّاً مع وجهائها على دخولها، ففُتحت له أبوابها ودخلها وبسط نفوذه وولّى عليها أخاها طفتكين بن أيّوب. أمّا الملك الصالح بن نور الدين غازي صاحب فانتقل إلى حلب طالباً النجدة لمواجهة صلاح الدين ووقف توسّعه.

لكن صلاح الدين لم يستكن فسار إلى حمص التي كانت مع حماة وقلعة بارين وسلمية وتل خالد والرها من بلاد الجزيرة في عهدة فخر الدين مسعود الرعفراني، فاحتلّ صلاح الدين حمص، ومضى إلى حماة فأخذها، ثمّ إلى حلب فحاصرها. ثمّ خرج ملك القدس إلى بانياس فأحرق الزرع والبيادر وغزا الجنّة التي في أطراف جبل لبنان، وبلغ حمص، فرحل صلاح الدين عن حلب وقدّم للفرنج الأسرى الذين كان أخذهم نور الدين فكفّوا عنه. ثمّ جاء سيف الدين غازي بعسكر

من حلب والموصل لمواجهة صلاح الدين قرب حماة فانتصر عليه الأخير، وتمّ الصلح بين الملك الصالح بن نور الدين وصلاح الدين نفسه فكان لهذا الأخير كلّ ما تملّكه من بلاد الشام وللملك الصالح ما تبقّى لديه، فرحل صلاح الدين عن حلب، وأعطى حمص إلى إبن عمّه محمّد بن شيركوه، ودمشق لأخيه سيف الإسلام طفتكين، ومصر لأخيه العادل، وطلب من خليفة بغداد المستضيء تقليده السلطنة الكبرى، أي مصر والشام واليمن والحجاز وكلّ ما يفتتحه، فكان له ذلك (١١٧٥م).

ثمّ زحف صاحب طرابلس على بلاد جبيل وحصون المنيطرة، فتصدّى له شمس الدولة أخو صلاح الدين الذي هُزم، فاحتلّ الفرنج مناطق في البقاع. ووقعت المواجهة بين صلاح الدين وغازي صاحب الموصل في تل السلطان فهُزم غازي، وفتح صلاح الدين عزاز، وأخذ حلب صلحاً، وعمد إلى محاربة الإسماعيليين فتوسّط لديه خاله صاحب حماة، فعاد إلى مصر وبنى السور الأعظم المحيط منها حتى القاهرة، وأنشأ قلعة الجبل... ثم في السنة ١١٧٦م اتفق أمير فلندرا، وكان في زيارة إلى القدس، مع صاحب طرابلس والبرانس صاحب إنطاكية على محاصرة قلعة حماة واستمرّ الحصار عشرة أشهر، حتى نزل صلاح الدين إلى دمشق فرحلوا عن حماة وسلّمها صلاح الدين إلى أخيه شمس الدولة.

ولم يهدأ صلاح الدين بل غزا الفرنج في الساحل بستة وعشرين ألف مقاتل وأحرق الرملة ونهب اللد وأسر وقتل، وصعد نحو الجبال فأرعب السكان، حتى وصل إلى جبال القدس وبرج داود.

لذلك خرج الملك بلدوين من عسقلان بجيشٍ كبير وهاجم عسكر المسلمين المنهك لشدّة السهر ومشقّة السفر فشتّت شملهم، بمساعدة العواصف والبرد الشديد التي أهلكت قسماً من جيوش المسلمين وشرّدت الباقي فأخذوا بالسيف وفرّ بعضهم، وعاد صلاح الدين إلى مصر بطريق البر حيث هلك الكثير من رجاله ودوابهم. فيما عاد الفرنج إلى القدس ظافرين.

شهدت السنة ١١٧٨م إنعقاد مجمع روما الذي دعا إليه البابا اسكندر الثالث فذهب لحضوره مطران صور غليلموس وأساقفة طرابلس وعكا وقيسارية وبيت لحم وسواهم. وفيما بنى الملك بلدوين برجاً على شاطئ الأردن، كما حلّ بالبلاد غلاء وضيق وأوبئة قضت على الكثير من السكان. ثم ثار أهالي زايلون وقصدوا تدمير البرج المشار إليه بعد سنة من بنائه في بيت يعقوب، فأوقعهم الفرنج في كمين وأبادوا معظمهم، بعدها نصب هؤلاء كميناً لبلدوين وقتلوا صلحداره

والكثير من جماعته، كما فشل صلاح الدين في احتلال البرج.
وحصلت في هذه السنة جولات قتال متتالية، ففي واقعة مرجعيون هُزم الفرنج وأُسر منهم مايتان وسبعون رجلاً، بينهم أودون مقدم الديوانية الذي مات في السجن ولم ينجح الملك في تحريره، وهذه الواقعة حصلت على حين غرّة فيما كان جيش الفرنج مرهقاً على الشاطئ عندما انقضّ عليهم صلاح الدين، قبل أن يسير إلى برج يعقوب ويحتلّه ويدمّره كليّاً ويقتل كل الذين كانوا في داخله.
وأكمل صلاح الدين زحفه فحاصر طبرية ولم يتمكن من أخذها فقصد بانياس مستقوياً بتعزيزات وصلته من مصر، فيما كانت بلاد الشام تعاني موجة قحط وجفاف، فأرسل بلدوين مَن يطلب الهدنة والصلح من صلاح الدين الذي استجاب للطلب. وكان هذا الأخير يعدّ العدّة للزحف على طرابلس فنزل في عرقا بين القوس وفرسان الديوانية الذين كانوا يتولون الحصون الشماليّة وقطع طرق التواصل في ما بينهم، ليغير على ابالة طرابلس في موسم الحصاد وأعاث في البلاد حرقاً ونهباً وقتلاً، الأمر الذي حدا بصاحب طرابلس على طلب الهدنة فقبل صلاح الدين وعاد بجيشه إلى مصر. وفي موازاة ذلك طلّق بيومند زوجته واتخذ إمرأة سيئة السمعة زوجة له فغضب عليه بطريرك إنطاكية ورؤساء الكهنة، فثار عليهم ووضع يده على كل ما في الكنائس والأديار من آنية مقدّسة، فعمّ الخراب إنطاكية، ولم يعد فيها أي مظهر من مظاهر الصلاة والحياة الدينيّة المسيحيّة.
وفي تلك السنة توفي الميريكوس بطريرك القدس وحلّ مكانه هرقل مطران قيسارية، كما توفي الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب بعدما أوصى بالملك لابن عمّه سيف الدولة غازي صاحب الموصل الذي ملك مدينة حلب. كذلك توفي عمانويل ملك الروم وخلفه ابنه ألكس ذو الثلاث عشرة سنة الذي ظلّ على وفاء أبيه للفرنج، الأمر الذي أغضب أمراء الروم فسملوا عينيه وقطعوا ذكورته وأعملوا السيف في الفرنج وقتلوا الكهنة والرهبان والنساء والأولاد وباعوا منهم نحو أربعة آلاف للمسلمين وأحرقوا بيوت المسيحيين ودمّروا كنائسهم وقتلوا الكاردينال يوحنا وربطوا رأسه في ذيل كلب ونبشوا القبور، واقتحموا تكية مار يوحنا وقتلوا جميع المرضى فيها، ولم ينجُ من الفرنج إلاّ مَن تمكّن من الهرب بحراً...
ولمّا عرف الفرنج بجرائم الروم حشدوا أسطولاً بحريّاً وغزوا كل المدن والحصون والقرى على

سواحل البحر وأضرموا فيها النار وأباحوا القتل والسبي، وفعلوا بالروم ما فعله هؤلاء بهم. لكن انقطاع الفرنج عن بلاد الروم وقيليقية أضعفهم، فتملّك زنكي الرها وأهلك مَن كان فيها، ثم أخذ ابنه نور الدين مصر وطردهم منها. وملك صلاح الدين الديار المصريّة والشاميّة ووحّد كل الجيوش الاسلاميّة وضرب بها الفرنج، الذين فشلوا في إعادة توحيد قواهم فشلاً ذريعاً.

وفي هذه السنة، يقول مطران صور، قدمت ملّة الموارنة إلى طاعة الكنيسة الرومانيّة، وذلك في ظل الهدنة التي قامت بين صلاح الدين والفرنج.

غير أنّ صلاح الدين سرعان ما نقض الهدنة (١١٨٠م) عندما تاه في البحر مركب يقلّ نحو ألف وخمسماية رجل كانوا يقصدون الحج إلى القدس، فألقى القبض عليهم واحتجزهم، ثم زحف بجيوشه إلى الكرك لقتال الفرنج وانضمّت إليه العساكر الشاميّة من دمشق وبوصرى وبعلبك وحمص وغيرها، فغزا بلاد الجليل إبّان موسم الحصاد، وسيطر على دبوريه وقتل أهلها وجيرانها وأسر منهم نحو خمسماية شخص، ثم اجتاح طبرية وبيسان وجنين والغور... ثم خرج إليه بلدوين بسبعماية مقاتل فقط وهو في طبرية ونزلوا في ناحية صفوريه ووقع القتال بين طبرية والجليل، فهُزم جيش المسلمين وقُتل منه نحو ألفين وفرّ الباقون إلى دمشق.

وبعد سنة عاود صلاح الدين هجومه على طبرية بنحو عشرين ألف فارس، فتصدّى له بلدوين بسبعماية عند صفوريه ووقع القتال ثانيةً بين طبرية والجليل، ووقعت الهزيمة أيضاً على المسلمين.

وفي السنة عينها طلب صلاح الدين من أخيه في مصر إرسال عسكر إليه لمهاجمة بيروت، التي وصلها جيش مصري، وقدم أخوه برّاً وغزا نواحي داره وعسقلان وغزة التي على حدود مصر وحاصر مدينة بيروت بهدف إسقاطها. وفي اليوم الثالث لحصار بيروت تحرّك بلدوين بجيشه فانسحب صلاح الدين إلى مصر بعدما غزا شاطئها وقطع شجرها وكرومها.

ثمّ سار صلاح الدين عابراً نهر الفرات من البيرة قاصداً الموصل التي كان صاحبها شجاعاً ومحبوباً من جماعته فشدّد صلاح الدين الطوق عليها وأخذ الرها وحرّان وجوارهما، لكنه لم يتمكّن من إسقاط الموصل. وفي هذه الأثناء فتح بلدوين مغارة الشقيف وأخذها بعد حصار عشرين يوماً، ثمّ غزا بلاد الشام واحتلّ الغور وداريا بالسيف وأحرقهما وقطع شجرهما وعمل فيهما نهباً وأسراً.

توفي ملك القدس بلدوين الرابع (١١٨٤م)، في بيت المقدس بعدما ملك لإحدى عشرة سنة، بمرض البرص وخلفه في الحكم ابن أخته بلدوين الخامس وهو في عمر الست سنوات وتولّى شؤون المملكة جويدون صاحب يافا.

ولمّا بلغ الخبر صلاح الدين جمع العساكر المصريّة وخرج بها من دمشق وأقام الحصار والمنجنيق على الكرك وملك ربطها ببقيّة القلعة، فاجتمعت عليه جيوش الفرنج وطردوه منها، فسار نحو نابلس وأحرقها ونهب وقتل وأسر ونشر الموت والرعب في تلك النواحي. أمّا بلدوين فعزل جويدون عن محافظة البلاد وأناطها بصاحب طرابلس ولاقى قراره ترحيباً واسعاً.

ثمّ تابع صلاح الدين حروبه فاتّجه نحو المشرق واحتلّ ميافرين، وحاصر الموصل ثانية لكنّه عجز عن أخذها، إلاّ أنّه نجح في تحقيق الصلح على أن يأخذ هو شهرزور وأعمالها وولاية القرالي وكلّ المناطق ما وراء الزاب، وأن يخطب له على جميع المنابر في الموصل ويضرب اسمه على الدراهم والدنانير، فقبل الملك بهذه الشروط واستقرّ الصلح بينهما. لكن المنيّة وافت بلدوين الخامس ملك الفرنج بعد ثمانية أشهر من ملكه، فكتمت والدته خبر موته، واستمالت البطريرك وقادة الفرنج لتجعل زوجها جويدون ملكاً بعد ابنها. ولمّا بلغ الخبر القوس صاحب طرابلس، وكان بلدوين ضمن الصلح لخمس سنين، استشاط غضباً، وكاتب صلاح الدين طالباً نجدته وكانت طرابلس وطبرية وبلاد الجليل في عهدته، فيما طلب جويدون النجدة من البابا نوهرا والبطريرك وملوك النصارى، فجمع هنريك ملك الإنكليز الجيوش، ومات البابا الذي كان وراء حشد النجدة. إلاّ أنّ ملك سقالية سار بعمارة بحريّة إلى بلاد الروم فملك تسالونيقية وأمعن في الروم قتلاً وأسراً، بينما تمكّنت جماعة من الروم من القبض على الملك أندرونيقوس وقيّدته بالسلاسل واقتلعت عينيه وأسنانه وقطعت يديه وأعضاءه الذكوريّة وقتلته، وأحلّت محلّه ملكاً إسحق عدوّه.

في السنة ١١٨٣م عيّن صلاح الدين ابنه عثمان نائباً له في مصر ومعه أخوه العادل الذي كان في حلب. أمّا البرنس صاحب الكرك فهاجم قافلة عظيمة من المسلمين وأخذهم أسرى، فثارت ثائرة صلاح الدين وأرسل جيشاً لغزو عكا، وسار هو على رأس جيش إلى الكرك، ثمّ أخذ طبرية من قوس صاحب طرابلس رغم كون الأخير أعلن الولاء له، لكنه تراجع تحت ضغوط البطريرك والقساوسة وعاد إلى بيت الطاعة الفرنجي. وهكذا اجتمع الفرنج لمواجهة صلاح الدين، الذي نزل إلى الكرك والشوباك وأحرق كرمهما وضياعهما، وانتظر وصول جيوشه في رأس الماء ليشنّ

الغارة على طبرية. وكان على رأس الجيوش الشرقيّة مظفر الدين كوخي بن كوجي، وعلى عسكر حلب زين الدين داروم وعلى عسكر دمشق قيماز النجمي، فزحفوا حتى صفوريه، حيث ظفروا بعسكر الفرنج وقتلوا منهم خلقاً كثيراً إلى عددٍ من الأسرى.

ولم يتوقّف صلاح الدين بل زحف من الكرك على الاقحوانة، وسار بنفسه إلى طبرية واحتلّها بالقوّة. وعظم الأمر في عيون الفرنج وأعدّوا العدّة لقتاله والتقى الجيشان في مواجهة بالغة الشدّة، فهزم الفرنج، ولجأ القوس صاحب طرابلس إلى صاحب حماة تقي الدين، وأمّا باقي الفرنج فلاذوا بجبل حطّين حيث حاصرهم المسلمون وأخذوهم، وبينهم ملكهم جويدون وأخوه ملك جبيل والبرنس صاحب الكرك ومقدم الزاوية... كانت تلك أقسى هزيمة يمنى بها الفرنج إذ لم ينجُ منهم إلاّ القليل، وسُلبت منهم خشبة الصليب، واقتيد أسراهم إلى الحصون والسجون الاسماعيليّة. ولمّا انتهت المعركة توجّه صلاح الدين إلى طبرية وتسلّمها مع قلعتها من دون مقاومة، وانتقل إلى حصار عكا فسقطت في يده، وجاء أخوه العادل بالجيوش المصريّة وزحف على مجدل بايا ويافا ففتحهما عنوة. ثمّ وزّع السلطان جيوشه في غير اتجاه فتمّ فتح الناصرة وصفوريه وقيسارية وحيفا ومعلتا والفولة ونابلس وتبنين وعسقلان وغيرها، وسارت الجيوش نحو صيدا فأخلاها أهلها ودخلها بلا مقاومة.

وأكمل صلاح الدين زحفه نحو بيروت فحاصرها لثمانية أيام وتسلّمها، وتسلّم جبيل وأطلق صاحبها رغم كونه الأشدّ عداء، فمضى المركيس إلى صور آمناً. ثمّ تسلّم المسلمون حصن جبل لبنان والمنيطرة وعدلون وأنزلوا في كلّ بلد فرقة عسكريّة وفتحوا الرملة والداروم وغزة وبيت لحم وبيت جبريل وليطرون، ومعظم الحصون في بلاد صيدا. وحاصر السلطان عسقلان فسلّمه إيّاها جويدون ملك الفرنج، وأطلق صلاح الدين سبيله فذهب إلى صور واتفق مع المركيس والفرنج ومع الغرب وحاصر عكا وملكوها، وحلّ بالفرنج جوعٌ قضى على الكثيرين منهم حتى الملكة زوجة جويدون وأولادها الأربعة.

لم يهنأ بال لصلاح الدين ما دامت القدس في أيدي الفرنج المسيحيين فقصدها (١١٨٧م) وفيها ستون ألف مقاتل فرنجي، وبعد قتالٍ شديد وكرٍّ وفرّ ونصب المنجنيق وآلات الحرب، طلب الفرنج الأمان لكن صلاح الدين رفض ذلك، فاستمات الفرنج في الدفاع وأفهموه أنّ قتالهم سيكون انتحارياً إن لم يفكّ عنهم الحصار فوجد الفرصة ملائمة لفرض شروط قاسية عليهم. ويمكن

تلخيص هذه الشروط بالآتي:

- يسمح لهم بالخروج بأنفسهم وأولادهم وأموالهم، ما عدا الخيول والسلاح.
- يؤدي كلّ رجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والصبي والبنت أربعة والطفل دينار واحد، ومَن يعجز عن الدفع يسقط عليه الرقّ.
- مَن يريد من النصارى البقاء تؤخذ منه الجزية.

استجاب الفرنج لهذه الشروط ودخل السلطان بيت المقدس منهياً ثمانين سنة من استئثار الفرنج بها، وأراد المسلمون نهب دار البطريرك الكبير فمنعهم صلاح الدين عن ذلك، فصعدوا إلى قبّة الصخرة وأسقطوا الصليب الذهبي، ودخل السلطان الصخرة وغسلها بالماء ومسحها بلحيته وهو يبكي، ومحا كلّ الصور وحطّم الصلبان وأخذ دار الزاوية وعمّرها ورمّم المسجد الأقصى ووزّع الأموال التي أخذها من الفرنج (سبعماية ألف دينار) على العلماء والفقهاء والصوفيين.

وبعدما رتّب أوضاع بيت المقدس هاجم صلاح الدين صور وحاصرها نحو أربعة أشهر، لكنّه اضطُرّ إلى الرحيل عنها، إلى عكا حيث أقام فيها شهرين حتى انقضاء فصل الشتاء.

في أعقاب هذه التطوّرات التي حدّت كثيراً من قوّة الفرنج وحلفائهم، وجّه صلاح الدين (١١٨٨م) حملة على هونين ففتحها، وأخرى لمحاصرة كوكب، فيما زحف هو إلى دمشق ونزل منها إلى بحيرة قدس غربيّ حمص فواجهته مقاومة، فمضى إلى انطرسوس ومرقية قرب المرقب، وحاول التقدّم نحو جبلة فوجد أنّ الفرنج أخلوها. ثمّ سار إلى حصار اللاذقية وقلعتيها، وأخذهما سلماً، وتسلّم صهيون أمن بيت المقدس. ووزّع جيشه في تلك الجبال فأخذ حصن بلاطنوس الذي كان الفرنج قد انسحبوا منه وتمركز في حصن العبد وحصن الجواهرين، فأكمل زحفه إلى قلعة بكّاس فأخلاها أهلها وتحصّنوا في قلعة الشجر التي أخذها سلماً.

بعد ذلك أرسل صلاح الدين ابنه الملك الظاهر غازي صاحب حلب فاحتلّ صرمانية، فيما زحف السلطان على بلاد برزيّة واحتلّها عنوة وأعمل فيها قتلاً ونهباً وسبياً، قبل أن يتقدّم إلى جسر الحديد على نهر العاصي قرب إنطاكية فاستولى على دير بسّال وحاصر معه بغراس وتسلّمها، ليتوجّه نحو إنطاكية التي سارع صاحبها بيمند إلى طلب الهدنة مطلقاً كلّ ما كان لديه من الأسرى، فهادنه السلطان لثمانية أشهر. وكان بيمند صاحب إنطاكية أعظم ملوك الفرنج في تلك النواحي. ودخل السلطان إلى حلب وارتدّ منها إلى دمشق، في وقت كان أخوه العادل تسلّم الكرك

بعدما ضربها القحط، فالشوبك وكل تلك الجهات سلماً، فزحف هو من دمشق إلى صفد وحاصرها، فالتحق به أخوه الملك العادل، فأخذها سلماً، ليتقدّم إلى كوكبَ التي كان قيماز يقيم عليها الحصار فدخلها صلحاً. ثمّ وصل إلى عسقلان ورتّب شؤونها، وبعث أخاه العادل إلى مصر وتوجّه هو إلى عكا وجدّد عليها الحصار.

وفي تلك السنة توفي مؤيّد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ الكناني، أكبر بطل في أمراء صلاح الدين باني حصن عجلون.

في السنة ١١٨٩م نزل صلاح الدين في مرجعيون، فقدم إليه صاحب شقيف أرنون وسأله أن يمهله ثلاثة أشهر لكي ينقل أهله وذخائره فقبل السلطان، لكن سرعان ما تبيّن له أنّه يقوم بتحصين الحصن فقبض عليه وأرسله إلى دمشق.

ثمّ إنّ الفرنج شعروا بخطر صلاح الدين الزاحف نحوهم فاجتمعوا وتحصّنوا في بلاد عكا، فهاجمهم فيها فهزموه، وأصيب بالقولنج ما اضطرّه على الرحيل عنها، فيما بسط الفرنج سلطانهم على ملك البلاد وحصّنوها وأقاموا فيها الأبراج قرب سور عكا، ودارت هناك حروب شرسة جداً. طال حصار عكا عشرين شهراً كان الفرنج يستبسلون خلالها في القتال، وبلغ الأمر إلى فاداريكو فجمع ماية وخمسين ألف مقاتل وسيّر بعضهم برّاً وبعضهم الآخر بحراً، فظفروا بالروم والترك في غير موقعة في جهات القسطنطينيّة، في طريقهم إلى تحرير القدس. وسارع صلاح الدين إلى طلب النجدة من الخليفة، فيما ضرب الوباء جيش الألمان وقضى ملكهم في بلاد الأرمن وهو يسبح في النهر، فحلّ ابنه محلّه، لكن قسماً كبيراً من عسكره عاد إلى بلاده، واستقرّ النصارى في عكا. ثمّ قصد الفرنج عسقلان، فلاقاهم صلاح الدين عند نهر القصب وهزمهم وأخذ عسقلان وهدمها وهدم حصن الرملة وكنيسة الله، لكن الفرنج تمكّنوا من إقامة الحصار على عسقلان، وانطلقوا من القيسارية إلى أرسون حيث كانت معركة كبيرة هُزموا بنتيجتها، ليكملوا زحفهم إلى يافا التي أخلاها المسلمون قبل وصولهم إليها.

ثمّ دخل الفرنج إلى يافا بعدما أخلاها المسلمون، وحصلت مراسلات بين الجانبين للاتفاق على الصلح على أن يتزوّج أخو السلطان الملك العادل من أخت الملك الانكتار وتكون القدس للعادل وعكا لامرأته. لكن القساوسة أنكروا ذلك إذا لم يتنصّر الملك، ووقع الخلاف بين الطرفين. ثمّ رحل الفرنج من يافا إلى الرملة، وسار السلطان إلى القدس فأعاد إعمارها، إذ بادر إلى نقل

الحجار على فرسه، واقتدى به الجند.

بعد سنتين قتل جماعة من الباطنية المركيس صاحب صور وجلس مكانه ملك الانكتار الفرنج فراسل السلطان على الصلح وتمّ الاتفاق على هدنة لثلاث سنين وثلاثة أشهر، وقضت بإبقاء يافا وقيسارية وأرسون وحيفا وعكا بيد الفرنج، على أن تخلى عسقلان ويدخل السلطان بلاد الاسماعيلية ويلتزم صاحب إنطاكية وطرابلس الهدنة بين السلطان والفرنج وتكون مدينتا اللد والرملة مناصفة بينهم.

في السنة ١١٩٣م توفي السلطان الكبير الملك الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي، عندما خرج للصيد وبصحبته أخوه الملك العادل، وقضيا مدّة خمسة عشر يوماً ليعودا وتضرب الحمّى صلاح الدين وتميته ويسود أهل دمشق حزنٌ عظيم. مات صلاح الدين بعد أربعة وعشرين عاماً قضاها في ساحات القتال وفتح اليمن والموصل ووصل إلى طرابلس الغرب وأصوان محققاً الانتصارات وترك لأولاده الإمارات وفي أنحاء كثيرة بعده.

بعد وفاة صلاح الدين (١١٩٤م) سار ولده عثمان ومعه عمّه العادل وحاصر دمشق وفيها أخوه الملك الأفضل، وتواطأ معه العسكر الدمشقي ففتحها وملّك عليها عمّه، وتوجّه العزيز إلى مصر، فيما أخرج العادل أولاد أخيه صلاح الدين من دمشق.

ثمّ احتلّ العادل يافا بالسيف وأخذها من الفرنج وهدمها، فانتقل الفرنج إلى بيروت وحاصروها، فتركها نائبه عز الدين الكناني وهرب إلى صيدا وأخذها الفرنج من دون مقاومة. وأكملوا زحفهم إلى تبنين وحاصروها، وبسطوا انتشارهم على السواحل، قبل أن يوقّعوا مع المسلمين هدنة لخمس سنين ونصف السنة (١١٩٦م).

وتوفي الملك العزيز عثمان بعد ولاية نحو ست سنين على مصر، وحلّ في موقعه ولده محمّد الذي لُقّب بالمنصور. ولأنّ هذا الملك كان يافعاً في السن توجّه عمّه الفاضل نور الدين إلى مصر بذريعة أنّه يودّ رعاية ابن أخيه، فاستولى على السلطة ليصبح رابع ملوك بني أيوب على الديار المصريّة، ولُقّب بالملك الأفضل، ولم يبقَ للمنصور إلاّ الإسم.

ولمّا استتبّ الحكم في مصر للملك الأفضل طمع باحتلال دمشق، فبلغ ذلك إلى صاحبها الملك العادل أثناء حصاره ماردين، فأوكل المهمّة إلى ولده الكامل وعاد إلى دمشق ودخلها قبل وصول الجيش المصري. ثمّ دار بين الجيشين قتالٌ شديد دخل بنتيجته الأفضل المدينة واستباح جيشه

فيها كلّ محرّم ومحظور، قبل أن يهاجمهم أصحاب الملك العادل ويُخرجوهم من بعض دمشق. لكنّ الأفضل وأخاه الظاهر غازي صاحب حلب ثبتا في حصارهما للمدينة رغم الشتاء القاسي، حتى دبّ الخلاف بين الأخوين صاحبي مصر وحلب فارتدّا عن دمشق إلى مرج الصفراء. ولم يحصل أي تبدّل في الوضع حتى العام ١١٩٨م، عندما توجّه الظاهر إلى حلب والأفضل إلى مصر، فهاجم الملك العادل القاهرة وملكها، وخطب له في بلاد مصر وبلاد الشام، وأناب ابنه الملك الأشرف موسى على الرها وحران والمعظم عيسى على دمشق وابنه الثالث الملك الكامل محمّد على مصر. وفي أيام العادل استشرى الغلاء في الديار المصريّة وفي الشام وانخفضت مياه النيل واشتدّ القحط وانتشر الوباء والمجاعة حتى أكل البعض لحوم البشر وهلك قسمٌ كبير من الشعوب في تلك البلاد، كما ضرب زلزال عظيم لمدّة ساعة بلاد الشام فمات أهل صفد ولم يسلم منهم سوى شخص واحد ولم يصمد في نابلس حجر على حجر... وفي السنة ١٢٠١م زحف الملك العادل على دمشق وحماة، قاصداً الظاهر صاحب حلب، الذي تمكّن من إقناعه بالصلح فساد السلام الديار المصريّة والشاميّة. وفي هذه السنة وقعت هزيمة كبيرة على الفرنج، الذين اضطرّوا إلى قبول هدنة مع الملك المنصور.

الفصل الثامن

«في حوادث الجيل التاسع»

استمرّت الحرب سجالاً ما بين الفرنج والملك العادل، إذ حاولوا انتزاع القدس فواجههم العادل من دمشق واستمرّ القتال بين الجانبين حتى آخر السنة ١٢٠٣م. وأغار الفرنج على حمص وحماة وأسروا وسبوا فيهما، فصالحهم العادل، قبل أن يحاصر عكا ويصالحه صاحبها، وينتقل لمهاجمة طرابلس ويأخذ سنجار، ويرسل الملك المعظّم عيسى عسكر دمشق إلى قتال الفرنج. ثمّ استولى الفرنج على القسطنطينيّة وانتزعوها من أيدي الروم، الذين عادوا واستعادوها منهم، فيما استولى أسطول الفرنج على مدينة شوّة في البلاد المصريّة. وفي هذه السنة ضربت زلازل عظيمة بلاد الشام وبلاد الروم والجزيرة وصقلية وقبرص والعراق وخرّبت أسوار مدينة صور... وفي السنة ١٢٠٥ - ١٢٠٦م تمّت الهدنة ما بين العادل والفرنج فسلّمهم يافا وأخذ اللد والرملة وعاد إلى مصر، فيما أغار الفرنج على حماة ونهبوها.

ولم تتوقّف عجلة الحرب إذ حشد الملك العادل جيشه وهاجم برج الأكراد واحتلّ برج اعناز، ثمّ حاصر طرابلس ونصب عليها المنجنيق، ليتقدّم نحو بحيرة قدس في ظاهر حمص في السنة ١٢٠٦م. وعمل العادل على إعمار قلعة دمشق، التي أكمل العمل فيها الملك المعظّم عيسى وسُمّيت «الأسد الرابض». وفي السنة ١٢٠٨م وقعت الهدنة بين الفرنج والملك العادل، فأرسل الخليفة ناصر الدين العباس إلى الخلع إلى الأخير وخطب له بشاهنشاه ملك الملوك.

وفي السنة ١٢٠٩م جلس على كرسي إنطاكية البطريرك أرميا من عمشيت وكان مركزه في دير سيدة يانوح، فذهب إلى روما لحضور المجمع الذي كان يعقد في لاتران، وفي أيامه بدأ المسيحيون يقدّسون الميرون بزيت الزيتون ودهن البلسم فقط، بناءً على وصيّة الكاردينال بطرس سفير البابا.

لكن الفرنج لم يصبروا طويلاً على ضياع القدس من أيديهم، إذ في العام ١٢١٦م حشدوا جيشاً كبيراً أتوا به بحراً إلى عين جالوت لاسترجاع القدس، ورغم الخوف الذي أصاب الملك العادل إلاّ

أنّه استنفر أهل المدينة ودعاهم إلى الاستعداد لمواجهة الحصار، ثمّ توجّه الفرنج إلى نواحي عكا، وبعثوا بعضاً من جيشهم لأخذ بلدة جزين وما حولها من القرى ونزلوا إلى مرج العواميد قرب جزين فأخلاها أهلها، فيما اجتمع المسلمون في تلك الأنحاء وهاجموا عسكر الفرنج وأبادوهم عن آخرهم. ولمّا بلغ ذلك صاحب عكا أخذه غضب شديد وراح يشنّ الغارات على جزين وضواحيها، وقدم الملك المعظّم لمواجهة الفرنج فتراجعوا إلى عكا، قبل أن ينتقلوا بحراً إلى مصر وينزلوا في دمياط، فأوعز العادل إلى ابنه الكامل بالتصدي للفرنج هناك الذين تمكّنوا من أخذ دمياط بعد قتالٍ دام أربعة أشهر.

بعد وفاة الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب (١٢١٨م) ولّي عليها ابنه العزيز محمّد، فطمع به صاحب بلاد الروم كيكاوس بسبب صغر سنّه واستنجد بالملك الأفضل صاحب شميشاط ففتح رعبان وتل باشر ومنبج وتسلّمها، ما أوقع الخلاف بين الأفضل وجيوش العرب.

ثمّ توفي الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمّد بن أيوب بن شادي وكان ملكاً حليماً أبطل المظالم والمكوس في دمشق وكلّ البلاد، وقيل إنّه توفي في بعقلين - الشوف ودُفن في دمشق، وهو السادس من سلالة ملوك بني أيوب في الديار المصريّة. وبوفاته ولّي أخوه الملك المعظّم عيسى على دمشق، والملك الأشرف على خلاط وحرّان والرها والجزيرة، والملك المظفّر غازي على ميافرين وغامي وجبل غوري وما والاها. واستولى الملك الحافظ على قلعة جعبر، والملك الفاتر ابراهيم على قوص وأعمالها والملك الأفضل على الفيّوم، وهؤلاء جميعاً أولاد الملك الكامل محمّد.

وكان الكامل خاض حروباً طاحنة مع الفرنج في دمياط، مستنجداً بإخوته، ولمّا ملك الفرنج برّ دمياط، وأقام ونزل الملك الكامل قريباً منهم جرت بينهم مواجهات عنيفة، انتصر فيها الكامل وأسر عدداً كبيراً أرسلهم إلى القاهرة. لذلك اجتمع عسكر الفرنج في دمياط بعدما حاصروها برّاً وبحراً ومنعوا عنها المياه، فمات معظم مَن في داخلها جوعاً وخوفاً ومرضاً، فملكها الفرنج بالسيوف، ونقلوا الأسرى إلى عكا، وأقاموا في جامعها كنيسة. أمّا الكامل فرحل إلى اشموم، حيث أقام الدور والفنادق والأسواق عند مفترق النيل، وسُمّيت هذه المنطقة بالمنصورة، وحصّنها واستقرّ فيها مع جيشه. وأمّا المعظّم ملك دمشق فخرّب قلعتي الطور وتبين وكذلك بانياس خشية استيلاء الفرنج عليها.

وكأنّ ما عانته تلك البلاد من حروب ومجاعات وزلازل ونكبات لم يكن كافياً، إذ ظهرت جحافل

التتر وراحت تنكّل بالمسلمين وتسفك دماءهم وتسبي نساءهم وتجتاح معظم بلادهم من العراق إلى تركستان وحتى بلاد غانا وبعض الهند وسجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وصولاً إلى خراسان وبعض بلاد فارس.

ثمّ اتفق الملك المعظّم صاحب دمشق مع جمال الدين خوارزم شاه ملك أذربيجان وآران وبعض بلاد الكرك وعراق العجم وغيرهم، متآمراً معهم على أخويه الكامل صاحب مصر والأشرف صاحب الرها وصاحب دمشق، الأمر الذي أخاف الكامل وطلب من الأمبرادور ملك الفرنج أن يأتي إلى عكا ويشغل المعظّم عما قد يقدم عليه، واعداً إيّاه بإعطائه القدس. ولكن ما إن وصل الامبرادور إلى عكا حتى وافت المنيّة المعظّم فقام فيها ولده داود وسُمّي الملك الناصر صلاح الدين. وكان المعظّم قد طلب إلى العزيز عثمان وآيبك الاستدار اللذين كانا في القدس أن يسارعا إلى هدم أسوارها لئلاّ يحتلّها الفرنج ففعلا (١٢١٩م). ثمّ دبّ الرعب في بيت المقدس وخرج أهلها رجالاً ونساءً وصغاراً وكباراً إلى الشوارع مرتعبين وهاجر بعضهم إلى مصر والبعض الآخر إلى الكرك ودمشق تاركين كلّ ما ملكوا، ومات منهم قسمٌ كبير جوعاً وعطشاً وتشريداً...

وزحف الكامل من مصر إلى الشام ونزل قرب غزة وولّى على نابلس والقدس وغيرهما ابن أخيه الناصر داود، واستنجد الناصر بعمّه الأشرف والملك المجاهد شيركوه وساروا إلى غزة لقتال الكامل الذي كان متفقاً ضمناً مع الأشرف على أخذ دمشق من ابن أخيهما لأنّه كان غارقاً باللهو والمجون وغائباً عن مصالح الناس، لكن حدث أن مات المظفر فجأة.

عاد التتر إلى الظهور ثانيةً عبر استهدافهم مناطق سيطرة جمال الدين محمّد خوارزم شاه ودارت بينهم معارك كثيرة، أسفرت عن انتصار التتر، فبادر الانمرطون صاحب جزيرة صقلية فقدم إلى عكا بجيوش كثيرة واستولى على صيدا. ثمّ فتح الملك المعظم صاحب دمشق قيسارية وهدمها وزحف إلى عتليت، في طريقه إلى دمياط لنجدة الملك الكامل. وفي تلك السنة (١٢٢٠م) توفي الملك المنصور الذي كان محبّاً للعلماء والفقهاء والنحّاة.

حيال هذه الفوضى عقب التطورات التي اجتاحت البلاد الشاميّة والمصريّة وجوارها اغتنم الفرنج الفرصة فتحرّكوا من دمياط إلى جهات مصر حيث بلغوا المنصورة واشتدّ القتال بينهم وبين المسلمين برّاً وبحراً، فطلب الملك الكامل النجدة من إخوته وأهل بيته، فجاء إليه صاحب دمشق الملك الناصر داود وأخوه الملك الأشرف موسى صاحب حلب والملك الناصر صاحب حماة

والملك الأمجد صاحب بعلبك والملك المجاهد شيركوه مع جيوشهم وأعوانهم. فلمّا رأى الفرنج هذه الجحافل الجرّارة وهنت نفوسهم واشتدّت عزيمة المسلمين، والتحمت الجيوش في قتالٍ شديد، فسأل المسلمون الفرنج ما إذا كانوا يريدون الصلح مقابل تسليمهم القدس وطبرية واللاذقية وجبلة وكلّ البلاد التي فتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الكبير، ما عدا الكرك والشوبك على أن يستجيبوا للصلح ويسلّموا دمياط للمسلمين. لكن الفرنج رفضوا هذا العرض وأصرّوا على تسليمهم الكرك والشوبك ويدفعوا لهم ثلاث ماية دينار بدل أضرار عن تخريب أسوار القدس. عند ذاك استجار المسلمون بنهر النيل وأحدثوا فجوة كبيرة اندفعت منها المياه بشدّة نحو الفرنج وفصلت بينهم وبين دمياط وقطعت عنهم المدد ومياه الشرب فهلك منهم قسمٌ كبير ما دفعهم إلى طلب الأمان، ولمّا طال انتظار الرد أحرقوا أثقالهم وانسحبوا ليلاً في اتجاه دمياط، فسارع السلطان إلى قطع الجسور وأحاطهم بمياه النيل من كلّ جهة حتى أيقنوا بأنهم ماضون نحو الهلاك، فطلبوا الهدنة، على أن يقدّم الملك الكامل ابنه الصالح نجم الدين كضمانة مقابل تقديم الفرنج ملك عكا، وحضر نائب البابا صاحب رومية الكبرى وكندريس وغيرهم من الملوك، والتقى الجميع في خيمة واحدة، وتوافقوا على هدنة بينهم لثماني سنوات وإطلاق الأسرى من الجانبين وأقسموا على ذلك، فتسلّم السلطان دمياط وانتقل الفرنج إلى بلادهم والسلطان إلى مصر. وكان ذلك في السنة ١٢٢١م.

جاءت السنة ١٢٢٥م لتشهد وفاة الملك الناصر لدين اللّه أخي العباس خليفة بغداد عن سبع وأربعين سنة من الخلافة، ليبايع بها ابنه الظاهر باللّه محمّد الخامس والثلاثين من الخلفاء العباسيين. ثمّ توفي الملك العادل سيف الدين أبو بكر أخو السلطان صلاح الدين. وهاجم الملك الأشرف صاحب حلب كيكاوس صاحب بلاد الروم واسترجع منه تل باشر ورعبان، فيما خلف الظاهر بأمر اللّه ابنه الأكبر المستبصر باللّه أبو جعفر المنصور، السادس والثلاثون من خلفاء بني العباس.

وفي السنة ١٢٢٦م زحف الملك الأشرف صاحب حلب على دمشق بأمر من الملك الكامل ليحاصر الملك داود صاحب حماة فدخلها. وجرت اتصالات بين الكامل وإمبراطور الفرنج على أن يسلّمه القدس من دون أن يقوم الفرنج بإعادة إعمار أسوارها ولا يتعرضوا لقبّة الصخرة ولا الجامع الأقصى ويكون الحكم في الرساتيق للمسلمين وتكون لهم القرى التي على الطريق من عكا إلى

القدس فقط، فتمّ التوافق على ذلك وتسلّم الإمبراطور القدس.
سار الملك الكامل إلى دمشق وأحكم الحصار على الناصر داود وفصل عنها بانياس والقنوات وتمّ نهب البساتين وإحراق السهول المجاورة للبلد، واشتدّ القتال بين المسلمين إلى أن أُبرم الصلح، ودخل الملك الكامل القلعة وأعطى أخاه حرّان والرها ورأس عين والرقة والبلاد الشرقيّة بدلاً منها. وسار الكامل إلى هذه البلاد ليتسلّمها، فيما توجّه الأشرف إلى بعلبك وحاصرها ثمّ تسلّمها مع قلعتها وعاد إلى دمشق والعادل إلى مصر.
وقبيل حلول السنة ١٢٣٠م توفي البطريرك أرميا من عمشيت، وخلفه دانيال من شامات واتخذ سكناً له في كفيفان وكفرحي وفي دير مار جرجس في كفرا. وفي السنة ١٢٢٩م أعطى الأشرف أخاه الملك الصالح اسماعيل بعلبك، ثمّ سار الفرنج من برج الأكراد زاحفين نحو حماة فالتقاهم الملك المظفّر في مكان ما بين حماة وبارين، ودارت بين الجيشين معركة طاحنة هُزم بنتيجتها الفرنج هزيمة قاسية.
وبعد سنة، أي ١٢٣٠م عاد التتر إلى الظهور مجدداً وهاجموا جلال الدين خوارزم شاه ملك أذربيجان، وبلغوا الفرات وشنّوا الغارات المتلاحقة في ديار بكر والجزيرة وأعاثوا خراباً ودماراً شديدَين حينما عبروا، ولم يعفوا عن قتل النسّاك والزهّاد وهدموا الجوامع وأحرقوا المصاحف، على غرار ما فعلوه في غزواتهم السابقة، فيما قُتل جلال الدين خوارزم قرب ميافرين.
إلاّ أنّ عين الملك الكامل ظلّت على آمد فحاصرها بالمنجنيق وانتزعها من صاحبها الملك مسعود مودود الأتابكي الذي اشتهر بفسقه إذ وُجد في قصره خمسماية من الجواري اللواتي سباهنّ قهراً، كما انتزع الملك الدمشقي حصن كيفا واستناب عليه ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب.
وفي تلك السنة توفي الملك العزيز عثمان بن العادل سيف الدين وهو شقيق الملك المعظّم عيسى.
ثمّ دارت عجلة حروب كبيرة بين الملك الكامل وملك الروم (١٢٣٣م) ظفر بها الأخير وأسر ملك حماة واستولى على حران والرها، ليعود الكامل ويسترجعهما من الروم ويأسر منهم نحو ثلاثة آلاف ساقهم إلى مصر وبنى جامع التوبة في دمشق وأسماه كذلك لأنّه كان مكاناً للفحش والمنكر.
وفي السنة ١٢٣٦م توفي صاحب حلب الملك العزيز غيّاث الدين محمّد ابن الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف وكان وليّاً على سلطنة حلب وملك بعده ولده الملك الناصر يوسف وهو صبي بعد. وفي السنة التالية توفي السلطان الملك الأشرف أبو الكمال موسى، الذي تملّك دمشق لنحو

سبع سنين، ليتولاها بعده أخوه الملك الصالح عماد الدين اسماعيل. فلمّا بلغ الخبر إلى الملك الكامل سار من مصر إلى الشام وحاصر الملك الصالح حصاراً شديداً، فاتصل الأخير بملك الروم وتمّ الاتفاق على إعطاء الكامل دمشق وتعويض الصالح بإعطائه بعلبك والبقاع إلى بصرى. لكن الكامل مات بعد ذلك بشهرين في قلعة دمشق بعدما ملك مصر لنحو عشرين سنة، وبموته دبّ الخلاف حول مَن يكون صاحباً لمصر فاستقرّ الرأي على الملك الجوّاد يونس بن الكامل بن شمس الدين مودود بن الملك العادل ليكون ملكاً على دمشق، ويكون العادل على مصر. ثمّ احتلّ عسكر حلب المعرّة وكانت لصاحب حماة الملك المظفّر، ونهبوا ودمّروا تلك البلاد وحاصروا المظفّر في حماة، ودارت معارك شديدة بين الناصر داود صاحب الكد والجوّاد يونس نائب دمشق الذي انتصر وهزم الناصر شرّ هزيمة، كما عاد التتر إلى غزو بغداد.

إلاّ أنّ الجوّاد لم يهنأ طويلاً في حكم دمشق، إذ انتزعها منه الملك الصالح (١٢٣٨م). وبعد وفاته بسنة هاجم الملك الصالح صاحب بعلبك اسماعيل وشيركوه صاحب حمص بجيوشهما دمشق، وكان الصالح أيّوب في نابلس قاصداً الاستيلاء على مصر، فيما كان أبوه فتح الدين وليّاً على دمشق، فاحتلّ المهاجمون القلعة وأسروا المغيث الذي التحق عسكره بعسكر اسماعيل، فيما انتقل الناصر داود من مصر إلى الشام واعتقل الصالح أيوب وأرسله مكبّلاً إلى الكرك، وأكمل زحفه نحو القدس التي أعاد الفرنج إعمارها بعد موت الملك الكامل، فحاصرها وخرّبها وهدم قلعتها وبرج داود. ثمّ إنّ الملك الجوّاد أساء الحكم في سنجر فشكاه أهلها إلى لؤلؤ صاحب الموصل، وإذ خرج الجوّاد إلى الصيد فتح الأهالي له الأبواب فدخل سنجر، فيما فرّ الجوّاد إلى عانه لاجئاً إليها. وفي تلك السنة توفي صاحب حمص الملك المجاهد أسد الدين شيركوه، ليملك بعده المنصور ابراهيم ابنه.

ثمّ اتفق الملك الصالح أيوب قادماً من الكرك مع الملك الناصر داود على انتزاع مصر من العادل وانضمّ إليهما العساكر والأمراء، فأسروا الملك وخلعوه عن السلطنة، وأقاموا أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، وهو الثامن من ملوك بني أيوب على مصر، وعاد الناصر إلى الكرك. وبعد ذلك توفي ناصر الدين أرتق أرسلان بن الغازي صاحب ماردين، وحلّ مكانه ابنه الملك السعيد نجم الدين غازي.

وفي السنة ١٢٤٠م أعطى الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق صفد والشقيف للفرنج مقابل

دعمهم له ضدّ ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر. كما جرت معارك عدّة بين الخوارزمية والحلبيين، فاجتاح الخوارزمية حلب وحماة وفعلوا فيهما أكثر ممّا فعله التتر من تخريب ونهب وتدمير، قبل أن يتفق الحلبيون مع صاحب حمص ويهزموهم ويطردوهم، فيما استولى صاحب حلب على حاران وصاحب حمص على الخابور اللذين كانا في أيدي الخوارزمية.

وبعد سنتين رغب سلطان دمشق الصالح اسماعيل في مهاجمة سلطان مصر، وطلب من ابراهيم صاحب حمص والناصر داود صاحب الكرك ومن الإفرنج أن ينصروه على عمّه، مقابل إعطائهم قسماً من أراضي المسلمين. وفي تلك السنة توفي المستنصر باللّه خليفة بغداد وتمّ التوافق على تقليد الخلافة لولده عبداللّه المستعصم باللّه. ثمّ قُتل الأمير ابن نجم الدين محمّد وأخوه شرف الدين علي ولدا الأمير جمال الدين التنوخي في مكان ما من ضواحي بيروت، وتحديداً في الجوزات من بلاد كسروان.

وفي السنة ١٢٤٣م سلّم الصالح اسماعيل صاحب دمشق إلى الفرنج طبرية وعسقلان والقدس لتكون نجدة له، ولكن بعد سنة تغيّرت التحالفات فسار الخوارزمية في داخل الفرات إلى غزّة واتفقوا مع الملك الصالح أيوب صاحب مصر على السير نحو دمشق، فاستنجد صاحبها الصالح اسماعيل بالفرنج وبابراهيم صاحب حمص وبالناصر داود صاحب الكرك ثمّ التقت جيوش الطرفين في ظاهر غزة حيث انتصرت الخوارزمية والمصريون على جيوش الشام واستولى الصالح أيوب على غزة وسواحلها والقدس أيضاً.

ثمّ زحف المصريون والخوارزمية على دمشق لانتزاعها من الصالح اسماعيل (١٢٤٥م) وحاصروها حصاراً شديداً طوال خمسة أشهر، حتى هلك الكثير من أهلها جوعاً ومرضاً، واستشرى الغلاء الفاحش حتى باع الناس أملاكهم بأبخس الأثمان وأكل البعض جثث الموتى المنتشرة في كلّ مكان. ثمّ دخل المحاصرون إلى دمشق وولّي عليها الملك الصالح أيوب، وأعطى الملك اسماعيل بعلبك والبصرى والسودي بديلاً، في وقت أمعن الخوارزمية في استباحة بلاد الشام نهباً وسبياً وتدميراً وتخريباً، وقتلوا النصارى والمسلمين، وانتقلوا إلى القدس وعسقلان حيث ظفروا بجنود الفرنج وأوقعوا فيهم مقتلة كبيرة وكذلك في سكان القدس، فيما كانت جيوشهم تنزل قرب نهر الأردن وهم يعيثون فساداً وشرّاً في كلّ أنحاء بلاد الشام، وإنطاكية...

عن هذه الحقبة المظلمة من التاريخ ورد في بعض الكتب أنّه في زمن البطريرك سمعان الذي كان

على كرسي إنطاكية والمطران سمعان في كرسي جبل لبنان زحف من الشرق شعب شرير سُمّي «كورج غتمية» سبا مدينة قورش والعديد من البلدان ودخلوا إلى مصر وأهلكوا أعداداً كبيرة من النصارى والمسلمين وباقي الأمم وخرّبوا مدينة القدس وقتلوا كلّ مَن كان فيها، واصطدموا بالفرنج قرب مدينة عسقلان حيث دار قتالٌ شديد هُزم بنتيجته الفرنج واستولى هؤلاء على كلّ ما كانوا يملكونه وقتلوا منهم الكثيرين.

وعلى الأثر سادت أجواء الرعب والخوف نواحي يهوذا وفلسطين ودمشق وبعلبك وطرابلس وحمص، وصولاً إلى إنطاكية، ما أوقع هذه المناطق تحت وطأة الغلاء والحاجة الشديدين، وانتشرت عمليات السطو والسرقة، خصوصاً على الحنطة والمواد الغذائيّة الأساسيّة...

وسط هذه الأجواء (١٢٤٦م) اتفق الخوارزمية مع الملك الصالح اسماعيل والناصر داود صاحب الكرك وزحف الجميع نحو دمشق، فاستنجد الصالح أيوب بعسكر الحلبيين والملك المنصور ابراهيم صاحب حمص، والتحمت الجيوش في معركة طاحنة انتهت بهزيمة ساحقة للخوارزمية الذين قُتل مقدّمهم حسام الدين بركة خان وتشتّت شملهم. وبادر الملك الصالح أيوب إلى تسليم دمشق لحسام الدين بن أبي علي الهزباني ليبقيها إلى جانب مصر، ثمّ أخذ بصرى وصرخد والصبيبة وأعاد إعمار أسوار القدس، قبل أن يعود إلى مصر. ثم استجار الصالح اسماعيل بالناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب، لكن حسام الدين حافظ دمشق حاصر بعلبك وقبض على أولاد الصالح اسماعيل وأخذهم إلى مصر وسلّمهم إلى الصالح أيوب الذي وضعهم قيد الاعتقال. وسيّر أيوب جيشاً من مصر إلى الكرك لأخذها فحاصرها وخرّب ضياعها، وأمسى الناصر داود ضعيفاً ولم يعد في يده سوى الكرك وحدها.

وفي السنة التالية اجتاح جيش الصالح أيوب عسقلان وطبرية وأخذهما من الفرنج على يد فخر الدين بن الشيخ، وفيها توفي الأمير عز الدين صاحب صرخد، والمظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل صاحب ميافرين وخلاط، وملك بعده ابنه الملك الكامل محمّد.

وحاصر صاحب حلب الملك الأشرف في حمص لمدّة شهرين فاستلم الأخير وأعطي عوضاً عنها تل باشر وتدمر والرحبة (١٢٤٨م).

وفي السنة ١٢٤٩م حلّ كبير ملوك الفرنج ملك فرنسا لويس في قبرص على رأس خمسين ألف مقاتل، فأمضى الشتاء في الجزيرة ثمّ توجّه نحو دمياط، التي كان الملك الصالح نجم الدين

أيوب قد حصّنها وزوّدها كميات كبيرة من الذخائر، وأحلّ فيها بني كنانة المعروفين بشجاعتهم وشدّة بأسهم. لكن هؤلاء فرّوا هاربين ما إن وصل الفرنج إلى برّ دمياط الغربي وأخلاها أهلها فدخلها الفرنج من دون عناء.

وفي هذه الأثناء كان السلطان الصالح أيوب في المنصورة القريبة من دمياط، فقبض على بني كنانة وشنقهم جميعاً وعددهم نحو ستين، قبل أن يتوفى بداء السلّ. ولمّا لم يكن له من وريث سوى ولده الملك المعظّم نورنشاه الذي كان آنذاك في حصن كيفا في ديار بكر، كتم الحجابون خبر موته خوفاً من أن يعرف الفرنج ذلك، فتولّت زوجة الصالح تزوير كتاب بخطّ يشبه خطّه تماماً وفيه أنّه، أي السلطان المتوفى، يأمر العسكر والأمراء بأن يقسموا يمين الولاء لابنه، ففعل هؤلاء من دون معرفة بموت سيّدهم، إلى أن عاد الملك المعظّم من ديار بكر حيث استقرّ له الحكم في الديار المصريّة. كذلك حصلت معركة عنيفة بين الفرنج والمسلمين على برّ المنصورة هُزم فيها جيش المسلمين. ووقعت الحرب بين صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ والملك الناصر صلاح الدين يوسف، فهُزم الأول واستولى الحلبيون على نصيبين ودارا وقرقيسيا، قبل أن يعودوا إلى مدينة حلب.

ولكن سرعان ما مني الفرنج بهزيمة كبيرة (١٢٥٠م) أمام جيوش المسلمين نتيجة انقطاع الإمدادات من دمياط إلى المنصورة حيث كان الفرنج الذين حاولوا التوجّه نحو دمياط فوقعوا تحت سيوف المسلمين، وقُتل منهم نحو ثلاثين ألفاً، وفق بعض المراجع، وأُسر فرنسيس الملك القديس لويس التاسع. ثمّ قُتل الملك المعظّم نورنشاه ابن الملك الصالح أيوب وانقرضت بموته السلالة الأيوبيّة. وقيل إنّه قُتل بسبب تهوّره واستكباره على أعيان المملكة واحتقارهم فتآمروا عليه وأطاحوا به. وعلى الأثر اجتمع الأمراء وأقاموا أم خليل شجر الدرّ زوجة الملك الصالح أيوب وكانت جارية تركيّة على السلطة، وعيّنوا عز الدين آيبك التركماني أتابك للعسكر في الديار المصريّة. ثمّ كتب الأمراء المصريون إلى الأمراء القيمريّة في دمشق عن الأوضاع التي حصلت في مصر فلم يجب هؤلاء، فكتبوا إلى الملك العزيز محمّد بن الملك الطاهر غازي، فسار إليهم في دمشق وخلع الأمراء القيمريّة، وأخضع بعلبك بعد عصيانها.

وأمّا الملك فرنسيس الفرنجي فظلّ أسيراً، إلى أن تدخّل في أمره الأمير حسام الدين، على أن يسلّم دمياط ويدفع خمسماية ألف دينار، فاستجابت شجر الدرّ والأمراء إلى ذلك، وساروا به إلى باب دمياط حيث علت أصوات المسلمين بالتكبير والتهليل من فوق أسوارها وأخلاها الفرنج،

وذهب الملك فرنسيس إلى عكا. أمّا شجر الدرّ فبعد إقامتها في السلطة أربعة أشهر تزوّجت المعز آيبك التركماني الجاشنكير الصالح، وجعلته نائباً لها في السلطة، وبات الأول بين ملوك الترك. ولكن بعد تنصيبه بأربعة أيام اجتمع الأمراء وقرّروا إقامة ملك من بني أيوب يجمع الكل على طاعته ووقع اختيارهم على مظفر الدين موسى بن الناصر يوسف ابن الملك المسعود ابن الملك الكامل، وكان عمره لا يتعدى السنين العشر، فأحضروه وعقدوا له السلطة ولقّبوه بالملك الأشرف، وجعلوا آيبك التركماني أتابكه سنداً له.

ولمّا بلغ خبر مقتل الملك المعظّم توران شاه في مصر إلى صاحب حلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب زحف على دمشق ودخلها، ثمّ استولى على قلعتها وعلى بعلبك وحماة وحمص وصرخد، وحاصر الديار المصريّة. وخرج لقتاله ركن الدين قاض ودارت معركة قاسية هُزم بنتيجتها الجيش المصري وخطب للملك الناصر في قلعة الجبل والقاهرة والأنحاء المصريّة، وطارد جيش الشام المصريين حتى الصعيد. لكن شرذمة من الهاربين التقت صدفة صاحب دمشق مع نفرٍ قليل من جماعته فهزمته، ثمّ رجعت الجيوش المصريّة وتواصلت مع الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل صاحب الكرك والشوبك وخطبوا له في مصر.

ولمّا شاهد الملك المعز آيبك ما يجري أمر بأن ينادى في مصر للخليفة المستعصم بالله وللملك المعز نائبه فيها (١٢٥٠م) فجدّدت العساكر الولاء للملك الأشرف وللمعز آيبك الأتابكية فرسخ المعز سلطانه. ويقول الدويهي إنّ ما حدث في هذه السنين هو من الغرائب التي لم يسمع بها، لأنّه بعد وفاة الصالح أيوب تسلطن المعظّم نورنشاه وتلته شجر الدرّ أم خليل، ثمّ المعز آيبك، ثمّ مظفر الدين، ثمّ الناصر يوسف، ثمّ المغيث عمر، ثمّ خليفة بغداد المستعصم بالله، فخطِب للجميع بأسمائهم في الجوامع المصريّة، كما ورد في «تاريخ الأزمنة» المطبوع.

وبعد سنة على هذه الحوادث (١٢٥١م) حشد الملك الناصر يوسف جيشه لاحتلال مصر، فتدخّل رسول الخليفة في بغداد لإقامة الصلح ما بين الناصر والمعز، على أن تكون الديار المصريّة للمعز وغزة والقدس وبلاد الشام والفرات للناصر، وتمّ الصلح على ذلك. ثمّ سعى الناصر إلى ترسيخ سلطته فولّى جمال الدين الكبير البحتري في بيروت على عرمون وعين درافيل وطردلا وسرحمور وعيناب وعين عنوب والدوير.

ثمّ إنّ الملك المعز آيبك خلع الملك الأشرف موسى ونقله من قلعة الجبل فكان هذا الأخير آخر

سلالة بني أيوب في مصر فزالت دولتهم عن الأقطار المصريّة (١٢٥٤م)، كما قتل رأس الأمراء أقطاي، فهرب سيف الدين بلبان الرشيدي وركن الدين بيبرس البندقداري، واحتموا بالملك الناصر صاحب دمشق، حيث راحوا يحضّونه على مهاجمة مصر وأخذها، فجهّز عليهم الملك توران شاه بن صلاح الدين الكبير جيشاً، فتوجّهوا إلى غزة. وفي هذه الأثناء تمّ الصلح على أن تكون بلاد الشام كلّها للملك الناصر وديار مصر للملك المعز، كما تحقّق الصلح بين الناصر والفرنج في عكا والساحل لمدّة عشر سنين.

غير أنّ الملك المعز آيبك بن عبداللّه التركماني قرّر الزواج من بنت بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، واستاءت من هذا القرار زوجته شجر الدرّ المصريّة، ولمّا دخل إلى الحمّام في داره انقضّ عليه خدمه وخنقوه (١٢٥٧م). ثمّ أجمعت الكلمة على إقامة ابنه نور الدين علي الذي لقّبوه بالملك المنصور وهو الثاني من ملوك الترك على الديار المصريّة، وتمّت الخطابة أولاً للخليفة المعتصم في مصر والقاهرة، ثمّ للمنصور نور الدين، وبعدهما للأتابك علم الدين سنجر الحلبي، وأمر المنصور بصلب كلّ الخدم الذين قتلوا والده، ثمّ وُجدت شجر الدرّ مقتولة خارج قلعة المعز.

وفي السياق كتب الدويهي أنّه في السنة ١٢٥٥م كاتب البطرك سمعان البابا اسكندر الرابع يبارك له في ارتقائه الرئاسة المقدّسة وأقسم بالخضوع والطاعة له، وسأله إرسال درع اكتمال الرئاسة، فاستجاب له البابا، ولا يزال الكتاب والدرع محفوظَين في قنوبين.

الفصل التاسع

إنقراض الدولة العباسيّة في بغداد وقيام التتر والأكراد

في هذه الأثناء، ونتيجة الحروب المتلاحقة التي خاضتها الدولة العباسيّة في بلادي الشام ومصر، ومع مطلع السنة ١٢٥٨م، وصل التتر إلى بغداد بقيادة ملكهم هولاكو خان بن جنكيزخان وكانت أعدادهم لا تحصى، وكانت تدعمهم عساكر من الروم والأكراد ومن الموصل، فأحاطوا بعسكر بغداد وعملوا السيف بها ودخلوها وأمعنوا فيها قتلاً وتخريباً وسبياً للحريم ونهب الأموال والممتلكات.

وكان أول مَن قتلوه المستعصم بالله في الرفس التي أبادوا كلّ مَن كان فيها من الأشراف ولم يسلم سوى الأطفال بعدما استمرّ القتل في بغداد لأربعين يوماً، وقيل إنّ عدد الضحايا بلغ ألف ألف وثمانماية ألف قتيل. ومع هرب بني العباس انقطعت الخلافة العباسيّة في بغداد، ثمّ نودي بالأمان، وبمقتل المعتصم الذي تولّى الخلافة نحو ستة عشر عاماً، انتهت خلافة العباسيين بعد ٥٢٤ سنة، وثلاثين خليفة، أوّلهم أبو عباس السفاح عبدالله، وبعد ذلك بقليل مات الملك الناصر داود. ولمّا علم الملك الناصر صاحب دمشق بدخول التتر إلى بغداد أرسل ولده ومعه تحف وهدايا إلى الملك هولاكو تجنّباً للمواجهة معه.

وفي تلك السنة حاصر ابن هولاكو ميافرين لنحو سنتين ثمّ فتحها وقتل صاحبها الملك الكامل بن شهاب الدين غازي، وفعل فيها جيشه كما فعل في بغداد من قتل وسبي وتخريب.

وحدث (١٢٥٨م) أن قبض سيف الدين قطز، الذي كان مملوكاً لدى الملك المعز آيبك، على ابن أستاذه الملك المنصور نور الدين وخلعه عن السلطة واستقرّ هو على الديار المصريّة ولُقّب بالملك المظفّر، الثالث بين ملوك الترك. وطلب الناصر يوسف ملك دمشق نجدة الملك المنصور على التتر الذين كانوا زاحفين في طريقهم على بلاد الشام. ثمّ وصل هولاكو إلى شرقي الفرات وملك حران وبلاد الجزيرة، ودفع بابنه بشموط إلى دمشق، وتقدّم إلى ظاهر حلب التي كان حاكمها الملك المعظّم توران شاه بن السلطان صلاح الدين يوسف نيابة عن ابن أخيه الملك الناصر، وكتب

إليه هولاكو قائلاً: «أنتم تضعفون عنّا ونحن قصدنا سلطانكم الملك الناصر، فاجعلوا لنا عندكم شحنة بالقلعة وأخرى بالبلد. فإن انتصر سلطانكم فاقتلوا الشحنتين (الرهائن) وإن انتصرنا فحلب والشام كلّه لنا». لكن نورنشاه رفض هذا العرض وخرجت عساكر حلب ومصر إلى القتال قرب بانقوسا، فهرب بعضٌ من التتر أمامهم، فيما كمن لهم بعضٌ آخر، وعادوا عليهم فهربوا نحو المدينة فيما كان التتر يعملون بهم السيف حتى دخلوا البلد، قبل أن يعودوا إلى عزاز ويأخذوها بالأمان.

ولمّا بلغ الأمر إلى الملك الناصر سار من دمشق إلى برزه، وانضمّ إليه الملك المنصور صاحب حماة وعددٌ كبير من العساكر. ولمّا شرعوا بالمسير قصد بعض المماليك قتل الناصر، لكي يولوا مكانه أخاه الملك الظاهر غازي، فدبّ الخوف فيهم، فاحتلّ هولاكو البيره، وعثر فيها على الملك السعيد بن العزيز بن العادل الذي كان الناصر قد اعتقله مدّة تسع سنين هناك، فحرّره هولاكو ووعده ببانياس وقلعتها المعروفة بالصبيبة وكلّ البلاد التي كانت له ولأبيه من الشام.

وضع هولاكو حلب أمام عينيه فشنّ عليها حملة على حين غرّة وأقام الحصار ونصب عشرين منجنيقاً، فسقطت في يده في اليوم الثامن فدخلها وفتك بأهلها، وقيل إنّ خيول التتر كانت تسير على جثث القتلى الذين ملأوا الشوارع وبلغ عددهم نحو مئة ألف بينهم بنات الملوك والأمراء وأعيان المدينة، وتمّ بيع بعضهم في بلاد الفرنج والأرمن والجزائر... وبعد خمسة أيام من القتل والنهب والتدمير والسبي وإحراق المتاجر نودي بالأمان، ثمّ أحاطوا بالقلعة وحاصروها حصاراً خانقاً فاستسلمت لهم وغنموا كلّ ما كان فيها من الذخائر، وأسروا أولاد الملك الناصر وأمهاتهم وأقاربه وجواريه، وخرّبوا القلعة ودكّوا أسوار المدينة. لكن لم يتم قتل الملك توران شاه بسبب كونه شيخاً كبيراً في السن، لكنه قضى بعد أيام قليلة.

وأمّا الملك الناصر صاحب دمشق فقد ذُهِلَ لدى علمه بسقوط حلب الشديدة التحصين، ولم يجد أمامه حيلة سوى الذهاب مع أسراه وذخائره ونسائه إلى مصر رغم الشتاء والبرد، حيث تشرّد الجمع وفرّت الجمال وسطا مسلّحون على القافلة وسرقوا ما طالته أيديهم، فانتهت مملكة الناصر في دمشق وحلب والجزيرة.

كذلك حذا الملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب حماة حذو الملك الناصر فمضى بأولاده وحريمه وأمواله، وآلت مفاتيح المدينة إلى هولاكو وهو بعد في حلب، لكنّه رفض تملّكها. وتحت

وطأة الخوف والرعب ممّا أقدم عليه هولاكو سارع أعيان دمشق إلى تسلّم مدينتهم، فبعث هولاكو بنائبه وجماعة من التتر إليهم، فأوصاهم هولاكو بمعاملتهم بالحسنى، فاستقبلهم الأعيان ومعهم مفاتيح دمشق التي بعثوا بها إلى هولاكو. وأمّا القلعة فتمرّدت فحاصرها التتر وقصفوها بالمنجنيق فسقط برجها وطلب أهلها الأمان، فدخلها نائب التتر واستقرّ فيها.

إلاّ أنّ هولاكو تلقّى نبأ خلاف نشب بين أخويه قيلاي وأربيكا اللذين اقتتلا في القانية، فسارع بالعودة من حلب إلى بلاد العجم، وأرسل كتبوغا ومعه جيش كبير إلى دمشق والشام فملك هذا قلعة بعلبك وأخذ نابلس وغير بالسيف. ولمّا بلغ الأمر إلى الملك الناصر والأمراء الذين كانوا معه في غزة في انتظار وصول النجدة إليهم من مصر، أخذهم الخوف فساروا إلى الرمل ووصلوا إلى قطيا، ومن هناك أرسل الناصر زوجته وأولاده وجواريه إلى مصر. لذلك راودت المخاوف قطز صاحب مصر من دخول الملك الناصر وعسكره إلى الرمل من أن تكون وراء ذلك مؤامرة لامتلاك الديار المصريّة. وخشي الملك أن يقبض عليه قطز، فسار مع أخيه الظاهر غازي والملك الصالح بن شيركوه ومَن معهم إلى إحدى جهات بني إسرائيل. ثمّ استولى التتر على غزة وسائر بلاد الشام وخرّبوا قلعة بعلبك وقلعة عجلون، وبسطوا سيطرتهم على البلاد بأسرها، ما خلا بلاد الفرنج الذين لم يعترضوا طريقهم، كما أرسلوا تحفاً وخدماً إلى هولاكو فهادنهم لكنّه أمرهم بهدم كلّ الأسوار والقلاع والحصون التي في يدهم، إلاّ أنهم لم يهدموا شيئاً.

وفي هذه الأثناء انتشرت النصرانيّة في بلاد الشام ورُفع الصليب في دمشق ونادت الجموع «ظهر الدين الصحيح، دين المسيح».

أمّا كتبوغا فعرف بمكان الملك الناصر فقبض عليه وأرسله إلى هولاكو الذي أكرمه ووعده بإعادة مملكته إليه. غير أنّ السلطان المظفّر قطز صاحب مصر جمع جيوشه ومَن جاءه من جيوش الشام والتركمان والشهرزورية لمواجهة التتر وسار بهم من مصر، فالتقاه كتبوغا والتحم الجيشان في عين جالوت من أرض كنعان قرب بيسان، حيث دار بينهما قتالٌ شديد، ووقعت الهزيمة على التتر وقُتل كتبوغا وعساكره وأُسر ابنه، وفرّ مَن سلم إلى قمم الجبال فلاحقهم العسكر وأبادهم جميعاً، أمّا الذين فرّوا شرقاً فطاردهم بيبرس البندقداري وقتل معظمهم وأسر الباقين. وكانت هذه أول هزيمة تلمّ بالتتر منذ خروجهم من بلاد الشرق.

ثمّ أمسك الملك قطز الملك سعيد صاحب الصبيبة وبانياس، وقتل نورنشاه نائب حلب وآخر أبناء

الملك الناصر وأمر بضرب عنقه. ثمّ قبض على الملك الأشرف موسى صاحب حماة فأكرمه وثبّته على حمص وأحسن إلى صاحب حماة وأمَره عليها وعلى بارين والمعرة. ثمّ سار إلى دمشق فقتل مَن كان فيها من التتر، وثار العوام على النصارى في دمشق وقتلوا منهم جماعة كبيرة ونهبوا دورهم وذخائرهم وأحرقوا كنيسة السيّدة مريم ودمّروا باقي الكنائس. وكانت مدّة استيلاء التتر على دمشق وبلاد الشام نحو ثمانية أشهر، وسيطروا على كلّ الشامات من الفرات إلى مصر.

وعندما بلغ الأمر إلى هولاكو أمر بقتل الملك الناصر فعُلّق بأطرافه الأربعة في أعالي أشجار أربع مربوطاً بالحبال، ثمّ قطعوها فتمزّق جسد الناصر الذي كان حكمه لدمشق والجزيرة عادلاً واستمرّ نحواً من عشر سنين، لتزول بعده مملكة الأيوبيين في مصر والشام.

وعزا بعض المؤرّخين التطوّرات التي شهدتها هذه الحقبة من الزمن، لاسيّما دخول التتر، إلى فساد الخليفة المستعصم باللّه وقيامه بأمور تتنافى ومقام الخليفة، خصوصاً رفضه طلب هولاكو تزويج ابنته إلى ابن المستعصم.

وقلّما يحمل التاريخ مفارقات على غرار أنّ أول بني أميّة هو معاوية وآخرهم اسمه معاوية، وآل أبي العاص أوّلهم مروان وآخرهم مروان، وخلفاء بني العباس في العراق أولهم وآخرهم اسماهما عبداللّه، وكذلك الفاطميون أولهم وآخرهم عبداللّه، وأول ملوك بني أيوب اسمه صلاح الدين يوسف وآخره كذلك.

وأمّا الملك المظفّر قطز بعدما انتصر على التتر ورتّب شؤون مملكته، فقد وثب عليه بكتوت الجوكنداري المغربي وضربه بالسيف على كتفه ثمّ رماه بهارد المعزي بسهم قضى عليه، وكانت مدّة خلافته أحد عشر شهراً، وحلّ بعده ركن الدين بيبرس البندقداري الصالح الذي لُقّب أولاً بالقاهر ثمّ بالملك الظاهر، الرابع من الملوك الترك في الديار المصريّة.

وفي هذه الأثناء شرع الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب السلطنة في دمشق ببناء قلعة دمشق التي عمل بها الصنّاع والخبراء والرجال وحتى النساء، وحلّفهم في نهايتها أن يقسموا له يمين الولاء ولُقّب بالملك المجاهد وخطب له في دمشق وسكت باسمه العملة. لكن صاحب حماة رفض موالاته، بذريعة أنّه مع مَن تملّك مصر. وفي تلك السنة قبض العسكر على الملك السعيد الذي كان نائباً لقطز في حلب بسبب فساده، إلى أن ملك التتر المدينة.

حيال اتساع نفوذ التتر وحروبهم في الديار الشاميّة والمصريّة، ووصول جيوشهم إلى قرب حماة

(١٢٦٠م) تصدّى لهم صاحب حماة والأشرف صاحب حمص، وخاض جيشاهما مع جيش التتر معارك شرسة فانتصرا عليه وقتلا وأسرا الكثيرين منه.

وفي تلك السنة سار الملك الظاهر بيبرس، ومعه علاء الدين البندقداري أستاذه، لقتال سنجر الحلبي صاحب دمشق ودارت المعركة في ظاهر المدينة، فهرب سنجر إلى قلعة بعلبك وتحصّن فيها، فحاصراه وتمكّنا من اعتقاله واقتياده إلى مصر، قبل أن يتمّ إطلاقه في ما بعد.

وهكذا استقرّت دمشق للظاهر وخطب له فيها وفي حماة وحلب وحمص وغيرها، فيما استقرّ البندقداري الصالح في دمشق لتدبير شؤونها.

ثمّ في السنة التالية قدم إلى مصر أبو العباس أحمد واحتفل الملك الظاهر بلقائه وأحلّه في البرج الكبير داخل القلعة وبويع له بالخلافة، وتكنّى بالحاكم بأمر اللّه في حضرة السلطان وأعيان البلاد. ودخل الملك الظاهر البيره وتسلّم الكرك من الملك المغيث ثمّ أعدمه، وهدم الظاهر كنيسة الناصرة وأغار على عكا وخرّب أبراجها. ثمّ توجّه من الديار المصريّة إلى الجهاد ضدّ الفرنج في الساحل (١٢٦٤م) ففتح قيسارية الشام وهدمها وفتح أرسون، وأقام ابنه الملك السعيد سلطاناً على المنطقة.

وفي السنة ١٢٦٥م زحف الملك الظاهر بجيوشه على الشام، كما جرّد حملة على ساحل طرابلس، ففتح القليعات وعرقا، ونزل إلى صفد وحاصرها ثمّ فتحها وقتل أهلها جميعاً، بعد حصار للفرنج مدّة أربعين يوماً. ولمّا همّ الظاهر بالعودة إلى مصر، جفل به حصانه فسقط وكُسرت ساقه، ثمّ أمر بنهب قارا فاستباحها العسكر وهي تقع ما بين دمشق وحمص لأنّ أهلها كانوا من النصارى وأخذ أولادهم مماليك حيث تربّوا بين الترك في مصر.

وفي تلك السنة توفي صاحب المغل هولاكو بن جنكيزهان، الذي قهر الأمم في فارس وخراسان والري وأصبهان وقم وقاشان والعراق وبغداد والموصل والجزيرة وديار بكر وحلب، وكان ذا سطوة وبأس وخبرة في الحرب، وقام على الملك بعده ابنه أبغا.

ثمّ غزا الملك الظاهر يافا (١٢٦٧م) وهدمها واحتلّ الباشوره بالسيف، وسار إلى قلعة الشقيف حيث نزل في وادي العواميد وأقام عليها الحصار، لكنّه وجد القلعة حصينة جداً ولم يتمكّن من دخولها رغم محاولات عدّة. وقيل إنّه عمد إلى ذبح حيوانات ورمي دملها في المياه التي في القلعة فنتن الماء واضطُرّ مَن فيها إلى تسليمها. وقد أرسل ما كان في داخلها إلى دمشق وأقام عليها

أناس وأطلق على القلعة اسم حصن الشقيف تيرون، أي الرجل الذي بناها، وهي لا تبعد كثيراً عن قلعة أرنون.

ثمّ أغار السلطان على بلاد طرابلس وقطع أشجارها وخرّب قراها، وحاصر حصن الأكراد فيها، وغزا إنطاكية على حين غرّة وافتتحها في خلال أربعة أيام وقتل الكثيرين من أهلها واستولى على كلّ غنائمها وأموالها. وكان البرنس مقيماً في طرابلس عندما تمّ فتح إنطاكية، فقُدّر عدد القتلى في واقعة إنطاكية بأربعين ألفاً.

إستمرّت الحروب في بلاد الشام والديار المصريّة ما بين كرٍّ وفرّ حتى السنة ١٢٦٩م، عندما هاجم الملك الظاهر الحصون الإسماعيليّة أي الكهف والقدموس والمنينة والقليعة، وأسر من الاسماعيليّة نجم الدين حسن بن المشغراني وفرض عليه حمل ماية ألف درهم سنوياً، علماً أنّ المشغراني هو من بلدة مشغرة في سفح جبل لبنان. ثمّ احتلّ حصون الأكراد، وجهّز المراكب لفتح قبرص، لكن الفرنج أسروها مع مَن على متنها. لكن الظاهر توجّه إلى عسقلان وهدم سورها واستولى على كميّة كبيرة من الذهب كانت في داخلها، ثمّ ملك حصون عكار، قبل أن ينزل إلى طرابلس ويعقد الصلح مع صاحبها.

وفي السنة ١٢٧١م وصل السلطان بيبرس بجيشه إلى الشام وتمركز ما بين قيسارية وأرسون، فتوجّه إليه رسل يطلبون المهادنة والصلح، فتقرّرت الهدنة لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، وعادوا إلى مصر. ولكن بعد نحو ثلاث سنوات على الهدنة قامت جحافل كبيرة من التتر بزرع الفوضى في بلاد الشام مطالبين الملك بأن يكون تحت طاعتهم، فتوجّه السلطان إليهم في البيرة وقاتلهم حتى هزمهم وغزا سيس وأياس وأدنة والمصّيصة وفتح حصن القصير ما بين حارم وإنطاكية.

وعلى الأثر أمر البابا غريغوريوس بعقد المجمع الثاني في مدينة لوغدون (ليون) في فرنسا داعياً إلى نجدة أرض القدس.

لكن الملك الظاهر استمرّ في غزواته لبلاد الروم وحارب التتر وهزمهم، وقتل منهم الكثيرين وأسر آخرين، ثمّ فتح قيسارية وقلونية، ليعود التتر بعد جلائه عنها إليها وينهبوها.

إلاّ أنّ الموت لم يمهل الملك الظاهر طويلاً إذ وافته المنيّة في العام ١٢٧٧م، وصادف موته مع كسوف للقمر ما حمل العامة على الاعتقاد بأنّ الكسوف حصل بسبب وفاة ذلك الملك العظيم.

وقيل إنّ الظاهر ركن الدين بيبرس توفي مسموماً، بعد ملك لسبعة عشر عاماً، ونُقل جثمانه سرّاً من دمشق إلى القاهرة حيث ولده الملك السعيد بن الملك الظاهر الذي بات الخامس في الملوك على الديار المصريّة.

وفي السنة ١٢٧٨م أحرق عسكر الشام بلاد الغرب وجبل بيروت، كما توجّه العساكر العربان من ولاية بعلبك والبقاعين وبيروت إلى الغرب لجهة قطب الدين السعدي الذي استقطع قرية كفرعميه من أمراء الغرب آل تنوخ وقُتل فيها على يد نجم الدين محمّد بن حجي الذي كان الملك الظاهر قد زجّ معظم أقاربه في السجن، قبل أن يأتي الملك السعيد ويأمر بتحريرهم.

وتميّزت السنة ١٢٧٩م بنشوب الخلافات بين طوائف الفرنج والتتر والعرب والفلاحين وبين الفرنج وصاحب طرابلس وبين الأخير وصاحب جبيل والزاوية... وامتدّ الخلاف إلى داخل عسكر الملك السعيد ما أدى إلى خلعه ومحاصرته في قلعة في مصر. وبعد الملك السعيد الذي توفي في مصر نصّب أخوه الملك العادل بدر الدين سلامش وعمره سبع سنين، ومعه أتابك العسكر الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي، على الديار المصريّة، كما انتفض أمراء دمشق وقبضوا على نائبها عز الدين ايدمر الظاهري وخلعوه وأقاموا محلّه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر على نيابة دمشق، والأمير اقوش الشمس نائباً على حلب. ثمّ لم يلبث الأمراء أن قاموا وخلعوا الملك العادل سلامش، وأحلّوا مكانه الملك المنصور قلاوون الصالحي الأتابكي الذي بات السابع من ملوك الترك على الديار المصريّة.

كذلك أقيم على الكرك نجم الدين قطز ابن الملك الظاهر ولُقّب بالملك المسعود، كما بات سنقر الأشقر ملكاً على دمشق ولُقّب بالملك الكامل.

ثمّ إنّ السلطان قلاوون أعدّ جيشاً مصرياً لمحاربة سنقر الأشقر والمقدّم علم الدين سنجر، فاستنفر الأشقر أهل البلاد من المسلمين والعربان وقطع كلّ الجسور المحيطة بدمشق، وتواجه الجيشان خارج المدينة فهزم عسكر الشام وتقهقر الأشقر إلى حمص ومعه إبن مينا وعيسى بن مهنا الحيارى، وكان ذلك في السنة ١٢٨٠م. وأمّا جيش مصر فدخل القلعة وقبض على أنصار سنقر الأشقر، لكن مرسوماً صدر عن السلطان عفا فيه عن الجميع وأقام على دمشق بكتوت العلاي، ثمّ آلت نيابة دمشق إلى حسام الدين لاجين، فيما استقرّ الأشقر في قلعة صهيون وما جاورها، حيث وقع الصلح مع السلطان قلاوون على أن تكون له كفرطاب وإنطاكية وفامية

والشغر وبقاس وصهيون وبلاطنس وبرزية وجبلة واللاذقية والسويدية ودركوش، ويقيم عليها ستمئة فارس، كما جاء في وثيقة الصلح. وهكذا دخل سنقر تحت طاعة السلطان الذي عفا عنه. أمّا الأشقر فسارع إلى طلب النجدة من التتر وملكهم أبغا، وجاءت أخبار عن أنّ التتر قصدوا الشام فدبّ الرعب في أهالي حلب وحماه وحمص والأقطار الشاميّة الذين فرّوا إلى نواحي دمشق وبعلبك.

لكن بدا واضحاً أنّ التتر مصرّون على المزيد من الاجتياحات وزرع التدمير والنهب والحرق والسبي، إذ هاجم بايدوين بن طوغاي بن هولاكو حلب وأحرق جامعها وأشاع الخراب والفساد فيها ليومين، ثمّ بلغه أنّ الملك قلاوون وصل بجيشه إلى غزة ورحل السلطان إلى الديار المصريّة، وكتب إلى سنقر الأشقر بالهدنة والتحالف ضد التتر لئلاّ يهلك الإسلام إذا ما ظلّوا متفرّقين، فتمّ الاتفاق واستطاعوا إجلاء العدو عن الشام. ثمّ في السنة ١٢٨١م حصلت المواجهة الكبرى بين التتر والمسلمين عندما اجتاز أبغا بن هولاكو على رأس جيش من ثمانين ألف مقاتل من التتر والكرج والأرمن والعجم نهر الفرات، وخرج السلطان قلاوون من مصر إلى روحا على الساحل قرب عكا حيث انضمّت إليه الجيوش المصريّة والشاميّة. ولكي يأمن قلاوون جانب الفرنج قبل معركته مع التتر، عمد إلى تجديد الهدنة معهم، وخرج بجيشه إلى شيزر والتقى الجيشان في ظاهر حمص شمالاً. وكان عسكر السلطان يقارب الخمسين ألفاً فيما عسكر التتر ينوف عن ثمانين ألفاً، والتحم الجيشان نهاراً بكامله، فجُرح مونيكا تمورا بن ملك التتر بيد حسام الدين لاجين نائب دمشق، وسرعان ما دبّت الفوضى في جيشه الذي فرّ من أرض المعركة فطارده المسلمون وعملوا في عسكره قتلاً وأسراً، قبل أن يعود السلطان منتصراً إلى دمشق، ورجع سنقر الأشقر إلى صهيون وعسكر حلب إليها، وولّى السلطان مملوكه شمس الدين قرا سنقر نيابة حلب، وانتقل إلى الديار المصريّة. كذلك توفي أبغا بن هولاكو في همزان وملك بعده الملك أحمد أحد فرسانه.

وجاء في بعض المراجع أنّه في السنة ١٢٨٣م هاجمت الجيوش الإسلاميّة جبّة بشري وتقدّمت إلى إهدن (وفق شحيمة وُجدت في دير مار آبون) في قطين، وتمّ حصار إهدن حتى دخلها المسلمون ونهبوا وقتلوا وسبوا، ثمّ دكّوا قلعتها وهدموا حصنها، وانتقلوا إلى بقوفا واعتقلوا أعيانها وأحرقوهم جميعاً في منازلهم وسوّوا بيوتها بالأرض. وقيل إنّ ذلك حصل انتقاماً من تعاون هذه

المناطق مع الفرنج في حربهم على المسلمين.
ثمّ أكمل المسلمون زحفهم إلى الحدث ومغارة العاصي فحاصروها لسبع سنين ودخلوها بالأمان، لكنهم أحرقوا إمارتها وقتلوا وسبوا النساء، وكان يسكن دير مار يوحنا المعروف بمار آبون المطران ابراهيم الحدثي حيث تُحفظ شحيمتان تؤرخان لهذه الحوادث في تلك الحقبة. وقيل إنّ برج حوقا أعجز جيش المسلمين واستحال عليهم أخذه، لكن ابن الصبحا من كفرصغاب نصحهم بجرّ نبع بشري وتسليطه عليه فتمكّنوا من دخول البرج بقوّة المياه فكوفئ الصبحا بالسماح له بارتداء لباس الباشا واقتناء العبيد، لكنه عاد وندم على فعلته فكفّر عن خطيئته بأن أعاد إعمار دير حوقا قرب البرج وجعله مقرّاً للرهبان، فيما تقاسم أهالي تلك المناطق مياه النبع.
ثمّ نكبت دمشق (١٢٨٣م) بأن ضربها سيلٌ عظيم غطّى جسورها ودمّر الكثير من منازلها وأغرق خلقاً كثيراً من سكانها وحيوانها، وكان عسكر السلطان سيف الدين قلاوون مقيماً بقرى من بردى فهلك منه ومن خيوله كثيرون. وبعد سنة توفي الملك المنصور محمّد بن المظفر الأيوبي صاحب حماة، وملك بعده ابنه المظفر. ثمّ توفي أحمد بن هولاكو بن تولي بن جنكيزخان صاحب خرسان وأذربيجان والروم والعراق الذي اعتنق الإسلام وهو صبي بعد، ولمّا توفي أبغا ومنكوعمر ولدا هولاكو وتولّى هو السلطان طلب من قلاوون الصلح، قبل أن يقتله أبو غازان ابن أرغون بن أبغا ويملك بعده.
السنة ١٢٨٥م وصل السلطان قلاوون إلى دمشق وحشد الجيوش المصريّة والشاميّة وقصد المرقب في لبنان، الذي كان في أيدي الفرنج وفي غاية التحصين، فحاصره وصبّ عليه المنجنيق حتى أحدث ثغرة كبيرة في سوره، ودخله فطلب مَن فيه الأمان فأعطاهم إيّاه حرصاً على عدم تخريب الحصن، وسمح لهم بمغادرته بما يحملون غير السلاح. ثمّ جهّز السلطان (١٢٨٦م) مع الأمير حسام الدين جيشاً لمهاجمة الكرك، فحاصراها وتسلّماها سلماً من صاحبها جمال الدين خضر وبدر الدين ولدي الملك الظاهر بيبرس، ثمّ أمر بسجنهما حتى توفيا. وفي السنة ١٢٨٧م توجّه حسام الدين طرنطاي نائب دمشق لقتال سنقر الأشقر فتسلّم حصن برزيّة بلا قتال وكذلك صهيون وأكرم صاحبها سنقر، ثمّ هاجم اللاذقية ودخل برجها بالأمان وهدمه.
وفي تلك السنة توفي البرنس صاحب طرابلس فاستغلّ السلطان قلاوون الأمر وهاجم المدينة بالجيش الشامي ونصب المنجنيق وشدّد الحصار عليها، فدار قتال لنحو ثلاثة وثلاثين يوماً حتى

فتحها بالسيف وقتل الكثيرين من أهلها ومعظم رجالاتها، ولم ينجُ من الفرنج سوى القلائل، وأمر السلطان بحرقها وهدمها، فهرب الناس من مينائها إلى الجزيرة التي تقوم عليها كنيسة سنطماس، وبعضهم وصلها سباحة والبعض الآخر على ظهور الخيل، وزال وجود الفرنج عن طرابلس بعد مئة وخمسة وثمانين عاماً.

وقيل إنّ الكسروانيين وأهالي الجرد الذين تحرّكوا لنجدة طرابلس، أمر حسام الدين لاجين نائب دمشق قرا سنقر بتوجيه حملة على هؤلاء لإبادتهم وأنّ مَن سبا إمرأة منهم كانت له جارية أو صبيّاً كان له مملوكاً ومَن أحضر رأساً من رؤوسهم فله دينار.

في السنة ١٢٨٩م بلغ السلطان أنّ الفرنج في عكا ثاروا وقتلوا مَن كان فيها من التجار المسلمين فغضب غضباً شديداً وجهّز جيشه لغزوها، وخرج بعد سنة من الديار المصريّة بجيشه نحوها، لكنّه توفي جرّاء مرض ألمّ به تاركاً خلفه ولدين، جلس أحدهما السلطان الملك الأشرف خليل على عرش السلطنة وكان الثامن من ملوك الترك في مصر. وقد فوّض الأشرف بدر الدين بيدر نيابة السلطة عوض حسام الدين طرنطاي الذي أهلكه، وتولّى الوزارة شمس الدين محمّد بن السلموس، وكان يقوم بنيابة السلطنة في دمشق حسام الدين لاجين، وقرا سنقر في حلب.

أمّا السنة ١٢٩١م فكانت سنة فتح المسلمين عكا، إذ جهّز الملك الأشرف خليل جيشه لغزوها والعديد من جيوش الإسلام ومَن انضمّ إليهم، فتمّ حصارها، بمساعدة جيش قبرص، لكن الفرنج تفوّقوا وثبتوا أقدامهم في عكا. إلاّ أنّ الملك المظفر صاحب حماة وعمّه الملك الأفضل أتيا بالمنجنيق الضخم المنقول على ماية عجلة رغم هبوط الثلج وتساقط المطر الغزير، ثمّ زحف الجيش على عكا وضربها بمختلف أدوات الحرب.

وعندما وصل المسلمون إلى أسوار المدينة هرب الفرنج عبر البحر، فدكّ الجيش الغازي الأسوار ودخلها وقتل مَن بقي فيها من فلول الفرنج، فيما أمر السلطان بهدم المدينة وتسويتها بالأرض، وهذا ما حصل.

ولمّا بلغ فرنج الساحل ما حلّ بعكا فرّوا هاربين وأخلوا صور فأمر السلطان بهدمها، لكن المسلمين في المدينة رفضوا إخلاءها وهدمها وثبتوا فيها، وعندئذ سار السلطان إلى دمشق وقبض على حسام الدين لاجين نائب السلطنة فيها وولّى مكانه علم الدين سنجر الشجاعي.

وبعد صور وجّه السلطان حملة من جيشه إلى صيدا وكان فيها قلعتان عظيمتان، واحدة جنوبيّة

والثانية شماليّة، ولها جزيرة في البحر قريبة منها، فدخلها المسلمون وخرّبوا المدينة والجزيرة والقلعتين. ثمّ سار علم الدين سنجر الشجاعي بالجيش نحو بيروت فأخذها بالخدعة وخلافاً للهدنة معها، وهدم أسوارها وقلعتها وطرد الفرنج منها.

بعد صور وصيدا سار الشجاعي إلى جبيل التي كانت تحت الطاعة، فأخرج الفرنج منها وهدمها ودكّ قلعتها. أمّا سكان عتليت فلمّا بلغهم ما حلّ بمدن الساحل، هربوا بحراً بعدما أضرموا النار في مدينتهم. أمّا أهالي انطرسوس فسلّموه إيّاها سلماً، وبذلك تمّ إخلاء بلدان الساحل من الفرنج الذين غادروا بلا قتال، بعدما كانوا سيطروا على بلاد الشام ومصر، فيما لجأ بعضهم إلى جبل لبنان وفرّ الباقون بحراً عائدين إلى بلادهم.

وفي السياق يقول الأسقف ابن القلاعي عن قصة كسروان إنّه كان والياً عليها الأمير حنا الماروني، ولمّا قويت شوكة المسلمين بعد فتح طرابلس، وموت البرنس وضعف الفرنج، طلب الهدنة من المسلمين، فدخلت كسروان بيت الطاعة. ثمّ أعدّ مراكب ليلاً حملت الناس وما أمكنهم نقله من متاع إلى قيصر وبعض بلاد النصارى، وقبل الاقلاع أضرم النار في كلّ نواحي بلاد جبيل، ولمّا وصلها جيش المسلمين دخلها من دون مقاومة.

ثمّ قرع أهالي الجبال المسيحيون الأجراس وطرحوا الصوت ورفعوا الصلبان، واجتمع ثلاثون مقدّماً، بينهم المقدّم خالد مقدّم مشمش، وسنان وأخوه سليمان مقدّما إيليج، وسعاده وسركين مقدّما لحفد، وعنتر مقدّم العاقورة، وبنيامين مقدّم حردين، ومقدّمون آخرون. وهكذا تمّ تجهيز ألفي مقاتل للسيطرة على الطرق من الفيدار، وألفين آخرين تمركزوا عند المدفون، وسار المقدّمون على رأس ثلاثين ألفاً، فعثروا على حميدان قائد عسكر المسلمين في طريقهم فقتلوه، ثمّ أبادوا جيشه عن بكرة أبيه بعدما وقع في أحد كمائنهم. ولمّا وصلت النجدة من الأكراد بهدف دعم المسلمين وقعت في أيدي العسكر في الفيدار وكان مصيرهم الموت ولم ينجُ منهم أحد، كما قُتل في هذه المواجهات بنيامين مقدّم حردين وغنم جيش المقدّمين الآخرين كميات كبيرة من السلاح والعتاد، وأربعة آلاف حصان، وعادوا إلى البترون. ومن البترون توجّه المقدّمون إلى معاد لاقتسام الغنائم وتوزيعها، فطمع مقدّم العاقورة عنتر بحصّة سواه ولم يمتثل لكلام البطريرك الذي كان يسكن في دير مار مارون في كفرحي، فألقى عليه الحرم، وتوفي بعد ثلاثة أيام، وعيّن البطريرك مقدّم بشري نقولا مقدّماً على جبّة بشري من أيطو إلى حردين. ولمّا شاع الخبر توجّه

نقولا إلى جبّة بشري فهرب منها الأراطقة وأدّب الخارجين على سلطة البطريرك وهابه المسلمون واطمأنّ أهالي جبل لبنان، ونشطت أعمال إقامة الأديار والكنائس طول أيام المقدّم نقولا.

ثمّ أمر الشجاعي نائب الشام بإعادة إعمار قلعة دمشق العظيمة فأنجز ذلك في خلال سبعة أشهر من السنة ١٢٩١م، كما أكمل إعمار قلعة حلب التي خرّبها هولاكو ملك التتر، فيما أطلق السلطان الأشرف خليل أسرى بيروت وعددهم نحو ستماية، كما أطلق سراح سنقر الأشقر والبيسري وسنقر الطويل، في وقت أذن الخليفة الحاكم بأمر اللّه العباسي بأخذ بغداد من أيدي التتر. ثمّ دخل الملك الأشرف خليل دمشق، وزحف منها إلى حلب ودخلها، وهاجم قلعة الروم بعد حصارها ما ينوف عن الشهر وفتحها بالسيف، قبل أن يعود إلى دمشق ويأمر بهدم قلعة الشوبك، وقفل عائداً إلى مصر. وفي تلك السنة أيضاً طرد المسلمون رهبان الفرنج من جبل صهيون، الذين عادوا إليه بعد اثنين وعشرين يوماً.

وتوفي الأمير عز الدين سنجر الحلبي (١٢٩٣م) الذي تسلّم السلطة بعد هولاكو ولُقّب بالملك المجاهد، بعدما سُجن طويلاً قبل أن يطلقه الملك الأشرف. وفي هذه السنة أنشأ سيف الدين بن الحاج ارقطاي المنصوري الناصري نائب السلطنة في طرابلس جسر نهر الكلب بالقرب من الجسر الذي كان أقامه دمتيانوس ملك روما قبل نحو ألف سنة، والذي أزال الصخور فاتحاً الطريق نحو بيروت، وفق لوحة قائمة على صخور نهر الكلب. يُذكر أنّ تسمية نهر الكلب جاءت بسبب أنّ المنطقة كانت مدخلاً لأهل الغرب الذين يأتون بمراكبهم لغزو سواحل الشام، حيث نُصبت قائمة من حجر على هيئة كلب فوق الجبل المشرف على البحر، وكان الرصّاد ينذرون أهل الساحل من هناك عندما يرون طلائع الغزو، وظلّت القائمة حتى الفتح العربي حيث زجّت في البحر، وقيل إنّ تجّاراً من الفرنج قطعوا رأس الصخرة الكلب وحملوه إلى البندقية.

وفي تلك السنة خرج الملك الأشرف إلى الصيد وليس معه سوى أمير سكار، فتآمر عليه بيدرا ولاجين وقتلاه وسميا بيدرا الملك القاهر وجاؤوا به لينصّبوه، فحمل عليه كُتبغا بمَن معه وقتلوه، واختفى لاجين، وكانت ولاية السلطان خليل الملك الأشرف بن المنصور قلاوون ثلاث سنين، وجلس مكانه في السلطنة أخوه السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمّد قلاوون. ثمّ لم يلبث الملك الناصر أن خُلع عن السلطة ليحلّ مكانه زين الدين كتبغا التركي المجلي المنصوري الذي لُقّب بالملك العادل.

وفي تلك السنة ضرب القحط الجائر والغلاء الفاحش الديار المصريّة حتى قيل إنّ الكثيرين أكلوا الجيف واستشرى الوباء ومات العديد جوعاً. كما امتدّ الغلاء إلى دمشق. وفيها دخل السلطان كتبغا إلى دمشق فرحّب به أهلها، وسار إلى نواحي حمص حيث اشترى قرية جوسية وهي خراب على طريق بعلبك من حمص وعمّرها، ثمّ عزل نائب الشام آيبك الحموي وأقام محلّه مملوكه سيف الدين عزلو عزلو.

وعندما عاد السلطان كتبغا من حمص إلى دمشق (١٢٩٦م)، وهمّ بالسفر إلى مصر مع حسام الدين لاجين النائب، ومعهما العسكر، ولمّا وصلوا إلى وادي فحمة انقضّ حسام وقتل بتخاص وبكتوت وهما جناحا كتبغا، فخاف السلطان على نفسه وولّى هارباً إلى دمشق وليس معه سوى خمسة مماليك، فاستقبله مملوكه عزلو نائبه فيها وأدخله إلى قلعتها. أمّا حسام الدين لاجين فتولّى إمرة الجيش والخزائن وأعلن استيلاءه على السلطة فتمّت مبايعته ودخل إلى مصر حيث استُقبل بالترحيب. ثمّ بعد ثلاثة عشر يوماً بلغت أخباره دمشق فعزل العادل كتبغا نفسه عن السلطة وطلب إلى لاجين الأمان، فأعطاه الأخير صرخد فسار إليها واستقرّ فيها. وأمّا لاجين فنزل في دهلقية فوضع عليه أمراؤها شروطاً أقسم على تنفيذها فبويع بالسلطة ولُقّب بالملك المنصور الحادي عشر من ملوك الترك في الديار المصريّة، وجعل نائبه في دمشق سيف الدين قبجق المنصوري وفي مصر مملوكه منكوتمر الحسامي وفي حلب مملوكه أيدغدي شقير، وأرسل الملك الناصر بن قلاوون من قلعة الجبل إلى الكرك.

لم يدم الملك طويلاً للملك المنصور لاجين، إذ (١٢٩٨م) ثار عليه جماعة من المماليك وقتلوه فيما كان يلعب الشطرنج وقتلوا نائبه منكوتمر، وجلس طبجق الأشرف مقدّم المماليك في كرسي النيابة. ثم هبّ الأمراء وقتلوا طبجق وأعادوا الملك الناصر محمّد قلاوون إلى السلطة، الذي سمّى سيف الدين سلار نائباً للسلطة في مصر، وفوّض نيابة دمشق إلى جمال الدين أقوش الأفرم، وقلّد الملك المظفّر محمود صاحب حماة السلطة على بلاده. وبعدما توفي الملك المظفّر محمود بن المنصور بن أيوب أعطى السلطان حماة لقرا سنقر، وسار الناصر إلى بلاد غزة وأقام فيها، في حين فرّ قبجق وبكتمر السلحدار ولحقا بملك التتر وأخبراه بما حصل فقرّر الزحف على بلاد الشام.

ولمّا علم قازان بن أرغون بن أبغا ملك التتر بالخلاف الناشب بين الأمراء والعسكر (١٢٩٩م)

زحف بجيشٍ عظيم من المغول ومَن معهم وعبر الفرات إلى بلاد حلب وحماة ووادي مجمع المروج، فخرج إليه السلطان محمّد قلاوون بجيش مصر والشام والعرب والتركمان، وتواجهت الجيوش في وادي الخازندار شرق حمص، فهُزم جيش السلطان وطارده العسكر التتري حتى البقاع وإلى الديار المصريّة، ودخل التتر دمشق وغزة والقدس وبلاد الكرك وسيطروا على كلّ بلاد الشام ما عدا قلعة دمشق التي حاصروها من دون التمكّن من إسقاطها. وكان الأمير سيف الدين ارغواش المنصوري قد حصّنها ولم يسلّمها، لكن التتر الذين دخلوا دمشق نكلوا بأهلها ونهبوا وسبوا وأحرقوا جامع العقبة وأسروا نحو أربعة آلاف شخص من الصالحية ونهبوا كلّ أموال دمشق التي استقرّوا فيها نحو أربعة أشهر. ثمّ رحل قازان عن دمشق حاملاً معه كلّ ما تمّ سلبه من الأموال والنفائس، قاصداً المرج، وتاركاً قبجق نائباً على شؤون دمشق. وأمّا السلطان محمّد قلاوون فعاد إلى مصر مهزوماً ومعه فلول الجيوش المصريّة والشاميّة الذين فقدوا كلّ ما كان في حوزتهم من السلاح والعتاد، ومعظم خيولهم... لكن السلطان فتح بيوت المال وأنفق على إعادة تسليح الجيش وتجهيزه المبالغ الطائلة، وخرج بجيشه إلى العريش، حيث كان الناس في حال ذهول، كما أقفلت دمشق أبوابها، ثمّ حصل الصلح بين الملك الناصر وسلار والجاشنكير، وبلغ الأمر إلى التتر فسارعوا إلى إخلاء الشام وساروا إلى البلاد الشرقيّة، وولّي سلار على العساكر الشاميّة وحلب وغيرها وولّي كتبغا المنصوري على نيابة حماة، قبل أن يعود سلار والجاشنكير بالجيش إلى الديار المصريّة.

أطلّت السنة ١٣٠٠م على بلاد الشام حاملةً معها موجة جديدة من التتر الذين عبروا نهر الفرات فارتبكت جيوش المسلمين وأخلت بلاد حلب إلى حماة، فيما اجتاح التتر بلاد سرمين والمعرّة وتيرين وعمقها، وراحوا ينهبون ويخرّبون ويعيثون الخوف والرعب في الناس. لذلك سار السلطان بجيشه من مصر والشام، إلى العوجا، لكن الأمطار والعواصف اشتدّت عليهم وأرغمتهم على التراجع إلى مصر، فخلا الجوّ للتتر لنحو ثلاثة أشهر راحوا خلالها يتنقّلون في بلاد حلب وينهبون ويقتلون ويسبون، ثمّ عادوا إلى بلادهم بغنائم كثيرة.

ولم يكن ذلك العام وبالاً فقط على المسلمين، بل طالت نكباته المسيحيين واليهود، إذ وفد وزير مغربي إلى الحج وأبدى استياءه من معاملة هؤلاء والسماح لهم بارتداء أفخر الملابس وركب البغال والخيول وتوظيفهم في الديوان بأعلى المناصب وحكمهم على رقاب المسلمين... فتأثّر

السلطان وكبار الأعيان في الدولة بهذا الكلام، وجمع المسلمون المسيحيين واليهود وقرّروا إبعادهم من مواقع السلطة ومن العمل لدى الأمراء إلاّ إن أسلموا، وإن غيّروا عمائمهم فيعتمر المسيحيون عمائم زرقاء واليهود صفراء وفق أوامر القائم ركن الدين الجاشنكير الذي أمر بقفل الكنائس في مصر والقاهرة، واضطُرّ البعض إلى إشهار إسلامهم، كما هُدمت دور كثيرة للنصارى واليهود، وامتدّت هذه الموجة من القمع إلى دمشق وغيرها.

واستمرّت الحال على هذا المنوال حتى توفي الخليفة أبو العباس أحمد الملقّب بالحاكم بأمر اللّه (١٣٠١م) وقام على الولاية ولده المستكفي باللّه أبو الربيع سليمان بعد ولاية أبيه التي دامت أربعين سنة وشهراً، الذي بدأت خلافته مع زحف جحافل الجراد على دمشق وترك حقولها يباساً.

ثمّ تمّ فتح جزيرة أرواد حيث قُتل نحو ألفين من الفرنج وأُسر خمسماية منهم أُخذوا إلى دمشق، لكن الفرنج نزلوا في الدامور بين صيدا وبيروت (١٣٠٢م) وفيها قتل فخر الدين عبد الحميد بن جمال الدين حجّي التنوخي من أمراء الغرب وأسر أخوه شمس الدين عبداللّه فاشتراه ناصر الدين الحسين بن خضر بثلاثة آلاف دينار سوريّة. وعلى الأثر اجتمع النواب جمال الدين أقوش الأفرم نائب دمشق، وسيف الدين اسندمر نائب طرابلس وشمس الدين سنقر المنصوري، وحشدوا جيوشهم وقدموا من الشام لقتال أهالي جرود كسروان، لكن مقدّمي الجبال وأنصارهم حاصروا هذه الجيوش من كلّ الجهات وقتلوا منهم أعداداً كبيرة وغنموا الكثير من السلاح والعتاد. وحدث في تلك الحقبة زلزال عنيف ضرب مصر والاسكندريّة وهدم الكثير من الجوامع والمآذن واجتاح منازل وأملاكاً وأغرق أناساً وحيوانات وجرفت الأمواج المراكب...

وبعد سنة هاجم عسكر من دمشق ومصر وقبجق بجيش من حماة وسندمر في عسكر من الساحل ونزل الجميع في تل حمدون وأسروا منها خلقاً كثيراً. وفيها توفي سلطان العراق قازان بن أرغون بن أبغا بن هولاكو مسموماً، وملك بعده أخوه كرنبا محمّد، فعاود التتر الكرّة بعبور نهر الفرات نحو دمشق فالتقوا جيش الشام قرب حماة حيث دارت رحى معارك عنيفة فهُزم جيش التتر، لكن جيش المسلمين مني بخسائر بشريّة فادحة أيضاً. ثمّ دارت معركة أخرى عند شقجب خارج دمشق وهُزم التتر فقصدوا الجبال، لكن المسلمين طاردوهم وقتلوا منهم أعداداً كبيرة ولاحقوهم حتى الفرات حيث غرق منهم كثيرون، وكانت هذه الواقعة من أعظم الحروب بعد

معركة عين جالوت التي هُزم فيها التتر. وقيل إنّه في هذه المواجهة التي خاضها مقدّم التتر خظلوشاه نائب قازان في حلب لم ينجُ من عسكره إلاّ الثلث، فعاد قازان من حلب إلى بغداد ووصل السلطان إلى دمشق ومعه الخليفة ظافراً، بعدما أعاد السبايا والأموال إلى أصحابها، قبل أن يقفل عائداً إلى مصر.

إلاّ إنّ حال العداء بين دمشق وأهالي جرود كسروان استمرّت في التفاقم، وازدادت توتراً عندما أرسل أقوش الأفرم نائب دمشق الشريف زين الدين بن عدنان إلى الجبليين والكسروانيين في محاولة لإجراء الصلح بين هؤلاء والتنوخيين وإعادتهم إلى بيت الطاعة للسلطان بعد المعارك التي خاضوها ضد جيش دمشق، لكن المحاولة فشلت، ثمّ تكرّرت إثر إرسال تقي الدين بن التيمية ومعه الأمير بهاء الدين قراقوش فلم يحصل أي اتفاق، لذلك أفتى العلماء بنهب الكسروانيين والجبليين بذريعة أنّهم فتكوا بجيش الإسلام ورفضوا العودة إلى الطاعة، فبدأ الإعداد لحملة تأديب لهؤلاء العصاة (١٣٠٤م) قوامها جيش الشام ومَن سار معه.

وهكذا هاجم جمال الدين الأفرم نائب دمشق الجبل وجرود كسروان (١٣٠٧م) وعمل بالأهالي قتلاً وتشريداً وإذلالاً ونهب أموالهم وأحرق العديد من قراهم، وقيل إنّ عديد هذا الجيش كان نحو خمسين ألف فارس وراجل، مقابل عشرة آلاف رجل تمكّن من جمعهم الأمراء، ودارت المعركة بين الطرفين عند عين صوفر فهُزم جيش الأمراء الذي فرّ مع نحو ثلاثماية نفس واحتمى في إحدى المغاور. وكان أقوش الأفرم قد أسر في هذه الحملة الكثيرين من الكسروانيين والدروز وغيرهم، فيما قُتل الأمير نجم الدين محمّد وأخوه الأمير شهاب الدين أحمد ولدا الأمير جمال الدين محمّد بن حجّي بن كرمه بن بحتر التنوخي في معركة نابيه في كسروان وهي فوق أنطلياس، قبل أن يضرم جيش دمشق النار في أراضي وغابات المنطقة وبيوتها، لعجزه على القضاء على مقاومة أهالي الجرد.

على أثر تلك المعارك التي توالت بين جيش دمشق وأهالي الجرود في كسروان والجبل جيء بجماعة من التركمان وأُسكنوا في الساحل الكسرواني من أنطلياس حتى جسر المعاملتين تحت غزير على حدود مقاطعة طرابلس، وهؤلاء التركمان هم من آل عساف الذين سكنوا سواحل كسروان وعينطورة وغزير وغيرها، وكانت لهم أرزاق بقرب نهر الكلب، ومعروفون بالعامرة وزوق الخراب وزوق مصبح وزوق مكايل وفق أسماء مقدّميهم عامر وخربان ومصبح ومكايل.

وتوفي الأمير سيف الدين سلار، تاركاً أقوالاً لا تحصى وجواهر نفيسة جداً، استولى عليها السلطان وقيل إنّها بلغت ثلاثماية ألف ألف دينار، علماً أنّه كان مملوكاً للملك الصالح بن قلاوون، ثمّ استقرّ في خدمة والده الملك المنصور قلاوون، ولمّا مات الأخير انتقل سلار بن عبدالله الصالحي المنصوري إلى خدمة الملك الأشرف كجك، وكان السلطان أعطاه الكرك والشوبك، قبل أن تقع الواقعة بينه وبين السلطان ويزجّه في قلعة الجبل بلا طعام حتى وفاته جوعاً. وعلى الأثر (١٣٠٨م) توجّه السلطان الملك الناصر بن قلاوون من مصر إلى الحجاز، ورغب في الإقامة بالكرك ليكون قريباً وضابطاً للأمراء الذين استفحل أمرهم وكثرت تجاوزاتهم، ولمّا حاول الدخول إلى القلعة سقط جسرها وهلك من صحبه نحو خمسين مملوكاً، لكنّه دخلها وأمر الأمراء بالعودة إلى الديار المصريّة. ثمّ جلس الجاشنكير بيبرس في كرسي الملك ولُقّب بالملك المظفّر ركن الدين بيبرس الجاشنكيري المنصوري، الثاني عشر من ملوك التتر بالديار المصريّة. ولم يلبث السلطان محمّد بن قلاوون (١٣٠٩م) أن خرج من الكرك قاصداً دمشق لاسترداد سلطته من بيبرس، وعندما اقترب منها فرّ نائبها جمال الدين الأفرم ولجأ إلى قلعة شقيف تيرون، ثم أعطي الأمان للأفرم، وتسارع الأمراء لملاقاة السلطان قلاوون وفُتحت له أبواب دمشق واحتشد أهلها ترحيباً بالسلطان. وبعد بضعة أيام حضر الأفرم فأكرمه السلطان وأقرّه على نيابة دمشق، كما حضر نائب حماة قبجق ونائب طرابلس أسن نمر ونائب حلب قرا سنقر فرحّب بهم السلطان وأعاد الاعتبار إلى كل الذين عزلهم بيبرس الجاشنكير الذي فرّ هارباً عندما علم بعودة السلطان إلى الديار المصريّة. لكن الحرب استعرت بين اليمانية والقيسيّة في حوران وقُتل من الفريقين عددٌ كبير. ثم حلّ عماد الدين اسماعيل الملقّب بالمؤيّد في نيابة حماة، وتولّى نيابة دمشق كراي المنصوري بدلاً من قرا سنقر ثم تحوّل عنها واستناب عليها جمال الدين أقوش الأشرفي الذي كان نائباً في الكرك، وهذه التطورات حصلت خلال العامين ١٣١٠ - ١٣١١م.

ثم، بعد سنة من هذه التطورات، نفى السلطان جمال الدين الأفرم نائب دمشق ومعه أمراء عدّة من بلاد الشام إلى الكرك حيث أودعهم السجن، وأحلّ سيف الدين تنكز في نيابة دمشق، وسيف الدين أرغون الناصري الدوادار في نيابة مصر. وحصل أن وضع ثلاثة أمراء ومماليكهم أنفسهم في خدمة كرنبدا ملك التتر، وهم نائب طرابلس وقرا سنقر نائب حلب، لكن كرنبدا زحف بجيشه إلى بلاد الشام ثانية فدبّ الرعب في الناس، لكنّه اكتفى هذه المرة بمحاصرة رحبة لخمسة أيام

ودخولها، ثم غادرها.

وفي السنة ١٣١٣م قدِمَ السلطان محمّد من الحجاز إلى دمشق ثم إلى مصر، فطلب منه الملك روبرتوس الصقلي السماح لرهبان مار فرنسيس بالسكن في جبل صهيون.

وفيها زحف تنكز نائب دمشق فحاصر مليطة ودخلها، وعاد منها إلى دمشق بثلاثماية أسير. كما لجأ حميضة بن أبي الحسيني المكي إلى كرنبدا ملك التتر طالباً منه أن يزوّده جيشاً يغزو به مكة فأعطاه أربعة آلاف فارس مقدّمهم الدلقندي وجماعة من الرواقض، الأمر الذي أخاف أهل السنّة. لكن الأمير محمّد بن عيسى بن المهنا الحياري انقضّ على حميضة وهو في طريقه بجماعة من العربان وهزمهم وشرّدهم، لكن المنيّة وافت ملك التتر كرنبدا بن أرغون بن أبغا، الذي كان أعمل السيف في أهل باب الأزغ لامتناعهم عن إقامة الخطبة على شعار الشيعة، وملك بعده ولده أبو سعيد.

جاءت السنة ١٣١٧م واعدة في أولها وكارثيّة في ما بقي، إذ بدأت ببناء تنكز الجامع المنسوب إليه في دمشق وأمرّ مياه بانياس من وسطه، وقد كلّفه ذلك مالاً جزيلاً. وسرعان ما ظهرت سحابة عظيمة عقبها برقٌ ورعدٌ ومطرٌ غزيرٌ وصقيع، وفاضت المياه عبر الأنهار والأودية شرقي بعلبك، وبين باب دمشق وباب نحله، واخترقت سور البلد، وأسقطت البرج واجتاح السيل كل ما كان في طريقه وأغرق الكثيرين من البشر واجتاح الجامع الأعظم والمدرسة بقربه، ولم يعفّ عن الأسواق والأبنية ومظاهر العمران...

وقال بعض ذوي الثقة إنّهم قبل السيل رأوا عموداً عظيماً من نار ودخاناً هابطاً من السماء وسمعوا صراخ الناس حتى ظنّوا أنّه يوم القيامة. كذلك هاج البحر وضربت العواصف طرابلس وهدمت منازل لا تحصى وخطفت الجِمال وأتلفت الزرع والبساتين.

وفي تلك السنة ظهر رجلٌ زُعم أنّه المهدي المنتظر وتبعه نحو ثلاثة آلاف شخص، وقال البعض إنّه حقاً المهدي، وآخرون إنّه محمّد، وبعضهم الآخر إنّه علي بن أبي طالب، ما ضلّل الناس وأقيم له عسكراً قتل ماية وعشرين نصيرياً، قبل أن يُقتل. وفيها أيضاً صدرت مراسيم سلطانيّة بحظر الخمور في بيروت وصيدا وكل السواحل.

وكأنّ ما أصاب الناس من نكبات وكوارث تلك السنة لم يكن كافياً فجاءت السنة التالية بما هو أعظم، إذ زحف الجراد على البلاد وتبعه غلاء وقيظ مفرط في الموصل وإربيل والجزيرة

وديار بكر وميافرقين ومات قومٌ كثير وأكل الجياع الجثث وباع بعضهم إبنه برغيف، واستمرّ الغلاء نحو أربع سنين في الموصل وخلت إربيل من أهلها واندثرت قرى بكاملها. ثمّ جاء سيلٌ كثير في دمشق، وبردٌ في مرج شعبان لثلاثة أشهر من دون مطر.

في السنة ١٣٢٥م تكرّرت نكبة بغداد، إذ فاض النهر فيضاناً هائلاً وحاصر المدينة من جميع النواحي حتى باتت مع سكانها جزيرة محاصرة بالمياه ولم يتمكّن أي إنسان من مغادرتها، وغمر السيل كلّ البساتين والممتلكات.

ثمّ ادعى قاضي دمشق على عماد الدين بن كتير بسبب قوله إنّ التوراة والإنجيل لم يخضعا لأيّ تبديل وأنهما ظلاّ على حالهما كما أُنزلا، فاتُّهم بالردة وشهّر به. كما أمر نائب دمشق تنكز بقتل كلّ الكلاب وإقامة خندقين لدفنهما أحدهما للذكور والآخر للإناث.

وما أصاب بغداد تكرّر في حمص السنة ١٣٣١م إذ اجتاحها سيلٌ عظيمٌ أهلك الكثيرين من أهلها. وفيها توفي الملك المؤيّد عماد الدين اسماعيل بن الأفضل بن علي الأيوبي صاحب كتاب «تقويم البلدان» و«تاريخ المختصر في أخبار البشر» وغيرهما من المؤلّفات. ثمّ نُكبت مدينة حماة (١٣٣٤م) بحريقٍ هائل قضى على نحو ثلاثماية حانوت، كما دخل الجيش الحلبي بلاد أدنه وطرسوس وأياس وعملوا فيها نهباً وأسراً.

أمّا في السنة ١٣٣٣م فرست في بيروت مراكب فرنج آتية من جنوى قاصدة أخذ مركب كيتلان في ولاية عز الدين البيسري من أيدي ملك الأمراء تنكز نائب الشام، فتصدّى المسلمون للفرنج ووقع بين الجانبين قتالٌ شديد، واستولى الفرنج على المركب وأسقطوا الأعلام السلطانيّة عن البرج وهزموا المسلمين في الأزقة، واستمر القتال ليومين، الأمر الذي استوجب توجيه تأنيب من السلطان في دمشق إلى أمراء الغرب وتركمان كسروان لتقاعسهم في مؤازرة العساكر في المحافظة على البلاد.

وامتدّت النكبات لتضرب المسيحيين في الشام إذ شبّ حريقٌ في دمشق (١٣٣٩م) شرقي الجامع - وفق ابن سباط - وامتدّ إلى الأسواق وبلغ باب الجامع الذي ضربت النار مئذنته فأحرقتها، واجتاحت سوق السيوف وقيسارية الرماح وقيسارية القواسين وقضت على عددٍ كبيرٍ من الناس. وقد اتُّهم النصارى بأنهم مَن أشعل الحريق انتقاماً لما أصاب كنائسهم من تخريب وتدمير، وأن راهبَين قدما من القسطنطينيّة إلى أرض جوبر وصنعا كرات من النفط وألقياها في المدينة ما

تسبّب بحريقها. ولذلك جمع العساكر رؤساء الطوائف المسيحيين وسلّموهم إلى والي المدينة، وقرّر تنكز نائبها منع المسلمين من استخدام النصارى في الدواوين، وأفتى فقهاء المذاهب بنقض العهد معهم وسمّى أربعة عشر من رؤسائهم اتُّهموا بمساعدة الراهبَين. ثمّ جاء نائب صفد المعروف بالحمص الأخضر حاملاً مرسوماً من السلطان محمّد بن قلاوون بطلب النائب تنكز، فقيّده وأخذه إلى الناصرة ومنها إلى الإسكندريّة، حيث زُجّ في السجن.

وفي هذه الأثناء توفي الخليفة المستكفي بن الحاكم، وخلفه الواثق باللّه ابراهيم بن محمّد بن الحاكم بأمر اللّه على الديار المصريّة. ثمّ إنّ السلطان الملك الناصر أرسل علاء الدين طنبغا إلى دمشق (١٣٤٠م) نائباً عليها، فأمر بتوقيف مماليك تنكز وتعليقهم على الأخشاب وصادر كلّ أمواله وأملاكه وكنوزه ونفائسه ونقلها إلى مصر، وقيل إنّها بلغت حمولة ثمانماية جمل، بما فيها مماليكه وجواريه. ثمّ مات السلطان الملك الناصر محمّد بن قلاوون، وقبيل موته جلس على تخت السلطنة ابنه الملك منصور أبو بكر، وهو الثالث عشر من ملوك التتر في الديار المصريّة.

وبعد سنة أمر السلطان المنصور بخلع الواثق من الخلافة ومبايعة الحاكم بأمر اللّه أحمد بن المستكفي، وهو الثاني والأربعون من خلفاء بني العباس، والخامس منهم على مصر. ثمّ اجتمع كبار الأمراء وخلعوا الملك المنصور أبا بكر من السلطنة لأنّه تعاطى الخمور ومجامعة زوجات والده، وأُرسل إلى قوص حيث قُتل فيها، وجلس مكانه أخوه الملك الأشرف كجك وعمره آنذاك ثمانية أعوام وتولّى أمور السلطنة الأمير قوصون. ولمّا علم بالأمر سيف الدين طشتمر نائب حلب ناصر أخ الأشرف السلطان أحمد بن قلاوون على أخيه الذي كان في الكرك وخرج على طاعة السلطان كجك، فسيّر نائب السلطنة قوصون الأمير قطلوبغا الفخري ومعه ثمانماية مملوك لحصار السلطان أحمد بالكرك، وعشرة آلاف رجل لمقاتلة طشتمر نائب حلب الذي سارع في الفرار منها إلى درنده من بلاد الروم، فاجتاح الطنبغا حلب وأخذ كلّ أمواله.

وبلغ الشام خبر مفاده أنّ قوصون قتل بني السلطان ليستأثر بالسلطنة لنفسه، فاتفق القادة قطلوبغا الفخري وطنبغا نائب دمشق ونائب حماة ونائب صفد وغيرهم على مبايعة الملك الناصر أحمد بن محمّد قلاوون، كما بايعه الجيش أيضاً، وتمّ خلع الأشرف كجك من السلطة وجلس فيها أخوه الملك الناصر أحمد الخامس عشر من ملوك التتر في مصر. وقد ولّى الأخير شمس الدين طشتمر نيابة السلطنة في القاهرة، وقطلوبغا الفخري نيابة دمشق، وأيدغمش نيابة حلب. وعاد

قطلوبغا إلى دمشق ولمّا رجع طنبغا من حلب قاصداً دخولها منعه الأول، فجمع الجيش وحاصره في دمشق واستعان الفخري عليه بأهل كسروان والجرد وأهالي الجبال والفلاحين، وتأهّب الطرفان للقتال، لكن جيش طنبغا تفرّق عنه، فسار الفخري إلى مصر وأعلم السلطان بالنصر الذي تحقّق، لكن السلطان كان لا يزال في الكرك فكتب إلى ايدغمش أمير الخور بأن يقبض على قوصون ففعل وأرسله إلى الإسكندريّة ونهب دياره وأمسك بالطنبغا وسجنه في مصر.

كان السلطان أحمد في الكرك (١٣٤٢م) عندما قرّر أن يجول بين العامة من الناس متنكّراً ونُسبت إليه تصرّفات غير لائقة بالملوك، كما أنّ جيشه لم يكن راضياً عن تقرّبه من النصارى، وقتله طشتمر الفخري، فأبلغوا مصر بكلّ ذلك وتمّ خلعه من السلطنة، وإحلال أخيه الملك الصالح إسماعيل بن محمّد بن قلاوون محلّه وهو السادس عشر من ملوك التتر في الديار المصريّة. غير أنّ السلطان الجديد سرعان ما جهّز جيشاً لمحاصرة أخيه السلطان أحمد ونصب المنجنيق على الكرك وحاصرها، وقُتِلَ في واقعة واحدة قرابة الخمسمئة من أهلها، ومن عسكر مصر والشام نحو المئتين، لكن الحصار امتدّ حتى السنة التالية حيث استشرى الغلاء وتفشّى الوباء في الكرك وفي دمشق.

وشهدت السنة ١٣٤٤م معارك عنيفة بين أهل البقاع وأهل وادي التيم وسقط قتلى كثيرون من الطرفين. وأقدم ابن صبحي من وادي التيم على حرق ثلاث عشرة قرية بقاعيّة، وتمّ قطع كلّ الطرق والمسالك المؤدّية إلى الزبداني. وبعد سنة توفي السلطان الملك الصالح عماد الدين اسماعيل، وتولّى بعده أخوه الملك الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمّد بن قلاوون، السابع عشر من الملوك الترك في الديار المصريّة، فولّى الحج ارقطاي نيابة حلب وسيف الدين يلبغا نيابة الشام بعد نقله من ولاية حلب.

أمّا السنة ١٣٤٦م فشهدت تطوّرات كبيرة، لاسيّما في الشام، إذ توفي السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان، وولّي ولده الملك المظفر أمير حاج حاجي الثامن عشر من الملوك الترك في مصر، فعُيّن شمس الدين يلبغا والياً على الشام وبنى الجامع المنسوب إليه تحت قلعة دمشق، وأرسل بيدمر البدري إلى نيابة حلب وارقطاي إلى نيابة السلطنة في مصر.

وفي السياق يذكر المطران يعقوب الدويهي أنّ ملك قبرص هاجم الاسكندريّة فنهبها وقتل رجالها وأسر حتى الأولاد، الأمر الذي أشعل غضب السلطان على النصارى الذين في مملكته، فقبض

على رؤساء الكنيسة وسجنهم في دمشق، وكان بينهم المطران يعقوب، مطران إهدن، الذي لم يلبث أن تمكّن من الفرار من سجنه، وهو الذي نسخ الإنجيل السرياني والكرشوني يوم كان راهباً، وهذا الإنجيل ما يزال موجوداً في دير قنوبين.

ويقول ابن سباط إنّ الخوف دبّ في أهل السواحل بعد ما فعله ملك قبرص بالإسكندريّة، فأرسل الأمير الكبير الأتابكي يلبغا إلى بيروت بيدمر الخوارزمي وأمره ببناء مراكب كثيرة بعدّة كاملة، فيما أقام العسكر الشامي في بيروت، حيث لا يزال أمراء الفرنج فيها، وطلب إلى بيدمر مهاجمة قبرص بألف رجل بمَن فيهم تركمان كسروان. كلّ ذلك انعكس ظلماً وقهراً على النصارى، خصوصاً الأساقفة الذين سُجن بعضهم وفرّ آخرون إلى قبرص كالأسقف حنين، واختفى بعضٌ آخر حتى زوال الاضطهاد.

لم تتوقّف مسيرة القتل والعزل، إذ في السنة ١٣٤٧م صدر مرسوم من السلطان حاجي بعزل ملك الأمراء يلبغا من نيابة الشام وطالبه بالمثول أمامه. ولمّا خرج يلبغا قاصداً مصر التفّ حوله جمعٌ كبير طالبين الحرب، ولمّا اقترب من مصر خرجت إليه عساكر من دمشق وصفد وطرابلس وحماة وأُلقي القبض عليه فأمر السلطان بقتله، فقُتل قرب غزة. ثمّ أحلّ السلطان في نيابة دمشق سيف الدين أرغون شاه، وأمر باعتقال الكثير من الأمراء وقتلهم، الأمر الذي أغضب الناس فثاروا عليه وقتلوه، وبايعوا أخاه الناصر حسن بن محمّد بن قلاوون، التاسع عشر من ملوك الترك في مصر.

لم تكن السنة ١٣٤٨م أكثر رحمة تجاه أهل الشام وحلب ومعظم الديار الشاميّة، إذ حملت إليهم مرض الطاعون الذي استشرى في كلّ تلك البلاد على شكل لم يروا له مثيلاً، حتى أنّ الجوامع شهدت صلاة على أكثر من مايتي جنازة في اليوم في دمشق، وخلت ضياع كثيرة من أهلها، وفق الصفدي، وامتدّ إلى بيروت.

ورافق الطاعون القاتل غلاء فاحش حتى بيعت غرارة القمح بألف وستماية درهم، ورطل الزيت الشامي بأربعة وعشرين درهماً، ورطل اللحم بعشرين درهماً، وشمل الغلاء كلّ السلع الأخرى. لكن كثرة الوفيات أعادت الأسعار إلى حال من الرخص الشديد، وصارت غرارة القمح بماية وسبعين وما دون. وكأنّ الوباء والغلاء لم يكونا كافيَين فهبط مطرٌ غزيرٌ حوّل الأرض سيولاً، لكنّه زاد الأمراض انتشاراً.

إضافةً إلى الفساد الذي كان سائداً في عهود متعدّدة، دخل التزوير على بعض المراسيم السلطانيّة من جانب بعض الأمراء نتيجة الخلافات في ما بينهم. وفي السنة ١٣٤٩م وصل إلى دمشق نائب طرابلس الأمير سيف الدين الجيبغا ومعه حاشية من الأمراء حاملاً مرسوماً، وأحاط بنائب دمشق أرغون شاه ليلاً فيما هو نائمٌ وقبض عليه وعلى حرّاسه واستولى على أمواله وخيوله واقتاده إلى طرابلس. وعلى الأثر أعلم أمراء الشام السلطان بما حصل فأجابهم بأنّه لم يكن على علم بذلك وأنّ المرسوم مزوّر، لذلك حشد نائب صفد جنده وسار في طلب جيبغا، وقبض عليه في طرابلس واقتاده إلى دمشق حيث عُلّق وصحبه على الخشب، ووصل الأمير ايتمش الناصري من مصر وحلّ في نيابة دمشق.

تواصلت التقلّبات والانقلابات والوفيات على مستوى السلطنة، ففي السنة ١٣٥٢م توفي الخليفة الحاكم بأمر اللّه في مصر بعد عشر سنين ونصف السنة، وبويع المعتضد باللّه أبو بكر بن المستكفي باللّه، الثالث والأربعون من خلفاء بني العباس، والسادس في الديار المصريّة. ثمّ وقع حريقٌ عظيمٌ عند باب جيرون في دمشق في الباب الأصفر النحاسي الذي كان من الآثار الجميلة وعمره ما يزيد على أربعة آلاف عام، وكان مصنوعاً من خشب الصنوبر ومغطّى بالنحاس والمسامير الضخمة النحاسيّة، فأخذوا ما عليه من النحاس إلى خزانة الحاصل، وقيل إنّ اسمه منسوب إلى ملك يقال له جيرون بن سعد بن عاد بن عوض بن ارم بن سالم بن نوح الذي بناه.

واتفق بيبغا اروس نائب حلب مع تكلمش نائب طرابلس وأحمد المشدّ نائب حماة وطيبغا نائب صفد وابن أبي النادر التركماني وحيار بن مهنا أمير العرب على الخروج عن طاعة السلطان ليمسكوا بشيخون وطاز، وهما من أعيان الدولة المصريّة. لكن أرغون جمع الأمراء واستحلفهم على طاعة السلطان، ففعلوا، ثمّ حشد الجيوش وزحف بهم قاصداً الكسوة، إذ لم يستطع مقاتلة النواب، ولم يبقَ في دمشق سوى النائب النجفي. وتخوّف الناس ممّا يمكن أن يحصل فانتقلوا من الصالحية والبساتين إلى داخل البلد، كما نقل الأمراء حريمهم وممتلكاتهم إلى داخل القلعة، ثمّ دخل نائب حلب ومعه نواب طرابلس وحماة وصفد والتركمان والعربان والعساكر ومعهم نحو ستين من أمراء الطبلخانات، فيما عاث العسكر فساداً في مختلف القرى والمزارع والبساتين، وافتعلوا بالنساء والبنات... وأمّا نائب القلعة فحصّنها وحشد فيها الرجال والرماة وفي دمشق واعداً الناس بخروج السلطان من مصر ولقائه الجيش الدمشقي. لكن ذلك طال أمده فارتحل

بيبغا مع جيشه عن دمشق، فتنفّس أهلها الصعداء، وأمر نائب القلعة بتكريم الحلبيين وقتل التركمانيين وسلبهم.

وبعد حين وصل السلطان إلى الغور، وخرج أهل دمشق إلى الشوارع مهلّلين فرحين ورفع أهل الذمّة الشموع والتوراة والأناجيل، ووصلت طلائع العسكر، ووصل السلطان فمثل الأمراء بين يديه وبسطوا له السجاد الحرير، فنزل في القلعة مع الخليفة أبي بكر الذي كان في صحبته. ثمّ سارع الأمراء أرغون وطاز وسيخون إلى إلقاء القبض على بيبغا ومَن معه وقيّدوهم وأتوا بهم إلى قدمي السلطان. وعلى الأثر خرج السلطان إلى الطارمة وأُحضِر الأكراد الحلبيين الأسرى أمامه فأمر بقتل نواب حلب وطرابلس وحماة وصفد وستة من مقدّمي الطبلخانة، وأقام أرغون نائباً على حلب قبل أن يعود منتصراً إلى مصر.

لكن الأوضاع لم تستقرّ نهائياً في دمشق، ففي السنة ١٣٥٤م تُلي في جامعها مرسوم سلطاني يلزم أهل الذمّة بالشروط العمريّة مضافة إليها زيادات أخرى، منها عدم استخدامهم في الدواوين السلطانيّة أو في أي عمل آخر، وأن لا تزيد عمامة أي منهم عن عشرة أذرع، ولا يمتطون البغال بل الحمير فقط، وأن يدخلوا الحمّامات بعلامات من جرص أو خواتم من نحاس أو رصاص، وأن لا تدخل نساؤهم مع المسلمات بل إلى حمّامات خاصة بهنّ. كذلك فرض على النصارى أن يكون أزارهم من الكتان الأزرق، واليهود بأزار أصفر، والسامرية بالأحمر، وأن يكون خفهم واحداً أسود والآخر أبيض، وأن تؤول أحكامهم إلى المحاكم الشرعيّة... ثمّ اتفق جمهور من الأمراء على خلع الملك فخلعوه وأعادوا أخاه الملك الناصر حسن إلى ولاية ثانية، وأقاموا الأمير منجك نائباً على طرابلس والأمير علي المارداني على دمشق والأمير طاز على حلب، وأمّا سيف الدين أرغون فأرسل معتقلاً إلى الاسكندريّة. ثمّ قام رجلٌ من الرافضة فشتم ولعن أبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية ويزيد أمام أهالي دمشق، فأجمع القضاة الأربعة على الحكم بقتله، فقُطعت عنقه أمام القلعة وأُحرقت جثته وطاف البعض برأسه صارخين: هذا جزاء مَن يسبّ الصحابة.

وفي السنة ١٣٥٥م توفي تقي الدين السبكي مؤلّف كتاب «في كشف الغمّة في ميراث أهل الذمّة» الذي تسبّب بأن تُنقل أحكام الإرث لدى أهل الذمّة إلى الأحكام الشرعيّة. وبعد ذلك بسنة تقريباً ظهرت مراكب الفرنج قبالة مدينة صيدا فدخلوها وقتلوا طائفة كبيرة من أهلها وأسروا أعداداً كبيرة أخرى أخذوهم معهم ومع غنائمهم إلى جزيرة قريبة من المدينة، فبلغ الخبر إلى دمشق

حيث حُشدت العساكر من صفد ودمشق وراسلوا الفرنج على إطلاق الأسرى مقابل خمسماية درهم لكلّ أسير فتمّ الاتفاق على دفع مبلغ ثلاثين ألف درهم وأُطلق سراح كلّ الأسرى المسلمين.
ثمّ توفي الملك أورغان الغازي (١٣٥٩م) الذي عُرف بعدائه وقمعه النصارى وتولّى بعده ولده السلطان مراد، ثمّ توفي الخليفة المعتضد بالله وبويع أخوه الحاكم بأمر الله أبو محمّد عبدالله الرابع والأربعون من خلفاء بني العباس والتاسع في الديار المصريّة، كما توفي الملك الحاكم بأمر الله وبويع ولده المتوكل على الله أبو عبدالله محمّد، الخامس والأربعون من بني العباس. وفي السنة ١٣٦٠م توفي السلطان الملك الناصر ناصر الدين الحسن بن محمّد بن قلاوون، وولّي بعده ولده الملك المنصور صلاح الدين محمّد الواحد والعشرون من ملوك الترك في مصر، وقيل إنّ الملك المنصور صلاح الدين توفي، والبعض قال إنّه خُلِع، وحلّ أبوه الملك الأشرف شعبان بن الملك الناصر مكانه، الثاني والعشرون من ملوك الترك في مصر. وفي هذه السنة هاجم ملك قبرص الاسكندريّة ونهبها.
وشهدت السنة ١٣٦٥م وفاة الأمير منجك بن عبدالله الناصري الذي تعدّدت نياباته من صفد إلى طرابلس إلى حلب إلى دمشق فإلى مصر حيث توفي فيها. وفي السنة ١٣٦٦م دفع النصارى جريرة اجتياح ملك قبرص ونهبها سجناً وتشريداً... كما ذُكر سابقاً. وفيها قُتل السلطان الأشرف عند عقبة آيلا، قبل بلوغه عكا قاصداً الحج وولّي بعده ابنه الملك المنصور نور الدين علي الثالث والعشرون من ملوك الترك في مصر، لكنّه توفي في السنة ١٣٨١م وكان ظالماً محبّاً للمال وسفّاك دماء، وحلّ بعده ولده الملك المنصور محمّد، الرابع والعشرون من ملوك الترك، الذي لم ينعم بحكمه طويلاً إذ ثار عليه الأمراء وخلعوه من السلطة وولّوا أخاه الملك الصالح حاجي.
كذلك لم يستقر الحكم لحاجي الذي تمّ خلعه (١٣٨٢م) وسجنه في الكرك وولّي بعده الملك الظاهر برقوق بن آنس بن برديك أوّل ملوك الجراكسة في مصر، فتولّى بيدمر الخوارزمي نيابة الشام، ثمّ قبض الملك الظاهر برقوق على الخليفة المتوكل وخلعه وسجنه، وأقام بعده على الخلافة أبا حفص عمر بن الواثق بالله ابراهيم السادس والأربعين من خلفاء بني العباس، والتاسع منهم على الديار المصريّة.
استمرّ أبو حفص في الخلافة حتى السنة ١٣٨٥م تاريخ وفاته وتولية أبيه المعتصم بالله أبي يحيى

زكريا، السابع والأربعين من خلفاء بني العباس، والعاشر في مصر. ثمّ قبض السلطان برقوق على بيدمر نائب الشام وقتله وأقام محلّه الطنبغا الجوباني، الذي تواطأ مع النائب تمربغا منطاش الأفضل نائب مليطة وخرجا على طاعة السلطان لقتله بيدمر نائب دمشق. لذلك جهّز الملك برقوق كلّ الجيوش المصريّة لمقاتلتهما، فيما جمع العاصيان عساكر الشام والعرب والتركمان وأهالي كسروان والجرد ودارت بين الجانبين معارك كثيرة انتصر فيها تمربغا والناصري على الجيوش المصريّة واستوليا على الممالك وأعطيا نيابة الشام إلى جنتمر أخي طاز ودخلا مع جيوشهما الديار المصريّة. ثمّ هبّ المصريون وخلعوا الملك الظاهر، وأعادوا إلى السلطنة الملك الصالح حاجي ولقّبوه بالملك المنصور حاجي.

وفي تلك الأثناء نشب القتال بين تركمان كسروان وأمراء الغرب، لأنّ أهل كسروان كانوا مع أرغون نائب تمربغا منطاش في بيروت، فيما كان أمراء الغرب والتنوخيون مع الملك الظاهر، ودارت المعارك في الساحل فهاجم جماعة منطاش أمراء الغرب ومَن معهم قرب زوق مكايل وقتلوا منهم نحو تسعين شخصاً ونهبوا بيروت وغزوا ممتلكات أمراء الغرب وأحرقوا قرى عدّة ومنها عيناب وعين عنوب وشملان وعيتاب وغيرها. وأعطى الملك الظاهر إلى الطنبغا الجوباني نائب الشام الأمان واليمين، فيما رفض الناصري النكث بالوعود والمواثيق التي أعطوها للملك الصالح بقصد قتل الملك برقوق، فاقتادوه إلى سجن الكرك التي أقاموا حسن الكشكلي نائباً عليها. وأمّا منطاش فانقلب على الجوباني والناصري واعتقلهما وأرسلهما إلى الاسكندريّة، وأوعز المنطاش إلى الكشكلي بقتل الملك الظاهر.

ولمّا سمع الكشكلي بما حصل للناصري لم يعمد إلى قتل برقوق، بل أفرج عنه وأعطاه مماليكه وعسكر الكرك، فخرج بهم إلى قتال باكيش نائب غزة وقتله وغنم ما كان معه. ثمّ أكمل زحفه إلى الشام، فواجهه جنتمر نائبها فهزمه وأقام الحصار على دمشق. وحضر إليه كمش بغا الحموي نائب حلب ومعه جموع وخيام وأثقال فهزمه برقوق، ثمّ وصل تمربغا منطاش من مصر ومعه السلطان حاجي والعساكر المصريّة ودارت معارك طاحنة انتصر فيها برقوق.

وفي هذه السنة توفي السلطان مراد بن غازه بن أورغان بن عثمان، قتله رجلٌ نصرانيّ كان أخفى خنجراً في كمّه، وتولّى بعده السلطان بعدر أبو يزيد خان بن السلطان مراد.

وقيل إنّه لمّا قدم تدروش الملك الظاهر إلى قرية بشري شرقي طرابلس وأقام الشدياق يعقوب بن

أيوب مقدّماً، وكتب له بذلك صفيحة من نحاس، ونزل إلى دير قنوبين حيث قضى ليلته وأُعجب بسيرة الرهبان فكتب لهم صفيحة نحاس أيضاً على أن يكونوا معافين وتكون لديرهم الرئاسة على كلّ أديار تلك الجهات. وفي السنة ١٣٨٩م عاد الملك الظاهر ثانية إلى تخت السلطنة وخلع عنه الخليفة والقضاة والملك المنصور حاجي واعتقله، وأمر بإطلاق الناصريّ والجوباني من سجن الاسكندريّة وأعطى الناصريّ نيابة حلب والجوباني نيابة الشام. ودارت حروب وفتن كثيرة في بلاد الشام بين منطاش ووالي دمشق، وتقاتل عساكر الظاهر مع تركمان كسروان فقُتل الأمير علي وأخوه الأمير عمر بن الأعما... وخُلِع المعتصم بالله من الخلافة التي أعيدت للمرة الثانية إلى المتوكل على الله.

وفي السنة ١٣٩١م أخذ قرا يوسف بن قرا محمّد أمير التركمان مدينة تبريز وأرسل مفاتيحها إلى الملك الظاهر برقوق، فولاّه الملك الاستمرار نائباً عليها.

وفي السنة ١٣٩٣م كان جالساً على كرسي إنطاكية البطريرك الحاجي داود، وفي دير سيدة قنوبين المطران بطرس، وحدث أنّ اليعاقبة خدعوا البطريرك حتى أخذ ببعض عاداتهم، وكان القس الحدثي محتبساً في دير مار سركيس فخدع هو أيضاً وراح يضع الزيت في القربان، فاجتمع رؤساء الكهنة وعزلوا البطريرك داود الذي أسماه اليعاقبة حنا، وأقاموا البطريرك حنا الحاجي مكانه.

وكان السلطان أحمد بن أويس سلطان بغداد وصل إلى مصر هارباً من تمرلنك ملك التتر وأخبر بأنّ الأخير احتلّ بلاد العجم والعراق وتبريز والديلم، طالباً النجدة من الملك الظاهر. وفي تلك السنة أيضاً خرج السلطان برقوق إلى جهات حلب ومعه أحمد سلطان بغداد فأخذ بغداد. ثمّ وصل رسول السلطان أبي يزيد بن عثمان طالباً من الخليفة أن يكون سلطان الروم فأعطاه السلطان ذلك.

الفصل العاشر

من وفاة الملك الظاهر برقوق إلى قدوم كرتباي إلى دمشق

السنة ١٣٩٩م توفي الملك الظاهر برقوق بن عبدالله، وولّي بعده ابنه الملك المنصور عبدالعزيز، الثاني من ملوك الجراكسة في مصر، ولكن سرعان ما تمّ خلعه وتولية أخيه الملك الناصر زين الدين فرج بن الملك الظاهر. ثمّ خرج تنّم نائب الشام عن طاعة السلطان وانضمّ إليه أعيان أمراء مصر ونوّاب المماليك لمقاتلة العساكر المصريّة. فتوجّه الناصر بجيشه إلى الشام والتحم الجيشان في الرملة وانتصر الملك الناصر وفتك بمعظم الأمراء العصاة وولّى على دمشق سودون ابن أخت برقوق وعاد إلى مصر.

بعد سنة، أي السنة ١٤٠٠م ملك تمرلنك العجم والفرس والديلم والعراقين وطبرستان وأرمينيا والموصل والجزيرة، وحشد جنودهم وزحف بهم على بلاد الشام، وقيل إنّه أرسل إلى السلطان رسلاً ومعهم هديّة، فلمّا وصلوا إلى رحبة مالك بن طوق، وثب عليهم كمش بغا النائب وقتلهم وأوصل الهديّة والكتاب إلى السلطان. وكان في الكتاب، وفق ابن الحريري، تهديد وتحذير وفيه «لا نرقّ لشاكٍ ولا نرحم عبرة باكٍ، قد نزع اللّه الرحمة من قلوبنا، فالويل كلّ الويل لمن لم يكن من حزبنا...».

وأجابه السلطان بكتاب مفاده أنّ اللّه يعز مَن يشاء ويذلّ مَن يشاء، وتقولون إنّ اللّه نزع من قلوبكم الرحمة، فذلك من أكبر عيوبكم، وهذه من صفات الشياطين... ولمّا نقلت الأخبار وصول تمرلنك والجيوش التتريّة إلى نواحي حلب، خرج سنبغا بالجيوش المصريّة وحشد سودون جند الشام وخرج بهم من دمشق، وانتقل إلى حمص، حيث اجتمع إليه نوّاب صفد وبيروت وطرابلس وغيرهم. ثمّ خرج الجميع من حمص إلى حلب، ونزل تمرلنك بجيوش التتر إلى مرج دابق، وأرسل رسلاً معهم هدايا نفيسة إلى نائب حلب الذي قتلهم جميعاً ولم يردّ بجواب، وأعاد الهديّة والكتاب إلى السلطان. لذلك استبدّ الغضب بتمرلنك وزحف على حلب، حيث التقى الجيشان خارج المدينة في معركة قاسية، فهُزمت عساكر الشام وتقهقرت إلى داخل المدينة، بعدما قُتل

منهم الكثيرون وأُسر عددٌ كبير. ثمّ نصب المنجنيق وأعدد النفط والنار لحلب وراح يشدّد عليها الحصار، ولمّا وصلته إمدادات إضافيّة من المغول والعساكر اشتدّت عزيمة التتر مقابل ضعف عزيمة الحلبيين، فشدّد تمرلنك حصار المدينة إلى أن طلب مَن فيها الأمان، فيما هرب الأمراء والنوّاب إلى القلعة، وقام كيتم التركماني وسنبغا الدرادار بتسليم القلعة ومفاتيحها إلى تمرلنك، وتقدّم النوّاب والأمراء فأسرهم وكبّلهم بالقيود ودخل القلعة بنفسه وأخرج كلّ ما كان فيها من أموال وعمل قتلاً وأسراً بمَن بقي فيها.

ولمّا انتهى من حلب وقلعتها زحف تمرلنك بجيشه إلى دمشق، قرب المعرّة، فدبّ الخوف والذعر في المدينة وتعالى صراخ النساء والأولاد، وفرّ الأعيان والعساكر، بعضهم لجأ إلى قلعة أرنون وبعضٌ آخر إلى قلعة شقيف تيرون، وآخرون إلى مناطق محصّنة. وخرج سنبغا ونوّاب صفد وطرابلس وبيروت يدعون الناس إلى الفرار خوفاً من تنكيل التتر بهم. ولمّا لم يأتِ عسكر المصريين للنجدة، ولم يعد الأمراء والأعيان، وفرّ ناظر الجيش وكاتب السرّ وباقي الحاشية، انهارت المدينة بمَن بقي فيها رعباً. وفي هذه الأثناء أرسل تمرلنك ولديه مهران شاه وماردين شاه لفتح حماة، فلاقاه أهلها مرحّبين، فعيّنا عليها نائباً ورحلا عنها. إلاّ أنّ أهلها سرعان ما انقضّوا على النائب وقتلوه، فعاد الشاهان مهران وماردين بجيشهما إليها وعملا فيها قتلاً ونهباً وأحرقا معظمها وحاصرا قلعتها، وأمدّهما تمرلنك بعشرين ألف مقاتل، حتى احتلا القلعة وأزالا معالمها، فارتعب أهل دمشق وفرّ نصفهم منها. ويقول المطران يعقوب من قنيا في كتاب الناموس الذي وضعه في دير السيّدة في أرض لحفد باسم المطران داود بن جوسلين الحدشيتي إنّ الجوع ضرب الناس بشدّة وانتشرت جثث الموتى في العراء ولم تجد مَن يدفنها، وأنّ تمرلنك خرج من مدينة سمرقند في المشرق بجيشٍ جرّار وأحرق ودمّر وسبى وغنم ولم يجرؤ أحد على التصدّي له...

ثمّ دلفت أنباء بخروج السلطان من مصر متوجّهاً إلى بلاد الشام فاطمأنّ الناس واستعدّوا للحصار وأجروا المياه في الخنادق وحشدوا العساكر ونادوا بالجهاد، ودخل السلطان إلى دمشق ففرح به أهلها، ونزل في القلعة وحصّنها ووزّع السلاح والغلال على الأهالي وبات الجميع مستعداً للقتال. وحيال هذا المشهد خشي تمرلنك الهزيمة وعزم على الرجوع إلى بلاده، ولكن دخل على السلطان شخص من حاشيته وخوّفه من قوّة العدو، وقال له إنّ تمرلنك سيحتلّ الشام فتفوتك مصر، فأثّر كلامه بالسلطان فخرج من القلعة ليلاً إلى مصر تاركاً الشام وراءه، وبات ليلة في

سفح جبل لبنان في مكان يقال له الصفصاف ما بين قريتي نيحا وجباع الحلاوة، ثمّ وصل إلى مصر.

ولمّا علم تمرلنك بذهاب السلطان سارع إلى حصار المدينة وأقام خيامه من قبّة بلبغا إلى ميسلون، ثمّ شدّد حصاره فخاف أهل دمشق الذين عانوا ما لم يعانيه العرب في كلّ الحروب التي جرت في مختلف حقب تاريخهم، لكنهم قاتلوا ببأس وشجاعة، واشتدّ القتال وأُزهقت أرواح كثيرة، ودخل تمرلنك دمشق وأسقط تعاليمها وأهان كرامات أهلها وأذلّ أعيانها ونهب وفتك وهتك وفرّق وأحرق أُسراً بكاملها، ولم يسلم الجامع الأموي من الحرق وكلّ المدارس والمساجد والمعابد، وخلّفها أطلالاً لا أسواق فيها وقطع أشجار بساتينها وهدم قلعتها وانتهك نساءها وبناتها وقتل الأطفال الذين كان يضعهم في الخنادق لتدوسهم الخيل والبقر وتقتلهم...

ولم يخرج تمرلنك من دمشق حتى هاجمها الجراد بأمواجٍ عظيمة غطّت السماء وملأت السهل والوعر وأكلت النبات والثمار والخضر وأيبست الشجر وسدّت الأنهر والسواقي، وتبعها جفاف قاسٍ وغلاء فاحش وانعدام القوت وأكل ناس أولادهم وجواريهم وعبيدهم... فلمّا رأى تمرلنك الأعرج ذلك رحل عن دمشق التي لم يبقَ فيها ساكن.

ويذكر المطران يعقوب الذي كان ساكناً في دير السيّدة المسمّى دير المرج في لحفد أنّ ظهور الجراد كان في شهر آذار وأكل كلّ الزرع وترك الأرض يباساً، وأنّه في شهر أيار جاء الجراد الزحّاف من سواحل البحر وأكل كلّ ما كان أخضر من الكروم والأشجار وحتى الغابات...

ثمّ استقرّ الأمير أقبغا الجمالي في نيابة دمشق وشرع في إعادة إعمارها، وبعده تمّ نقل الشيخ محمود الخاصكي من نيابة طرابلس إلى دمشق، فيما استقرّ دقماق الخاصكي في نيابة حلب. وفي السنة ١٤٠٢م، بعث تمرلنك برسالة إلى مصر مع هدايا ثمينة للسلطان فرج، وفيها اعتذار، فحصل الصلح بينهما. ثمّ توفي السلطان كلدر أبو يزيد، وخلفه أولاده الأربعة، عيسى وموسى وسليمان وقاسم الذين وقع القتال بينهم طوال سنة.

ثمّ في السنة ١٤٠٤م توفي الخليفة المتوكل على اللّه محمّد وبويع بعده ولده المستعين باللّه أبو الفضل عباس، الثامن والأربعون من خلفاء بني العباس والحادي عشر منهم في الديار المصريّة. وفيها هاجم نعير بن مهنا الحياري البدوي بعض الأعمال الشاميّة فملكها، وكان معه جيش من العربان، فقصد دمشق فتصدّى له نائبها يلبغا الناصري ودار بينهما القتال في قردة عذرا خارج

دمشق فهُزِم يلبغا واستولى البدوي على المدينة وسلب أموالها وظلم وجار على الرعيّة حتى قيل «جور الترك ولا عدل العرب». ولمّا سمع السلطان فرج بذلك زحف بالجيوش المصريّة على دمشق وطرد العربان منها ومن الأقطار الشاميّة وأعاد إعمار الجامع الأموي الذي هدمه تمرلنك وبدأ إعمار المدينة وتصريف شؤون الناس.

بعد اقتتال بينه وبين أشقائه لاثنتي عشرة سنة، تولّى السلطان محمّد بن بلدر السلطة في نواحي الشمال، فيما كانت تدور معارك كثيرة بين الشيخ الخاصكي وأمراء دمشق (١٤٠٥م). وفي السنة ١٣١٠م اجتاح نيروز الشام بجيشٍ جرّار وقتل أعيانها، قبل وصول الملك الناصر فرج إلى دمشق قادماً من مصر، واتخذ القلعة الدمشقيّة مقرّاً له، وأمر بإعمار ما تهدّم من المدينة. لكن السلطان فرج بن برقوق قُتل بعد سنتين في القلعة عينها، فارتبكت دمشق واضطرب المماليك لموته، واجتمع الأمراء وبايعوا الخليفة المستعين باللّه بالسلطنة وأجلسوه على تخت الملك في دمشق، وولّى نوروز نيابة سلطتها، والشيخ الخاصكي أمير كبير أتابك العساكر المصريّة بالقاهرة. ثمّ توجّه السلطان المستعين من دمشق إلى مصر وجلس على كرسي الملك في قلعة الجبل، لكن الشيخ الخاصكي سرعان ما تآمر عليه وانقلب ضدّه وخلعه من السلطة ولقّب نفسه بالملك المؤيّد شيخ الخاصكي بن عبداللّه، وكان التاسع والعشرون من ملوك الترك ورابع الشراكسة في الديار المصريّة.

وأمّا في شأن الخلافة فبايع المعتضد باللّه أبو الفتوح داود بن المتوكل وأخو المستعين، التاسع والأربعون من خلفاء بني العباس والاثنا عشر منهم في مصر. وفي السنة ١٤١٣م، خرج الملك المؤيّد من مصر قاصداً أخذ الشام من نوروز ودارت معركة بينهما في ظاهر دمشق فقبض السلطان على نوروز وقتله فاستقرّ له الملك في مصر ودمشق.

وكُتِب أنّه في السنة ١٤٢٩م توفي الأسقف داود بن جوسلين في حدشيت وفق الخوري ابراهيم بن الخوري اسطفان من بقاعكفرا. وأمّا الملك المؤيّد فقد قاتل الفرنج عند نهر الدامور بين صيدا وبيروت وانتصر عليهم وعاد بطريق الباروك الفريديس في سفح جبل لبنان.

وفي السنة ١٤٢٠م توفي الملك المؤيّد شيخ الخاصكي، وولّي بعده ولده الملك المظفّر أحمد وعمره سنة وسبعة أشهر، الثلاثون من ملوك الترك والخامس من الجراكسة، وبعد سبعة أشهر خلعه الأمير ططر، ودعا لنفسه وتلقّب بالملك الظاهر ططر بن عبداللّه وبايعه الخليفة والأمراء لصغر

سنّ الملك المظفّر. لكن ططر توفي بعد نحو ثلاثة أشهر فيما كان في طريقه من دمشق إلى مصر، وتسلّم المملكة بعده ابنه الملك الصالح محمّد، الثاني والثلاثون من ملوك الترك والسابع من الجراكسة في مصر. وبعد سنة توفي السلطان محمّد بن بلدار في بلاد الروم، وتولّى بعده ابنه السلطان مراد. ثمّ تمّ خلع الملك محمّد بن ططر من السلطة، وحلّ مكانه الملك الأشرف أبو السعادات ثامن الشراكسة في مصر، وكان في أيامه تانبيك ميق نائباً على دمشق، وتولّى بعده تانبيك البجاسي وخرج على الطاعة، ليحلّ محلّه سودون عبد الرحمن، ثمّ جار قظلي، ثمّ اينك الجكي...

ثمّ وصلت مراكب الفرنج إلى ناحية مصر، فسارع السلطان الأشرف إلى إرسال ثلاثة أمراء من مصر وأمير الشام وأمير طرابلس وأمير حلب وأمير صفد من ميناء طرابلس بمراكب وعسكر إلى جهة الماغوصة في قبرص، ومنها إلى الملاحة في رأس العجوز، حيث التقوا هنا عمارة قبرصيّة واثني عشر مركباً كبيراً. ثمّ وصل أخو ملك قبرص البرنس كندس طابيل ومعه نحو خمسمئة خيّال وثمانية آلاف راجل، وبعد قتالٍ شديد هُزِم القبارصة ونهب المسلمون عتادهم وأخذوا منهم نحو سبعماية أسير إلى عجلات ومدافع وأسلحة، ثمّ توجّهوا نحو اللامسون وأخذوا حصنها ونهبوه وأسروا مَن فيه وهدموه.

وتكرّرت غارة مصر على قبرص (١٤٢٥م) فاحتلّ المصريون ثانية حصن اللامسون حيث دارت المعركة مع القبارصة فظفر المسلمون بهم وقتلوا أخا الملك كندسطابيل وأسروا الملك وخرّبوا قرى كثيرة، حتى وصلوا إلى الأفقسية، أي كرسي المملكة القبرصيّة، فأحرقوا دار الملك وأسروا ونهبوا، وعادوا إلى الديار المصريّة ومعهم الملك الأسير. ثمّ مثل الملك أمام السلطان وجعلوه يقبّل الأرض مرّات عدّة، قبل أن يودع السجن، ثمّ يخلى سبيله مقابل مايتي ألف دينار ويعود إلى قبرص من طريق الاسكندريّة.

ولمّا جلس البابا أوجان الرابع على الكرسي الروماني أراد عقد مجمع عام في مدينة فلورنسا، ووجّه رسائل وموفدين إلى ملك اسطنبول وإلى رؤساء طوائف الشرق لحضور المجمع بهدف الاتفاق بين الكنيستين الشرقيّة والغربيّة. ولمّا وصل فراجوان رئيس دير بيروت ومَن معه إلى طرابلس للسفر إلى فلورنسا، علم السنجق بذلك فقبض عليهم وأخضعهم للتعذيب الشديد وزجّهم في السجن قبل أن يدفع البطريرك يوحنا الجاجي كفالة تحريرهم.

توفي الملك الأشرف برسباي وملك بعده ابنه الملك العزيز يوسف الرابع والعشرون من ملوك الترك والتاسع من الجراكسة، لكن سرعان ما قُبض عليه وخُلع من السلطة وسُجن في قلعة الجبل، بعد أربعة وتسعين يوماً من توليته. ثمّ في السنة ١٤٣٨م، حلّ في سدّة الملك الملك الظاهر جقمق الاينالي بن عبدالله في القاهرة، لكن مع بدء عهده قامت اضطرابات في أنحاء المملكة، وامتدّت من حلب إلى القاهرة، حيث خرج أحد أعيانها الأمير قرقماس عن طاعته والأعيان ثغري وأرمش نائب حلب واينال الجكمي نائب دمشق، فقبض السلطان عليهم وقتلهم، كما قبض على أعوان الملك الأشرف وقتلهم، وأقام على نيابة الشام جلبان.

ثمّ توفي البطريرك يوحنا الجاجي (١٤٤٥م) فاجتمع الأساقفة ورؤساء الأديار وأعيان من الشعب، وانتخبوا المطران يعقوب الحدثي لسدّة البطريركيّة، ونالوا له التثبيت من البابا أوجان الرابع، والجاجي هو أوّل البطاركة الذين سكنوا في قنوبين.

وفي السنة ١٤٥٢م حاصر السلطان محمّد القسطنطينيّة وقتل قسطنطين ملكها، وبعد موته تولّى ابنه الملك المنصور عثمان الذي تمّ خلعه بعد أشهر ليجلس مكانه في السلطنة الملك الأشرف اينال الأجرود الناصري الكجكي. وفي عهده طمع المماليك بالعرش فراحوا يعملون في الرعيّة خطفاً وسرقة وسبياً.

ثمّ أعاد السلطان محمّد بن السلطان مراد العثماني حصار القسطنطينيّة برّاً وبحراً، ودخلها بعد خمسين يوماً، فاهتزّت دولة الروم وضعفت شوكتها، وقطع السلطان بذلك الطرق على التتر والخوارزمية والمغول في بلاد الشام، وأمّن غزواتهم.

توفي المقدّم بدر الماروني رزق الله، فخلفه المقدّم عبد المنعم ابن أخيه عساف، وكان شاباً جاهلاً، وحدث اضطرابٌ كبير في جبل لبنان كاد أن يتسبّب بخراب البلاد، في وقت انتشر الإيمان المسيحي بقوّة في جهات بشري وبرز توجُّه قويّ لدى الناس نحو الإيمان والتمسّك بالدين. ولذلك تمّ إرسال ديوسقوروس بن ضو أسقف اليعاقبة في القدس ليزرع في أذهان الناس في تلك المناطق بذور الهرطقة. وتمكّن هذا الوافد من استمالة نوح البقوماني الشاب القاصر والجاهل فتبعه (١٤٨٨م) فعلّمه القراءة والكتابة وقواعد حمل الناس على الهرطقة والشك والكفر. وراح نوح يزرع أفكاره في الناس وانضمّ إليه بعض الجهلاء، وبينهم قساوسة، وأقاموا لهم مدارس للصبيان والبنات، وباتوا كالأفاعي التي تبثّ السموم. وزيادة على ذلك، سيم نوح أسقفاً من

اليعاقبة، وتكنّى باسم قورللوس، وتمكّن من اجتذاب المقدّم عبد المنعم إلى دعوته، الأمر الذي شكّل ظاهرة أقلقت البطريرك يعقوب الذي تصدّى لهؤلاء الذين استقووا بسيف المقدّم، لكن الأهالي تمكّنوا من طردهم من جبّة بشري، فانتقلوا إلى حردين في بلاد البترون وتبعهم بعض أهالي القرية. وأمّا نوح فرُسم بطريركاً قبل أن يستردّ اللّه أمانته.

وفي السنة ١٤٥٦م، يذكر القس الياس من معاد، أنّ جحافل من الجراد اجتاحت بلاد الشام ومصر والفرات، تبعها غلاءٌ فاحش واستشرى الجوع والمرض في الناس، وبعد سنة أمر البابا فاليسطوس بحشد الجيوش لتحرير الأراضي المقدّسة.

ثمّ توفي البطريرك يعقوب في دير سيّدة قنوبين (١٤٥٨م) وخلفه البطريرك بطرس بن يوسف بن يعقوب الشهير باسم ابن حسّان من قرية الحدث، وكان المطران يعقوب بن المقدّم مدبّراً لبشري، فيما رسم البطريرك بطرس الخوري المدعو ملكا الحبيس مطراناً، والأسقف داود بن يوحنا على رشعين.

وفي السنة ١٤٦٠م مات الملك الأشرف اينال الأجرود وحلّ بعده ولده الملك المؤيّد أحمد، الثالث عشر من ملوك الجراكسة في مصر. ثمّ خلِعَ المؤيّد بعد أربعة أشهر من توليته، وقام على تخت السلطنة الملك الظاهر اخشقدم بن عبد اللّه التاسع والثلاثون من ملوك التتر فقبض على الملك المؤيّد بن اينال وأرسله إلى سجن الاسكندريّة، ونقل البشمقدار من حلب إلى نيابة الشام.

لكن السنة ١٤٦٣م، وفي أيام الملك الظاهر خشقدم، يذكر المطران داود بن يوحنا المقدسي من حدشيت أنّ نجماً مذنّباً ظهر في الشرق، عقبه حرٌّ شديد على السواحل فمات الزرع والحبوب جميعها، وضرب البلاد غلاءٌ فاحش، فهلك الكثير من الناس والحيوان جوعاً واستمرّت هذه الحال لنحو سنتين فيما الناس لم يعد لديهم سوى العشب ليقتاتوا به.

وفي هذه السنة قام من الشرق رجل تركماني يدعى شاه صوار بن أبي الغادري وخرج على السلطان الذي أمر بحشد الجيوش الشاميّة والحلبيّة لمقاتلته، فجرّد الأمراء العساكر من مصر ودمشق وصفد والرملة والقدس وطرابلس وحماة وحمص وحلب، والمقدّمين والفلاحين، وعلى رأسهم بدر بك نائب الشام، وزحفت هذه الجيوش جميعاً نحو حلب. لكن شاه صوار استطاع إيقاع الهزيمة بهم وغنم خيولهم وسلاحهم وأموالهم، وبلغ بجيشه نهر الأردن. وقيل إنّ هذا التركماني كان يخرج كلّ يوم بأربعة وعشرين ألف مقاتل، فوطأ بلاد الشام ثلاث مرات ونهب

وقتل وسبى، وكان الناس في ضيقٍ شديد، لاسيّما النصارى الذين أنقدتهم الجبال التي لاذوا بها. ثمّ توفي المقدّم عبد المنعم بن سيفا الذي دعم اليعاقبة، وخلفه المقدّم رزق اللّه وولداه عساف وجبريل.

وتوفي الملك الظاهر خشقدم (١٤٦٧م) وولّي بعده السلطنة الملك الظاهر يُلباي بن عبد اللّه الخامس عشر من ملوك الجراكسة والأربعون من ملوك الديار المصريّة، الذي توفي ليجلس بعده على سرير السلطنة الملك الظاهر تمربغا، فقام عليه الخشقديّة وخلعوه ليلاً وأقاموا الملك خيربك بن عبد اللّه، ثمّ خلعوه بعد شهرين، ليبايعوا الأمير الكبير الملك الأشرف قيت باي، فاستقامت الأمور وتمكّن من تجهيز الجيوش لمقاتلة شاه صوار الغادري الذي هزمه.

إلاّ أنّ السلطان الأشرف قيت باي أعاد تجهيز الجيوش مرّة ثانية بإمرة القائد أمير دوادار، واسمه يشبك الصغير، كما أرسل صاحب دمشق ملك الأمراء برقوق، فهزموا جيوش صوار شاه وقبضوا عليه وأرسلوه إلى مصر، حيث أمر السلطان بقتله، وولّى على مملكته أحد أقاربه.

وفي السنة ١٤٦٨م ضرب الوباء الكبير بلاد الشام، وكان يشيّع يومياً في دمشق ألف جنازة وأكثر.

وبعد سنة بنى الشدياق قسطنطين بن الريس سركيس بن الياس بن فارس بن الخوري داود في منتصف بلدة العاقورة القبو المعروف بقبو الشدياق قرب كنيسة مار جرجس التي كان أجداد الشدياق بنوها هناك، والمكتوب على عتبتها أنّ الذي بناها هو الراهب الياس بن سركيس بن الريّس حنا.

بعد وفاة السلطان محمّد بن سلطان مراد من ملوك بني عثمان (١٤٨١م) تولّى الملك بعده ولده السلطان بايزيد، وكان المقدم رزق اللّه البشراني توفي منذ سنوات وخلفه ابن أخيه عساف بن عبد المنعم من سلالة آل سيفا، وكانت الفوضى سائدة جبل لبنان، استغلّ الوضع موسى بن عطشه اليعقوبي وأرسل بعض رهبان هراطقة حاملين هدايا وكتاباً سريانياً وكرشونياً زاخراً بالبراهين الفاسدة والمضلّلة والتعاليم المزوّرة، تقول بأنّ المسيح ذو طبيعة واحدة وليس طبيعتين كما يقول الأطهار وكما أكّدوا في أيام لاوون بابا رومية والملك مرقيان في المجمع العام الذي عُقد في مدينة خلقيدونية. ولمّا حضر هؤلاء إلى جبل لبنان قدّموا الهدايا إلى المقدّم منعم وكذلك الكتاب، ووعدوه بخيرات كثيرة، فقبلهم وشيّد لهم كنيسة قرب منزله باسم برصوما الأرتوقي في جبّة بشري، لكن الشعب هناك قام عليه فاضطُرّ إلى إرسالهم نحو حردين، إلاّ أنّ البطريرك

والرؤساء أمروا بنبذهم ونفيهم، خلافاً للمقدّم الذي استمرّ في دعمهم. وهكذا قويت شوكتهم وأعلنوا عقيدتهم في جبّة بشري فتبعهم كثيرون من بقوفا وقرية موسى، ووفدت إليهم عيال من بلاد الشرق مثل بيت شاهين في حصرون وبيت الحاج حسن في حدشيت وغيرهم، خصوصاً الخوري حنا الذي عمد إلى التزوير في أثناء نسخه الكتاب المقدس زارعاً «الزوان» كما يقول ابن القلاعي.

وبعد وفاة مطران إهدن (١٤٧٣م) اختار أهلها الخوري يعقوب بن الخوري سمعان بن ريس إهدن فرسمه البطريرك بطرس مطراناً وسكن دير مار سركيس في إهدن. وبعد وفاته حلّ مكانه الخوري حزقيال رئيس دير حوقا، ثمّ (١٤٨٠م) سام البطريرك بطرس ابن أخيه شمعون مطراناً على العاقورة واليمونة من بلاد بعلبك وسكن في دير قنوبين.

ووسط حال البلبلة التي سادت جبّة بشري نتيجة ما أثاره الرهبان الهراطقة بين الناس والمقدّمين طمع أهالي الضنية ومقدّموها بجبّة بشري وجوارها فجمعوا رجالهم وزحفوا على الجبّة ليأخذوها إلى جانب المسلمين، كون الضنية كانت محكومة من السنّة، فدخلوها وخرّبوا أديارها وكنائسها وطردوا النصارى منها وسكنوها. لذلك جمع المطران يعقوب المشايخ (١٤٨٩م) الذين أجمعوا على القتال والمقاومة وطلبوا النجدة من المقدّم، فانضمّ إليهم رجال من القرى القريبة وصعد الجميع إلى سيّدة الحصن، وانقسموا إلى أربع فرق، وأعدّوا خطّة محكمة، تقضي بأن تتراجع الفرقة الأولى عند البويب أمام العدو بحيث تكمن له الفرقة الثانية تحت سيّدة الحصن، وتبقى الفرقتان الثالثة والرابعة بين إهدن ومرجة تولا. ولمّا وصل عسكر الضنية إلى حدود إهدن في طريقهم إلى البويب انقضّ عليهم عسكر الفرقة الأولى فقاتلهم ثمّ تظاهر بالهزيمة وأكملوا التراجع حتى المرجة، حيث انقضّ عليهم رجال الجبال وأبادوهم جميعاً، ولم ينجُ منهم سوى اثنين سارعا إلى طرح الصوت في طرابلس والضنية، فيما عمل المنتصرون على طمر جثث القتلى وخيلهم وإخفاء نحو ألفي جثة في إحدى المغاور، وأزالوا كلّ آثار للمعركة. ولمّا وصل الكشافة من طرابلس للاستطلاع لم يجدوا أي أثر، وأعطاهم الأعيان بعض المال فعادوا راضين.

ثمّ تمّت رسامة المطران ابراهيم الإهدني (١٤٨٨م) واتخذ مقرّاً له في دير مار يعقوب الحباش (نسبةً إلى قسّ حبشي كان اسمه يعقوب لجأ إلى هذا الدير وسكنه مدّة قبل أن يكشف أمره ويطرده الإهدنيون لينتقل إلى دير مار جرجس في حدشيت حيث طُرد ثانيةً). كذلك توفي مطران

بشري حزقيال وسيم مكانه الخوري يوسف على بشري والمطران شمعون على العاقورة واليمونة، كما ذُكر سابقاً.

وفي السنة ١٤٩١م حلّت النكبة بالديار المصريّة وقضى فيها علماء وأعيان كبار، وكان يتم دفن ألف وثلاثماية شخص يومياً في مصر ونحو ألف في دمشق، نتيجة ما عُرف بالفناء العظيم سنتذاك. وبعد سنة توفي البطريرك بطرس بن حسان الحدثي، وولّي البطريركيّة الإنطاكيّة البطريرك شمعون بن حسان – أيضاً – من حدث الجبّة، وكان مخوّلاً على دير قنوبين القس الياس بن زرزور الحدثي، والأسقف يوسف الخيزفانة على موارنة قبرص. إلاّ أنّ الوضع في الجبل تفاقم نتيجة إصرار المقدّم عبد المنعم بن سيفا على دعم اليعقوبيّة ما أحدث انقسامات وفوضى في الجبل، وبلغ الأمر إلى البابا في روما، خصوصاً بعدما تخلّى كثيرون عن تقاليد آبائهم الدينيّة وخرجوا عن طاعة الكرسي الرسولي، وأُرسلت الكتب إلى البطريرك مع الراهب جبرايل القلاعي، وأخرى إلى روما تأكيد للاعتصام بطاعتها.

ثمّ شهدت السنة ١٤٩٤م واقعة بين أهالي داريا وأهل الجوار في محيط دمشق، فسقطت الأولى في أيدي مهاجميها وعمل العسكر الدمشقي قتلاً في منطقة الأشرفية، واستولى العرب على الحجّاج فقتلوا منهم جماعة كبيرة ونهبوا متاعهم، وهبط ثلجٌ كثيف على المنطقة فأهلك ناساً وحيوانات.

وبعد سنة توفي الملك الأشرف قَيت باي بن عبدالله، آخر الملوك العادلة، وولّي بعده ولده الملك الناصر محمّد قانصوه أبو السعادات، التاسع عشر من ملوك الجراكسة في مصر، وفي عهده قامت خيانات وحروب بين الأتراك وتبدّد الجيش وحصلت اغتيالات وجرائم قتل طالت كبار القادة العسكريين... وفيها بنى القس بركة البقوفاني محبسة مار مخايل فوق قزحيا، حيث حلّ فيها بركة حبيساً حتى مماته، وتحوّلت مقرّاً لكثيرين ممَّن لاذوا بها. وفي تلك السنة أيضاً توفي المقدّم عبد المنعم أيوب البشراني الذي حاد عن إيمانه وعضد اليعقوبيّة.

وفق كتاب التاريخ المطبوع للعلاّمة الدويهي، جاء «أنّ الأسقف جبرايل القلاعي تولّى كرسي الأبرشيّة في قبرص، بعد وفاة مطرانها يوسف من الكيزفانة، فأقام أولاً في دير القديس نهرا في المدينة، ثمّ في دير القديس أنطونيوس كرسي الموارنة، ثمّ انتقل إلى دير القدّيس جرجس طالا، وساس رعيّته أحسن سياسة»، وكان ذلك في السنة ١٥٠٧ للميلاد.

أمّا بعد وفاة المقدّم عبد المنعم الذي انحرف عن الدين فتولّى المقدميّة ابنه جمال الدين يوسف

وكان مستقيم الديانة وجدّدت زوجته كنيسة ماري حوشب في بقاعكفرا.
وفي السنة ١٤٩٦م كانت وفاة قانصوه اللحياني صاحب دمشق، وحصل فراغ من الحكام فقامت أعمال نهب وقتل، ونشبت حرب بين اليمانية والقيسيّة، إلى أن وصل اينال الفقيه من حلب إلى دمشق نائباً عليها، لكن آق بردي الدوادار منعه عن دخولها فقامت بينهما حروبٌ كثيرة. ثمّ جاء كرتباي الأحمر نائباً عليها وإلى حلب جان بلاط ناظراً، وبعد حصارٍ شديد دخل كرتباي دمشق، فانقسم الترك قسمين: فرقة مع آق وأخرى مع قانصوه خمسمئة ودارت بين الفريقين معارك شرسة.
بعد ذلك اتفق آق واينال الأعور نائب طرابلس واقباي نائب غزة وغيرهم، وخرج الجميع من طرابلس قاصدين الديار المصريّة. وخرج قانصوه بعسكره من مصر والتقى الطرفان في خان يونس قرب غزة، وحصلت معركة شديدة هُزم فيها المصريون ولم ينجُ منهم إلاّ نفر قليل، وقُتل قانصوه الذي كان مقدّم الجيش المصري.
ثمّ إنّ كرتباي الأحمر دخل مدينة دمشق وجار على أهلها وسلبهم أموالهم وتوفي (١٤٩١م)، وتولّى بعده عليها جان بلاط الناظر وذهب إلى حلب فأقاموه نائباً عليها. وفي تلك السنة دخل القس سمعان بن الحاج يوحنا من بنهران إلى دير مار قوزما ودميان في جبّة بشري وأعاد إعماره من جديد بعدما كان تعرّض للتخريب.
وفي السنة ١٤٩٨م استشرى في بيروت وباءٌ خطير قضى على أناسٍ كثر. وفيها تآمر الدوادار الثاني طوما باي على الملك الناصر محمّد وقتله، وجلس على عرش السلطنة الملك الظاهر قانصوه في حلب بن عبدالله خال الملك قيتباي، وهو الخامس والأربعون من ملوك الترك والعشرون من الجراكسة في مصر. ثمّ توجّه جان جنبلاط صاحب دمشق إلى مصر، حيث حرّض العسكر على الملك الظاهر قانصوه فانقلبوا عليه وأسروه وزجّوه في السجن في الاسكندريّة، وتولّى مكانه الملك الأشرف جان بلاط، وتولّى حلب باي الذي كان نائب قلعة دمشق، قبل أن يصبح نائباً على طرابلس، فيما سار قصروه من حلب إلى دمشق نائباً عليها وأظهر العصيان على السلطان الأشرف جان بلاط الذي جهّز جيشاً لقمع التمرّد. ولمّا دنا طومان باي من دمشق خرج نائبها قصروه إلى لقائه وأنزله في القصر الأبلق والعسكر في المرجة والميدان الأخضر، ثمّ توجّه قصروه وبعض ناسه إلى عند طومان باي، فهبّ كلّ أمراء مصر ليقبضوا

عليه، فأمر طومان بالقبض عليهم، فأمسكوا بهم وقيّدوهم بالسلاسل، وحضرت عساكر قصروه، فأقدم المصريون على مبايعة طومان بالسلطنة ولُقّب بالملك العادل الطومان باي بن عبد اللّه.

ثمّ إنّ طومان باي ولّى نيابة دمشق لدولة باي، وأخذ معه العساكر الشاميّة والمصريّة، ومعه قصروه، ودخل إلى مصر فدارت هناك معارك كثيرة بين عساكر جان بلاط وطومان باي، كان بنتيجتها أن قبض الأخير على الأول وقتله وجلس على تخت السلطنة، وهو الواحد والعشرون من الملوك الجراكسة في مصر، ثمّ قضى على قصروه والكثيرين من الأمراء في الديار المصريّة، وقانصوه الغوري دوادار المسؤوليّة في ديوانه. ولم يطل الأمر حتى ضاقت الناس بطومان باي فقام أتابك العساكر بخلعه وتولية الملك الأشرف قانصوه الغوري بن عبد اللّه.

وفي السنة ١٤٩٩م ظهر في بلاد العجم شاه اسماعيل بن الشيخ حيدر، الذي أخضع كلّ ملوك العجم لسلطانه.

الفصل الحادي عشر

في حوادث سنوات الألف وخمسماية مسيحيّة

شهدت أعوام الخمسينات بعد الألف مسيحيّة حوادث كبرى كثيرة، بدأت في السنة ١٥٠٢م حين تولّى سيباي نيابة حلب، وقانصوه المحمدي نيابة دمشق، وسرعان ما ظهر الأخير في البقاع فهرب منه ناصر الدين بن محمّد بن حنش مقدّم البقاع.

ثمّ وقعت الفتنة بين أهل الشام ونائبها المحمدي وتخلّلتها محن وخيانات، وفي تلك السنة توفي الأسقف تادروس الذي كان ساكناً في دير سيّدة عينتورين، وتسلّم الدير بعده تلميذه القس وهبه الراهب.

وبعد سنة قيل إنّ النيران الأربع، أي زحل والمشتري والمريخ والقمر، التقت في برج السرطان، في إحدى العجائب النادرة الحدوث. ثمّ سرعان ما هطلت الأمطار بغزارة وأحدثت سيلاً عظيماً عمّ الأقطار لمدّة سبعة وعشرين يوماً، بما فيها خمسة أيام لم يُرَ فيها شمس ولا قمر، وفاضت الأنهار في دمشق وجرفت مياه بردى أناساً وحيوانات وبيوتاً وحوانيت. أمّا نهر العاصي فخرّب كثيراً من العمران والبساتين، فيما اجتاح نهر الليطاني في البقاع الحقول والمباني والناس ودمّر جسر القرعون المبني من الحجار الضخمة. كذلك دمّر نهر صيدا المعروف بنهر الفريديس كلّ العبّارات التي كانت قائمة عليه من الجسور الخشب، وارتفعت مياه نهر الصفا فوق الجسر بما يزيد عن قامة رجل، وهدمت مياه نهر الكلب الجسر القديم، واقتحم موج البحر مرفأ بيروت، وفاض نهر طرابلس وجرف عدداً من المساكن والحوانيت...

وفي تلك السنة حشد الأمير ناصر الدين بن حنش مقدّم البقاع خمسة آلاف مقاتل قاصداً عبد الساتر بن بشاره في قرية شيحين، إلاّ أنّ حملته وُجِهت بمطرٍ عظيم قضى على نحو مايتي رجل من رجاله.

وفي السنة ١٥٠٥م هاجم نائب الشام ومعه عسكر جوان بك الفرنجي داودار البقاع فقُتل الأخير عند جسر كامد اللوز ومعه ثلاثماية من مقاتليه، ثمّ جمع النائب عسكره وتوجّه بنفسه إلى البقاع، لكنّه

توفي وهو بعد في دمشق، وتولّى بعده سيباي الأشرفي نيابة الشام، الذي قبض بعد أيامٍ على الأمير فخر الدين عثمان بن معن أمير الأشراف من أعمال صيدا، الذي توفي لاحقاً.

ثمّ توفي الأسقف يوسف من الخيزفانة في قبرص وتولّى الكرسي بعده الأسقف جبرايل القلاعي الذي تنقّل في سكناه ما بين دير مار نوهرا ومار انطانيوس كرسي الموارنة في قبرص، ثمّ دير مار جرجس طالا حيث عُرف بحسن إدارته شؤون الرعيّة.

وتكرّرت كارثة الشتاء على السواحل، ولكن هذه المرة بثلوجٍ كثيفة قيل إنّها بلغت على الساحل نحو سبعة أشبار ولا قياس لها في الجبال، فقُطعت الطرق من السابع من شباط حتى أواخر نيسان وفُني الحيوان وفرّت الوحوش حتى من الأماكن المنخفضة. وجاء على الهامش أنّ القس موسى العكاري صار رئيس دير حوقا وهو كان تلميذ الخوري اسطفان والقس ميخائيل (١٥٠٧م).

وفي السنة ١٥١٠م حصل ظلمٌ شديد على الناس في بلاد الشام فاضطُرّ كثيرون منهم إلى الهجرة وترك مواطنهم، وقيل إنّ مركباً من بلاد جبيل دخل إلى قبرص وعلى متنه ماية وعشرون إنساناً، بينهم الخوري حنا بن الزطيمية من ترتج، وكان معه مواطنه الخوري لوقا بن بطرس الذي عمّر كنيسة في قبرص على إسم مار لوقا الإنجيلي في قرية كليبيني، كما عمّر الخوري زكريا كنيسة مار ماما...

لكنّ الضيق والاضطهاد لاحقا المؤمنين إلى قبرص، بسبب الجراد الذي التهم الزرع، كما من الحكام الذين كانوا نصارى وحمّلوهم الكثير من القيود وفرضوا عليهم الضريبة، ما حمل الكثيرين منهم على العودة إلى بلاد الشام، وتدخّل البطريرك وطالب البابا لاوون بالتدخّل لدى ليوناردوس أمير البندقية ليكون رحوماً بالموارنة.

في السنة ١٥١١م توفي الأمير يونس بن معن، وسيم الأسقف سمعان على الأفقسيّة، فيما الأسقف جبرايل ما يزال على قيد الحياة، وكان يساعد البطريرك في قنوبين آنذاك المطرانان شمعون ويعقوب، وكان الخوري جرجس الهذباني حبيساً في دير مار قزحيا. وفي تلك السنة عمّر الخوري بركة البقوفاني محبسة مار مخايل في قطين التي كانت مهجورة وسكن فيها. وقيل إنّ تلك السنة أيضاً حملت إلى الناس ضيقاً شديداً ومرض الجدري، وتلاه داء الجرب الذي يسبّب حكاكاً شديداً يمنع المصابين به عن النوم...

بعد اثنتين وثلاثين سنة، مدّة جلوسه على عرش السلطنة كملك على بلاد الروم، توفي السلطان

بايزيد، وحلّ مكانه ابنه السلطان سليم (١٥١٢م). وفي تلك السنة وضع أهالي إهدن الحجر الأساس لكنيسة السيّدة.

وفي السنة التالية ضرب الغلاء العظيم بلاد الشام، وبيع شنبل القمح في جبل لبنان بأربعين درهماً وفي حلب بماية، وقلّة الزيت بماية وخمسين. وفيها سيم المطران قورياقوس من بيت حبلص من إهدن وسكن في دير مار يعقوب وحُدّدت رعيّته في تولا وبسلوقيت، وأظهر اهتماماً عبر رعايته الحبيس جبرايل الهدناني الذي كان يقوم بنسخ الكتب الكنائسيّة. ثمّ أرسل البطريرك القاصد بطرس إلى روما حاملاً مكاتيب إلى البادري مرقوس من فلورنسا ورديان بيروت على رهبان مار فرنسيس، ووصلت المكاتيب إلى البابا لاوون العاشر وفيها ما تعرّض له الموارنة من محن وظلّوا متمسّكين بكنيسة روما، ففهم البابا أنّ البطريرك يريد درع التثبيت، ولذلك جمع الكرادلة، لكن القاصد لم يخبرهم بأنّ البطاركة السابقين كانوا يأخذون التثبيت من روما. لذلك طلب من القاصد العودة إلى جبل لبنان حاملاً كتاباً إلى البطريرك شمعون يطلب فيه البابا تزويده كلّ الوثائق والسجلاّت الموجودة لدى البطريركيّة وكيفيّة إتمام رسامة البطاركة، وما هي أمانتهم وثياب الكهنوت التي يستعملونها في خدمة الأسرار... الخ. ومن هنا كانت زيارة الوفد البطريركي إلى روما حيث تولّى شرح العقيدة المارونيّة عبر كتاب كبير موجّه إلى بابا روما، وفيه شروحٌ واسعة، إضافةً إلى مطالب الموارنة من الكرسي الرسولي.

وفي السنة ١٥١٥م حمل الأب سريانو رسالة من البطريرك شمعون إلى البابا لاوون العاشر، ومعها رسائل بطريركيّة قديمة، وقُدّمت هذه الرسائل مع بطرس القاصد إلى البابا، وبينها ست رسائل كان بعثها بطاركة الموارنة في أعوام سابقة وهي: رسالة البابا زخيا الثالث (١٢١٥م) إلى البطريرك أرميا، رسالة البابا اسكندر الرابع (١٢٥٦م) إلى البطريرك شمعون، رسالة البابا أوجانيوس الرابع (١٤٢٩م) إلى البطريرك حنا الحاجي، رسالة البابا نقولا الخامس (١٤٤٧م) إلى البطريرك يعقوب الحدثي، رسالة البابا كاليستوس الثالث (١٤٥٥م) إلى البطريرك يعقوب الآنف الذكر ورسالة البابا بولس الثاني (١٤٦٣م) إلى البطريرك بطرس بن حسان الحدثي.

وبعدما قرأ البابا لاوون هذه المجموعة من الرسائل والوثائق عن حياة الموارنة وإيمانهم وطقوسهم وكنائسهم، والظروف التي اعترضت مسيرتهم الإيمانيّة وما عانوه من اضطهاد وقهر وقمع من غير المؤمنين وأصحاب البدع، وظلّوا متمسّكين بإيمانهم، ثابتين في دينهم، شهد في رسالته بأنّ فرحاً

عظيماً قد ملأ قلبه، ورفع التسابيح والشكر إلى اللّه، وأكّد أنّ الكنائس الشرقيّة ومؤمنيها بألف خير، رغم ميدان الهرطقة والكفر والتشكيك الذي يحوطها ما يجعلها وردة في حقل من الشوك.
وعلى الأثر أرسل البابا لاوون درع البطريركيّة إلى البطريرك شمعون الحدثي وثبّته على الملّة المارونيّة في الأمور الروحيّة والجسديّة، على أن يكون لها كالرأس وهم في منزلة الأعضاء الخاضعين، وأرسل له كتاباً بذلك، وفيه شروط استعمال الميرون وتقديسه، والعماد عند كمال السن، وتناول القربان المقدّس... الخ. كما أرسل البابا كتاباً إلى أمير البندقيّة ليوناردو لاوردان طالبه فيه أن يكون حليماً وشفوقاً وكريماً تجاه الموارنة القاطنين في جزيرة قبرص، وكتاباً آخر إلى المقدّم الياس ليبدي اهتماماً وغيرة على أمور البيعة التي تخصّ طائفته، وكتاباً ثالثاً إلى مطران الأفقسيّة ينهاه به بأمر الطاعة عن أرزاق دير مار يوحنا وأوقاف الملّة المارونيّة. كذلك أرسل مكتوبين إلى البطريرك والعموم بأنّ كنيسة مار يوحنا التي في أرض الأفقسيّة وسائر الأوقاف هي للموارنة في جزيرة قبرص، وتكون في تصرّف البطريرك وأيّ مطران أو أسقف يعتدي عليها، بعد اشتهار هذه الرسائل، يحرَّم من تقديس الأسرار، ومَن هو دونه يقع عليه الحرم القاطع. ثمّ كتب إلى البادري فرنسيس من الكوه والبادري فرنسيس سوريانو من رهبان مار فرنسيس لكي يزوراه ويرشدا الناس في أمور الدين، وبعث إليهما بسجلّين كان أعدّهما البابا أوجان الرابع في المجمع الذي عقده في مدينة فلورنسا، أحدهما خاص بطائفة الأرمن والآخر بالملّة اليعقوبيّة، على أن يعطى هذان السجلان إلى البطريرك شمعون، ليدرسهما مع طائفته ويرسلهما إلى الأرمن واليعاقبة.
كذلك أرسل البابا غفراناً كاملاً أبديّاً إلى الطائفة المارونيّة، معتبراً أنّ مَن يزور كنيسة الكرسي في الأعياد الربانيّة وفي نياحة السيّدة وميلاد يوحنا المعمدان وعيد الرسولين بطرس وبولس وعيد الصليب يعترف ويقرب ويصنع مع هذه الكنيسة حسنة وينال غفراناً كاملاً لكلّ خطاياه. كما حضّ المؤمنين على مساعدة بعضهم وترميم كنائسهم وتحمّل الشدائد والمظالم التي تعترض مسيرة حياتهم بصبر، وللكهنة سلطة حلّ كلّ خطايا التائبين.
ولمّا وصلت هذه الرسائل، مع التثبيت والبدلات، إلى البطريرك شمعون تلقّاها بفرحٍ عظيم وشكرٍ جزيل، وقد تمّ إقرار هذه الرسائل في ما بعد في المجمع باللغتين العربيّة واللاتينيّة، ومنذ ذلك الحين بدأ البعض بتعلّم السريانيّة، وذلك للمشاركة في القداديس والطقوس المارونيّة.
وشهدت السنة ١٥١٦م الموقعة التاريخيّة الشهيرة بمعركة مرج دابق بين السلطان سليم بن عثمان

ملك القسطنطينيّة وملك مصر الأشرف قانصوه، بعدما كان السلطان شنّ حربه على ملك العجم اسماعيل شاه وأكمل زحفه حتى وصلت جيوشه إلى تبريز حيث هزم جيش قزل باش وفتح تبريز وأطبق على اسماعيل شاه. وكانت بين الغوري واسماعيل مودّة وعلاقات جيّدة، فكاتب الأول الثاني ونصحه بأن يحرق كلّ أهراء القمح والشعير قبل سقوطها في يد السلطان سليم، وينصب كميناً للقوافل التي تحمّل المؤن والعلف إلى جيش الغزاة، ففعل اسماعيل ذلك. ولمّا فُتحت تبريز وقعت مجاعة عظيمة، ولمّا استكشف السلطان انعدام وجود الحبوب في مخازن المدينة، أدرك أنّ الغوري وراء ذلك، فقرّر حينها أخذ مصر وإنهاء حكم الجراكسة فيها، وهكذا وقعت معركة مرج دابق قرب حلب بين عسكر الروم وعسكر الجراكسة.

وكان الغوري ملك مصر يخشى على نفسه من قائدي العساكر خير بك والغزالي اللذين كانا يكنّان له كرهاً شديداً، فلمّا بدأت المعركة أمر بعض أعوانه بقتلهما من الخلف في أول هجمة، لكنّهما أدركا المؤامرة وكاتبا السلطان سليم طالبَين منه الأمان فوعدهما خيراً بإعطاء مصر لخير بك والشام للغزالي. ولمّا استعرت المعركة فرّ الاثنان من الميمنة والميسرة بمَن معهما، وبات السلطان الغوري ومَن بقي معه في قلب المعركة، فقتل سيباي نائب دمشق ونائب طرابلس ونائب صفد، وهُزم جيشه هزيمة ساحقة. وأمّا الغوري فمات من دون أي إصابة، إذ أغمي عليه عندما قُتِل النوّاب وقضى غمّاً.

وبعد انتصاره في هذه المعركة سار السلطان سليم إلى مدينة حلب فدخلها وأعطى الأمان لأهلها فهلّلوا له في صلاة الجمعة ولقّبوه بخادم الحرمين. وبعد أيام دخل حماة وحمص، وزحف بجيشه إلى دمشق التي خرج أهلها للقائه طالبين منه الأمان فاستجاب لهم، ثمّ رتّب شؤون البلاد وعاد بجيشه إلى مصر بعدما ولّى على بلاد كسروان الأمير عساف. وفي تلك الأثناء جاء المتاولة (الشيعة) إلى كسروان من بلاد بعلبك وسكنوا في فاريا وحراجل وبقعاتا، كما سكن بعض أهل سنّة البقاع في فيطرون والقليعات وعرمون والجديدة وساحل علما وفتقا. وأمّا الدروز فأتوا من المتن والجرد وسكنوا في برمانا ومزارع كسروان، كما جاء نصارى من بلاد طرابلس وسكنوا في المجدل وعرمون والكفور والفتوح. كذلك وصل الشيخ حبيش بن موسى بن عبدالله بن ميخائيل من يانوح إلى غزير، وآل كميد والشدياق سركيس بن الخازن (١٥٤٥م) الذين خرجوا من جاج إلى بلونة...

بعد معركة مرج دابق وما تلاها من توسّع السلطان سليم إلى مناطق في المشرق العربي، اجتمع

الجراكسة في مصر ونصّبوا الدوادار طومان باي سلطاناً ولقّبوه بالملك الأشرف وأسندوا إليه كامل السلطة، فسارع إلى حشد جيوشه وخرج بها إلى الزيدانية في الجوار المصري، حيث نصب المدافع العملاقة لمواجهة الجيوش العثمانيّة. لكن الجواسيس أبلغوا السلطان سليم بالاستعدادات الميدانيّة المتخذة ضدّه من جانب الجراكسة، فأمر عسكره بالالتفاف عليهم من وراء الجبل المقطم، فاشتبك الجيشان في قتالٍ شديد وهُزم الأتراك وقُبض على السلطان طومان باي وصُلب عند باب زويله وقضى من عسكر الروم عددٌ كبير، كما قُتل الوزير الأكبر سنان باشا الذي أسف لموته السلطان سليم.

مع مقتل طومان باي انقرضت دولة الترك بعدما حكم منهم تسعة وأربعون سلطاناً، يجعلهم البعض خمسين. أمّا السلطان سليم فاهتمّ بأمور مصر وجعل الجراكسة أمراء يتولّون شؤون أوقافهم، وبات هو سلطاناً على البحرين والبرّين والحرمين وديار ربيعة والجزيرة وغيرها، لكن ظلماً كثيراً وقع على الناس في تلك الحقبة.

على أثر الانتصارات التي حقّقها السلطان سليم منذ معركة مرج دابق، واتساع نفوذه في مصر وبلاد الشام، هبّ أمراء المناطق إلى التقرّب منه وإعلان ولائهم له، ومنهم أمراء لبنان، فولّى الأمير قرقماز بن الأمير يونس بن معن على بلاد الشوف، والأمير جمال الدين اليمني على بلاد الغرب، والأمير عساف على كسروان وبلاد جبيل. وأمّا أمراء الغرب التنوخيون فلم يجرأوا على مقابلة السلطان لأنهم كانوا من حزب السراكسة. فالأمير عساف كان يمضي الصيف في عين شقيق، والشتاء في عينطورا، فيما يقطن أركانه على سواحل البحر، ولمّا نال عفواً عاماً من السلطان سليم انتقل إلى قرية غزير واتخذ منها سكناً له، وكان له ثلاثة أبناء هم حسن وحسين وقيتبيه، وآل الجميّل سكنوا قاطع نهر الكلب. وبعد وفاة الأمير عساف حاك أكبر أبنائه حسن مؤامرة استأثر بنتيجتها بالإمارة الكسروانيّة بعد نيل رضا باشية الشام. ولمّا وقع الخلاف على السلطة بين أولاد الأمير عساف، ولأنّ قيتبيه كان أصغرهم ومن غير أمهم رحل إلى الشويفات عند الأمير جمال الدين، فتدخّل الناس لإصلاح ذات البين بين الأشقّاء. لكن صودف أن نزل حسن وحسين إلى بيروت فغدر بهما شقيقهما قيتبيه وقتلهما، ولم يكن لأيٍّ منهما وريثٌ سوى ولد لحسن يدعى منصور، فعفا عنه عمّه ريثما يُرزق بولد. وهكذا استقرّ حكم غزير لقيتبيه وحده، فقبض على يوسف وأبيه سليمان من آل حبيش اللذين كانا خدماً عند أخويه فحبسهما في بيروت، ثم هجّرهما إلى مصر،

أمّا الشيخ حبيش ففرّ إلى لاسا مع ولديه زين وابراهيم عند الشيخ هاشم بن العجم.
وفي تلك السنة (١٥١٦م) توفي الأسقف جبرائيل بن القلاعي من لحفد وكان غيوراً على ملّته ومدافعاً عنها في وجه الهرطقات، وأغناها بعد موته بالمصنّفات الكثيرة التي خلّفها، ومنها كتب دينيّة وعظات ورسائل وسوى ذلك ما يشكّل ثروة للكنيسة والطائفة المارونيّة، وتمّت رسامة الأسقف مارون خلفاً له.
وفي السنة ١٥١٧م ولّى السلطان سليم جان بردي الغزالي على الشام، وأضاف إليها غزة والقدس وصفد والكرك، أمّا حلب وحماة وحمص وطرابلس والمدن البحريّة فأبقاها في أيدي عمّاله. وفي تلك السنة هبط ثلجٌ عظيم قضى على المزروعات والحيوانات، لاسيّما الماعز، وفيها توفي المقدّم الياس البشراني المعروف بعساف ولد سيفا بن المقدم يعقوب الذي كان البابا لاوون بعث إليه برسالة توصية بالرعايا المسيحيين، وخلفه ولده المقدّم عبد المنعم.
إلاّ أنّ المنيّة وافت السلطان سليم (١٥١٩م) وزحف الجراد على بلاد الشام والتهم كلّ أخضر فيها وكذلك الفاكهة والبذور، وأنتج ما ينتجه عادةً من غلاء وارتفاع أسعار جنونيّة للحبوب والمواد الغذائيّة الأساسيّة، وشمل الحرير والصوف والقطن والكتان والحيوان واللحوم والألبان، وبيع البغل بخمسة آلاف دينار والحمار بألف وخمسماية، وفق حمزة بن سباط المغربي، إلى المعادن والأخشاب وحتى حجار البناء...
وفي تلك السنة توفي عساف بن جمال الدين يوسف بن عبد المنعم أيوب مقدّم بشري، فتولّى المقدميّة كمال الدين بن عبد الوهاب الأيطوني المعروف بابن عجرمة الذي حكم جبّة بشري ثماني عشرة سنة. كذلك كانت رسامة الأسقف جبرايل بن حبلص الهدناني ابن أخ المطران قورياقوس.
في السنة ١٥٢٢م تمّت رسامة البابا أدريان السادس على كرسي روما، بعد وفاة البابا لاوون العاشر، فأوفد البطريرك شمعون القس موسى العكاري راهب دير حوقا والراهب الياس بن زرزور الحدثي من دير قنوبين، إلى روما لتقديم التهنئة والطاعة إلى البابا الجديد كما تقضي العادة. ولمّا وصل الموفدان إلى روما استضافهما الكاردينال برنردين شتاكروس أسقف اسطيا، إذ كان وكيل الطائفة المارونيّة في الكرسي الرسولي، قبل أن يمثلا أمام البابا ويقدّما الطاعة باسم البطريرك الإنطاكي والطائفة المارونيّة، كما قدّما له رسائل التهنئة التي تتضمّن طلباً للبركة من كنيسة روما أمّ كلّ الكنائس، والبابا خليفة بطرس ونائب المسيح وراعي المؤمنين. ولمّا عاد الموفدان البطريركيان

زوّدهما البابا كتاباً محرّراً في ٢٢ تشرين الأول، مع بذلتين ومتمّماتهما، إلى أدوات كنسيّة أخرى عربون رضا روما عن الطائفة المارونيّة ورؤسائها الروحيين.

السنة ١٥٢٣م توفي الأمير قيتبيه بن عساف وقبض على الحكم ابن أخيه المير منصور، وأعاد إليه الشيخ يوسف والشيخ سليمان من آل حبيش، وأعطى بلاد جبيل للشيخ هاشم العجمي، وظلّت طرابلس سنجقية في يد الدولة، على أن يضمن ابن شعيب للأمير منصور نفوذاً في بلدان جبيل والبترون والجبّة والكورة والزاوية والضنية.

لكن سرعان ما دبّ الخلاف بينهما بسبب الأموال، فأرسل الأمير منصور نحو خمسماية رجل إلى حارة النصارى، وأوفد إلى عبد المنعم وأولاد حبيش كي ينجزوا الحسابات الماليّة مع ابن شعيب أمام القاضي في جامع طيلان، لكنّهم وثبوا عليه وقتلوه وقتلوا ابنه ورتّبوا أمورهم مع القاضي الذي أعطاهم فتوى البراءة. كما بعث أربعين رجلاً قتلوا عبد الساتر الكردي وأباه عندما حاول هاشم التمرّد على طاعة المنصور.

ثمّ أرسل المنصور مَن يقتل القادر شيخ جبيل وشيخ بيت الحسامي، كما اتفق المقدّم مخايل الغائم على زوق مكايل مع أمراء فتقا من بيت الحنش على قتل الأمير منصور، وعندما ساروا إليه نحو غزير كشف أمرهم، فدعاهم إلى الغداء حيث قتلهم جميعاً.

كذلك شبّت خصومة في بلاد عكار بين الشعيبيّة أهالي عرقا وبين آل سيفا الأمراء التركمان، وجار أبناء شعيب على السيفليّة فهجّروهم من بلاد عكار إلى الباروك لدى الأمير قرقماس بن معن، فسيّر لهم الأمير منصور ثلاثماية رجل من الشوف إلى عرقا حيث فاجأوا آل شعيب وقتلوهم وتولّوا حكم عكار مكانهم.

السنة ١٥٢٣م رُسم المطران انطانيوس على الشام، وأوفده البطريرك شمعون لتفقّد الموارنة في قبرص. ثمّ حاصرت الجيوش العثمانيّة مدينة رودوس نحو ستة أشهر من دون التمكّن من دخولها. وفي تلك السنة أيضاً ابتُليت بلاد الشام تكراراً بكارثة الجراد ومعها الغلاء الفاحش والنقص الحاد في المواد الأساسيّة، وتوفي في دير قنوبين المطران يعقوب بن عزيز الحدثي، تلاه بعد بضعة أشهر المطران جرجس بن صدقني من مزرعة الحدث الذي توفي أثناء زيارة راعويّة إلى اليمونة وكان رجلاً فاضلاً يعتبره البعض قديساً. ويروى أنّ هذا المطران عرف بدنوّ ساعته وهو يقوم بخدمة القداس، فطلب حضور الكهنة وأبلغهم باقتراب ساعته وطلب إليهم دفنه في مغارة البارّة

مارينه قرب دير الكرسي، وبدأ مع الكهنة مراسم جنّازه وإقامة صلاة الموتى على روحه، وبعدما وضع البخور بيده أسلم الروح، فحملوا جثمانه إلى دير قنوبين، ثمّ نقلوه في ما بعد إلى جانب المطران يعقوب.

وبعد بضعة أيام توفي البطريرك شمعون بن داوود بن بطرس المعروف بابن حسان وكان عمره ينوف على الماية والعشرين سنة، وهو ثالث بطاركة آل حسّان الذين توالوا طوال ثمانين سنة، وفي أيامهم نُقلت البطريركيّة إلى دير قنوبين. ثمّ اجتمع ممثلو الرعايا واختاروا المطران موسى بن سعاده من بلاد عكار للكرسي الرسولي، وكان النصارى في تلك الحقبة في حال ضيقٍ شديد نتيجة الممارسات العثمانيّة ضدّهم.

وفي حين تكرّرت كارثة الجراد والغلاء وحال الضيق في السنة ١٥٢٦م، سُجّلت أمور عدّة، منها وفاة الحبيس جرجس الهدناني وتولّي تلميذه الخوري يونان بن القسيس موسى المتريتي على دير مار انطانيوس قزحيا، والذي قيلت فيه روايات كثيرة تعود إلى صلاحه وطوباويّته.

وفي تلك السنة أوفد البابا إقليموس السابع البادري قرصون برنردين من رهبان مار فرنسيس الصغار رسولاً إلى بلاد الشرق، فزار البطريرك بطرس والملك جرجس والطائفة الأرمنيّة وأعطاهم سلطان الحل من الخطايا وتفسيح الزيجات وإعطاء الغفران وعقد المجامع في بلدان الأرمن والموارنة، بهدف ترسيخ الاتحاد مع كنيسة روما، على غرار المجمع الذي عقده البابا أوجان الرابع سنة ١٤٣٩م، فعمّ الرفاه ما بين كنائس المسيحيين في الشرق والغرب.

السنة ١٥٢٧م توفي المطران يوسف من كفرحورا في ناحية طرابلس، وأُرسل مطران دمشق أنطون إلى روما فوقع في أيدي القراصنة وكان قاصداً طرح الطاعة للبابا وطلب درع التثبيت من البابا إقليموس السابع، لكنّه تمكّن من تحرير نفسه والوصول إلى هدفه. وفي هذه السنة هرب الأمير قيتبيه إلى الشويفات واحتمى بالأمير جمال الدين ومكث هناك قرابة السنتين.

وبعد سنة (١٥٢٨م) زار المطران الياس الحدثي موارنة قبرص، إذ كانت الجزيرة في حال من المجاعة بسبب الجراد والغلاء. ويعيد المؤلّف هنا تكرار مقتل حسين وحسن أبناء الأمير عساف نتيجة الخلاف مع أخيهما الأمير قيتبيه الذي قتلهما وتولّى منذ ذلك الحين حكم بلاد كسروان، فيما قبض أولاد الشيخ حبيش الماروني على الشيخ يوسف وأخيه سليمان ونفوهما إلى مصر، وما لبثا أن عادا إلى لاسا وانضمّا إلى أبيهما هناك. ثمّ ذهب أولاد سيف الدين إلى الشام ومعهم منصور

ابن الأمير حسن الذي رُزق به أخيراً، قبل أن يعودوا إلى كسروان، في وقت كان الأمير قيتبيه يرتّب أمور دمشق، ولمّا عاد هاجم ابن أخيه في لاسا، وظلّ حاكماً طوال حياته.

في السنة ١٥٢٩م توفي أنطون مطران الشام، وحلّ محلّه المطران جرجس الهدناني وكان على مطرانيّة طرابلس المطران سمعان. وبعد سنة توفي المطران الياس وخلفه المطران تادروس الحدثي الذي كان مساعداً للبطريرك في دير قنوبين، فيما كان الناس يعانون المظالم والاضطهاد، الأمر الذي حمل البطريرك على إرسال كتابٍ إلى البابا إقليموس بواسطة شيلسوس يوبيلاوس الروماني يطلعه فيه على معاناة المؤمنين، ويتمنّى جعل الكاردينال سنتاكروس وكيلاً على الملّة المارونيّة، فاستجاب البابا لكلّ طلبات البطريرك.

وفي السنة ١٥٣٣م بنى الراهب جرجس من آل حرواص من قرية عرجز في الزاوية دير مار أليشاع، بتعاون من المقدّم عبد المنعم حنا، على يد المعلّم ابراهيم ابن عم الخوري موسى الحصروني بكلفة ثلاثة آلاف وسبعماية دينار، ما عدا المتطوّعين للعمل مجاناً، وسيم بعد ذلك الراهب جرجس مطراناً واتخذ الدير مركزاً لسكنه.

وفي السنة المذكورة اجتاح سيلٌ عظيم جزيرة قبرص وقضى على أناس وحيوانات وأشجار وهدم الجسور والطواحين ودمّر قرى كثيرة.

وعندما توفي المطران سمعان مطران طرابلس سيم بعده الراهب يوسف بن بطرس، لكن تثبيته من البابا بولس الثالث لم يلزمه السكن في هذه المدينة بسبب الضغوط التي كانت تمارَس على الموارنة في هذه الحقبة.

ثمّ تعرّضت قبرص بعد السيل والجراد إلى كارثة على أيدي الأتراك الذين هاجموها بنحو خمسماية مقاتل وصلوا على متن تسع سفن، فنهبوا قرية كورما حيتي واقتحموا الكنائس وألقوا الميرون على الأرض وخرّبوا ما تحويه من مقدّسات وأضرموا النار فيها، وكان الأسقف سركيس بن نجم من كسروان من قرية تدعى بكركي ساكناً هناك.

وسنة ١٥٣٧م أقدم مقدّم بشري عبد المنعم حنا على طعن مقدّم أيطو كمال الدين بن عبد الوهاب برمحه فأرداه، لأنّ الأخير لم يبدِ الاحترام اللازم ولم يقف إجلالاً له.

أعاد الأتراك غزوهم جزيرة قبرص في السنة ١٥٣٨م وحاصروا لامسون واحتلّوا قلعتها وقتلوا العديد من الموارنة الذين كانوا يسكنونها ونهبوا منازلهم.

السنة ١٥٣٩م صدر قرار من الحبيس يونان المتريتي بن القس موسى بمنع النساء عن دخول دير مار انطانيوس بموافقة المقدّم عبد المنعم وأولاده الرهبان مالك وجبرايل وموسى ويوسف وتوما والقس ابراهيم والخوري يعقوب والقس سركيس وغيرهم، ومنع وجود الخمر في الدير، كما أمر يونان بأن لا يُطفأ قنديل مار انطانيوس نهاراً أو ليلاً، وأقام القس حنا بن يعقوب بن اسطفان الباني المعروف بابن نمرود رئيساً على الدير.

أمّا دير مار قزحيا فكان موضع خلاف على ملكيّته ما بين أهالي عينتورين وأهالي بان، فأفتى القاضي لمصلحة أهل عينتورين ووضع على الدير خراجاً سنوياً قيمته ثلاثماية درهم، فتمّ عزل القس حنا بن نمرود عن رئاسته وأُعطيت إلى الخوري حنا اللحفدي، الذي تنازل عنها لمصلحة الأسقف يوحنا الجاجي.

السنة ١٥٤٢م توفي الراهب الحبيس يونان المتريتي، الذي كتب تلميذه الحبيس جبرايل الهدناني سيرة حياتهما معاً والفضائل التي تميّز بها معلّمه، ثمّ إنّه بعد مدّة انتقل إلى جواره.

وفي تلك السنة عاد البادري مسعد البندقي ورديان جبل صهيون إلى روما، حاملاً رسائل من البطريرك إلى البابا بولس الثالث، طالباً منه إيفاد ستة رهبان للإقامة في مدرسة في جبل لبنان لتعليم الأولاد اللغة اللاتينيّة، وذلك للمساهمة في بناء الرعيّة وفهم الكتب المقدّسة، لأنّ أحداً لم يتفقّدها منذ أيام البابا لاوون العاشر. وعاجلاً لبّى البابا طلب البطريرك، وبعث كتاباً إلى المقدّم عبد المنعم حنا ورؤساء الطائفة يحضّهم فيه على الصبر وتحمّل المظالم والثبات في طاعة الكنيسة.

السنة ١٥٤٧م قُتل مقدّم بشري عبد المنعم حنا في كمينٍ أعدّته له ست الملوك بنت الشيخ علوان زوجة المقدّم كمال الدين بن يحرمه الأيطوني، الذي كان حنا قتله سابقاً، فاتفقت مع الشيخ حمادة وسواه. ولمّا خرج عبد المنعم صباحاً وثبوا عليه وقتلوه وأولاده فانقرضت بمقتله سلالة مقدّمي بشري وانتقلت إلى العناحلة، إذ إنّ عز الدين الفحلاني كان متزوّجاً من بنت حسام الدين بن أيوب بن قمر مقدّم بشري. إلاّ أنّ الأهالي طاردوا الشيخ حماده وقتلوه انتقاماً لمقتل عبد المنعم، ولمّا انتهت سلالة المقدّم سيفا، أخذ هؤلاء الولاية على جبّة بشري.

تميّزت السنة ١٥٥٠م بوفاة مطران إهدن قورياقوس وانتداب الراهب أنطون الحصروني بن الحاج فرحات خلفاً له الذي تربّى عند أخواله في دير مار يعقوب الأحباش، وكان يتقن اللغات السريانيّة

والعربيّة والتركيّة وجريئاً في القول والفعل.

ولمّا جاء السلطان سليمان إلى حلب حضرت لاستقباله جماعةٌ من طرابلس فزوّدها خمسة مراسيم سلطانيّة، وفيها أن لا أحد يعترض النصارى في دينهم ولا في زواجهم، وأن ترمَّم الكنائس، وتمّ تسجيل هذه المراسيم في طرابلس أيام حسن بيك.

في السنة ١٥٥٢م سام البطريرك موسى داود ابن الخوري سمعان الحدثي مطراناً مساعداً للمطران تادروس في الكرسي، وأرسله مع مطران الشام جرجس الهدناني لتفقُّد الرعيّة في قبرص، فكرّسا جملة كنائس بمعيّة فرنسيسكو الماروني أسقف الأفقسيّة، وساما الراهب مرقوس بن أنطون أسقفاً على مطوشي تقديراً لسعيه في بناء البيعة ونسخ كتبها.

وفي العام ١٥٥٣م اعتدى شوباصي سنجق طرابلس على دير قنوبين عبر فرضه زيادة الخراج المعتاد عليه، فأرسل البطريرك اعتراضاً إلى السلطان سليمان المقيم آنذاك في حلب، فأصدر الأخير أمراً همايونياً إلى قاضي طرابلس وأمر السنجق بإعادة الأموال الزائدة إلى دير قنوبين.

في العام ١٥٥٥م جلس على الكرسي الروماني البابا بولس الرابع فبعث إليه البطريرك موسى الماروني مع السيد غالاطيوس من بولونيا الإيطاليّة كتاب تهنئة، فاستقبله البابا وأرسل معه بذلة كاملة لخدمة القداس مع كتاب بركة.

وفي السنة ١٥٥٦م سيم الأسقف جرجس بن حرواص أسقفاً على دير مار أليشاع في بشري جزاءً له على بنيانه هذا الدير. وبعد وفاة المطران جبرايل الهدناني بعد تنسّكه لمدّة ثلاث وأربعين سنة في دير مار قزحيا، وبعدما خدم معلّمه الحبيس يونان المتريتي أربعة عشر عاماً، ألزمه أعيان البلاد الرياسة على دير مار انطانيوس بعد الأسقف يوسف الجاجي الذي تولاّه بعد يوحنا اللحفدي.

ثمّ توفي الأمير قيت بيه (قيتبيه) بن عساف في قرية غزير من بلاد كسروان وخلفه عليها ابن أخيه منصور، الذي امتدّ نفوذه إلى عكار وأعطى بلاد جبيل لهاشم العجمي. وكان مالك بن بلغيت اليمني شيخ العاقورة ذا سطوة عظيمة، لكنّ الخلاف نشب والشيخ هاشم، فهاجم مالك جبّة المنيطرة وأحرقها على دفعتين، وإذ ذاك اتفق أهالي الجبّة مع القيسيّة أهالي العاقورة ونصبوا له كميناً في عين الجرد وقتلوه. ويروى عن مالك أنه لمّا كان هاشم في الشام رحل المتاولة من كسروان إلى تدمر فعمّروها وأقاموا فيها، ولمّا علم مالك بذلك هاجم بجماعته الحراجلة المتاولة وهزمهم واقتلع بعض حجارتها الأثريّة ونقلها إلى العاقورة.

ثمّ إنّ حنش وحرفوش أخوي مالك ذهبا إلى الشام وشكوا مالك، وقيل إنّ الأمير منصور لم يتمكّن من كبح جموح عبد المنعم، فحرّض عليه هاشم، الذي لم يستجب له، لكن عبد المنعم وعده بحكم بلاد جبيل فأذعن هاشم، فخرج الرجال مع إخوة مالك وراء هاشم الذي هُزم ولجأ إلى الحرافشة، لكن مطارديه نهبوا لاسا وأحرقوها مع بعض قرى الجبّة، وفرّ قيسيّة العاقورة إلى طرابلس فنُهبت بيوتهم وأُحرقت وخلت العاقورة من أهلها.

ولمّا علم الشيخ عبد المنعم أنّ الأمير منصور بن عساف كان ينوي قتله، كاتب الأمراء الحرافشة واتفق معهم على قتل ابن عمّه هاشم ووعدهم بقتل الأمير منصور وتوليتهم على المقاطعات التي في يده ففعلوا ورموا جثته في بئر وفرّ أخوه إلى حمى الأمراء الشهابيين. غير أنّ أبناء حبيش ذهبوا ليلاً إلى الأمير وأخبروه بالمؤامرة التي تمّت بين عبد المنعم والحرافشة، فأعطاهم الإذن بقتله فقتلوه مع أحد عشر شخصاً من أولاد عمّه واطمأنّ عندها الأمير منصور.

أمّا العاقورة فظلّت سبع سنوات خالية إلى أن جاء إليها الشيخ أيوب وأخوه فضول ابنا الشيخ توما بأمر من نائب الشام ومعهم أربعماية شخص، وأعادوا ترميم بيوتهم وسكنوا هناك.

وشهدت السنة ١٥٥٧م حدثاً مهمّاً على صعيد الطائفة المارونيّة، إذ دعا البطريرك موسى إلى مجمع عُقد يوم خميس الأسرار، وفيه تمّ تقديس الميرون بحضور المطران قورياقوس والمطران داود والمطران ملكا الحبيس وخمسة مطارنة غير هؤلاء والحبيس ميخايل بن الرز والمقدّم رزق اللّه وولديه عساف وجبرايل مع نحو أربعماية كاهن وجمهور غفير من الناس.

وفي تلك السنة فاض نهر قاديشا ودمّر كلّ ما فوقه من جسور، وأعقب ذلك ثلجٌ كثيف وصقيعٌ أبادا أشجار توت القز والكروم والأشجار المثمرة. وفي السنة ١٥٦٠م توفي الحبيس ملكا بعدما التزم الحياة النسكيّة لنحو ستين سنة وتنقّل بين العديد من الأديار.

في هذه الأثناء كان البطريرك موسى جرجس القبرسي ينتظر درع التثبيت من بابا روما، بعدما بعث إليه بمكاتيب مع المطران أنطون الذي وقع في الأسر في قبرص، ثمّ مع تجّار فلم يتسلّمها الأحبار لكون هؤلاء من غير الطائفة المارونيّة. وفي السنة ١٥٦١م أرسل البطريرك القس جرجس القبرسي، الذي كان على معرفة باللغة الرومانيّة، إلى روما ومعه كلّ الوثائق والرسائل والوقائع وشهادات رؤساء الكهنة الممهورة بتواقيعهم وأختامهم التي تؤكّد أنهم اختاروه بملء إرادتهم، ويسألون البابا أن ينعم عليه بدرع التثبيت. كذلك كتب البطريرك إلى الكرسي الروماني شاكياً مطران الأفقسيّة

الفرنجي الذي كان يعتدي على الأوقاف الخاصة بالطائفة، فاستقبل البابا بيوس قاصد البطريرك وأرسل معه درع التثبيت ورسائل البركة والغفران للطائفة، وأفهم مَن يعنيهم الأمر وجوب عدم معارضة الموارنة ورؤسائهم وعدم الاعتداء على الأوقاف الخاصة بالطائفة (١٥٦٢م).

وكان البطريرك موسى ختم أوراقاً بيضاء للقس جرجس القاصد السفر إلى روما حتى إذا دعت الحاجة يستعملها لإرسال مكاتيب باسمه، فراود الطمع القس وزوّر كتاباً زعم فيه أنّ البطريرك يطلب من البابا رسم حامله وإرساله لحضور المجمع في مدينة طرنتوس، ففعل البابا ذلك إكراماً للبطريرك، لكنّه رفض حضوره المجمع كونه لا يفقه اللغة اللاتينيّة أو الإيطاليّة. ولمّا عاد جرجس من روما إلى قبرص وجد أنّ الأسقف فرنسيسكو قد توفي فوضع يده على أرزاقه، ولم يكمل طريقه إلى البطريرك حاملاً جواب البابا إليه.

وحصلت قبل أعوام جريمةٌ في القدس الشريف ضدّ حارة النصارى وكنيسة مار جرجس التي للطائفة، إذ إنّ الأقباط دفعوا أموالاً مقابل وضع يدهم على الكنيسة. وهذا الاعتداء حمل البطريرك على أخذ كتاب من مصطفى باشا حاكم الشام، وذهب به إلى القدس لاسترداد الكنيسة. ولمّا وصل إلى هناك بلغته أخبار القاصد جرجس، فأرسل إليه كتاباً وآخر إلى روما في شأن ما ارتكبه من أعمالٍ مشينة، وعاد بعدما استعاد الكنيسة المسلوبة.

بعد وفاة المطران أنطون الحصروني سيم على إهدن المطران سركيس ابن القس موسى الدويهي (١٥٦٥م) وسكن دير مار سركيس.

ثمّ جرّد السلطان سليمان حملة عسكريّة وحاصر مالطة وكان معه مصطفى باشا قائد الأسطول البحري ونحو أربعين ألف مقاتل من دون المراكب والجيش الذي قدم من بلاد الغرب لدعمه. أمّا في داخل الجزيرة فكان هناك نحو خمسماية فارس وعشرة آلاف مقاتل. وبعد مناوشاتٍ عدّة فتح الغزاة أحد الحصون، لكن سرعان ما وصلت النجدة من صقلية فولّى الأتراك هاربين وعادوا إلى القسطنطينيّة، بعدما قُتل من جنود الجزيرة نحو ماية وخمسين ومن النصارى ثلاثة آلاف مقابل ١٥ ألفاً من الأتراك. ومنذ ذلك الحين يعيّد أهالي مالطة للقديسة مريم في الثامن من أيلول، يوم النصر على الأتراك.

في السنة ١٥٦٧م توفي البطريرك موسى العكاري، فاتفق رؤساء الكهنة وأعيان الطائفة على اختيار الحبيس ميخايل بن الرزي من قرية بقوفا. وبعد الحبيس جبرايل الهدناني تسلّم دير مار انطانيوس

قزحيا القس يوسف الأيطوني، ثمّ بعد مدّة أعيد الخوري حنا، أو يوحنا، بن نمرود (أو نمرون الباني)، فثبت مدّة قصيرة قبل أن يخلع نفسه وينتقل إلى دير مار سمعان أيطو، ويعيّن في موقعه الحبيس ميخايل. وبعد مدّة تخلّف القس يوسف البسلوقيتي، وحلّ عوضه الخوري يوحنا الخوري الذي رهّب يونان ويوسف ولدي جلوان من سمار جبيل، ومذذاك انفصلت محبسة ماريثيوي عن دير مار انطانيوس.

ولمّا توفي البطريرك موسى حمل رؤساء الطائفة الحبيس ميخايل وألزموه تدبير الكرسي الإنطاكي وأقاموا محلّه في المحبسة أخاه القس سركيس البقوفاني. وأثناء إقامة البطريرك في الكرسي وصلت البيارق من طرابلس إلى قنوبين حيث نهب حاملوها الدير وسرقوا ثياب الكهنوت وأواني القدّاس ووضعوا يدهم على الدير وأوقافه وأملاكه، ولم يتمكن البطريرك ميخايل من إرضائهم إلاّ بعد مدّة طويلة من الزمن. ثمّ إنّه أرسل إلى يوليوس الأسقف طالباً إليه زيارة شعبه في جزيرة قبرص، وأن يبعث إليه الشمّاس لوقا من الأفقسيّة الذي كان خبيراً بلغات الفرنج. ولمّا وصل لوقا أمام البطريرك سامه خوري بردوط وأرسله إلى الحبر الأعظم بمكاتيب وهدايا، كما أرسل الكاردينال ألكسندروس والكاردينال كريبلوس، الوكيلين على الطائفة المارونيّة، لمساعدة القاصد بهدف إرسال درع التثبيت.

فلمّا وصل الخوري لوقا إلى قبرص فوجئ بالسفن الاسلاميّة الآتية لمحاربة الجزيرة ومحاصرة الأفقسيّة، فاجتمع المسيحيون وفكّوا الحصار. وبسبب الحوادث اضطُرّ الخوري لوقا إلى البقاء نحو سنة في الجزيرة إلى أن رُفع عنها الحصار. ثمّ أخذ معه أخاه نقولا إلى روما، فاستقبله البابا مرحّباً، ولكن، لأنّ المكاتيب كانت مختومة بخاتم جديد لم يتمكن من نيل مراده. وعندما جاء لزيارة البطريرك الجديد القاصد جيرونيموس فوساتوس، وأخبره بأنّ مدّة رياسته انتهت وأنّه سيعود إلى روما وهو مستعدّ لنقل أيّ طلب أو رسالة إلى الكرسي البابوي، أخبره البطريرك قصة القاصد الخوري لوقا الذي ما زال ينتظر عودته بجواب على رسائله إلى البابا رغم مرور سنة على ذلك. وبادر البطريرك إلى تجديد المكاتيب تلك باسمه وباسم علماء الطائفة ورؤسائها، وحملها إلى جيرونيموس قبل سفره إلى روما.

ولمّا مثل أمام البابا بيوس الخامس عرض عليه ما يحمله من الرسائل البطريركيّة ونقل إليه صورة عمّا تعانيه الطائفة من صعوبات لم تزدها سوى تمسّكاً بالكنيسة الجامعة، وأنّها بحاجة إلى المعونة

لئلاّ يطالها الخراب.

ثمّ كتب عرض حال إلى الكاردينال أنطون كرففا، وكيل الطائفة المارونيّة، يعلمه فيه بوضعها وأحوالها ويقترح ثلاثة أبواب للمساعدة: أولاً، إرسال كتب تقوّي قواعد الإيمان. ثانياً، توفير مساكن للمحتاجين ليرسلوا أولادهم إليها ليتعلّموا أسرار البيعة. ثالثاً، تقديم نجدة ومساعدة لترميم الكنائس والأديار التي هي تحت طاعة بطريركهم.

ثمّ عرض هذه الأمور على البابا بيوس فسرّ بها، وأمر فوراً بطبع كتاب التعليم المسيحي باللغة العربيّة، وأوصى الكاردينال كارخا بأن يكون ناظراً وناشطاً في ما يعود بالفائدة على الطائفة. لكن أصحاب النيّات الشريرة وصلوا إلى روما ونشروا شائعة عن أنّ البطريرك الجديد متمسّكٌ باليعقوبيّة، فعزّ ذلك على البابا وعلى الكاردينال الوكيل، خصوصاً على البادري جيرونيموس القاصد الذي مني بالخيبة. غير أنّ البابا أمر بإيفاد ورديان جبل صهيون إلى البطريرك لكي يدقّق في وضعه ويعود إليه بالنتيجة. وبعد مدّة أوفد البادري جوان فرنسيس بياجنتين ورديان القدس بأمر من البابا بيوس الخامس إلى جبل لبنان، لكي يتصل بالبطريرك الجديد ويجمع كلّ ما يمكنه من معلومات وتفاصيل عن شخصه وأدائه وسلوكه وكيفيّة تدبيره أمور رعيته، وما إذا كان تمّ اختياره حقاً من رؤساء الكنائس وموافقة المؤمنين وفقاً للعادات المتبعة، ويضعه أمام القسم والشهود ما إذا كان يؤمن بالطاعة لصاحب الكرسي الروماني، إضافةً إلى الاطلاع من عامة الناس عمّا إذا كان البعض منجرفاً نحو أي بدعة خارج الكنيسة. كذلك حمل الموفد عشرين نسخة من كتاب التعليم المسيحي يسلّمها إلى البطريرك لتوزيعها على الكهنة، ويأخذ موافقته على إرسال أولاد إلى قبرص حيث يتولّى تدبير شؤونهم نائب المطران، كما كان البطريرك تمنّى على البابا.

أمّا سبب اتهام البطريرك باليعقوبيّة فكان لأنّه من قرية بقوفا التي اعتنق معظم أهاليها اليعقوبيّة. السنة ١٥٦٩م رسم البطريرك ميخايل أخاه الحبيس سركيس أسقفاً على عرقا وأقام مجمعاً أمام البادري جوان فرنسيس، وحضر الأسقف داود الوكيل على الطائفة وأسقف إهدن سركيس، وجرجس أسقف بشري، وسركيس أسقف عرقا، وشهد الجميع بأنهم ألزموا البطريرك عبر اختيارهم إيّاه رغماً عنه، وأنّه لم يحد قيد أنملة عن إيمانه والتزامه ولا مالَ إلى أي أمانة أخرى، وأرسلوا كتاباً بذلك إلى البابا.

ثمّ إنّ المقدّم رزق اللّه تولّى المقدميّة فبنى لنفسه برجاً أمام هيكل مار سابا في بشري، وأعطى

أخاه عاشينا البرج القديم، بعدما ولاّه المقدميّة الأمير منصور بن عساف، فوقعت الفتنة ما بين الأخوين بسبب عاشينا الذي جاهلاً، يمارس القتل والنهب ويرتكب الموبقات، وكان كلّ ذلك يرتدّ سلباً على أخيه حاكم الناحية. ولمّا نبّه رزق اللّه عاشينا إلى وجوب الإقلاع عن سلوكه، غضب الأخير وانتقل إلى قرية حصرون، وراح يحرّض الناس على رزق اللّه، وقد نفر منه الشعب وشكوه إلى نائب طرابلس. ولكي ينجو رزق اللّه من شرّه أقدم على قتله بواسطة أناس من الضنية كمنوا له داخل البرج، ولمّا علم البطريرك بذلك صعد إلى بشري ورمى رزق اللّه بالحرم لقتله أخيه. وبعد مدّة قصد رزق اللّه المحكمة في شأن إجراء معاملة ما، ولمّا دخل الحمّام سارع صاحب القفل الذي كان على خلاف معه إلى رشوة الحارس الذي سلّمه عمامة المقدّم رزق اللّه فدمغها بدمغته، ولمّا خرج الأخير اقتيد إلى أمام القاضي بتهمة سرقة مال المسلمين، فحكم عليه بأن يُربط في أذناب الخيل ويُجرجر في الطرقات إلى أن قضى نحبه، وهو بريءٌ ممّا نُسب إليه.

وفي تلك السنة، وبعد مقتل المقدّم رزق اللّه، أمر السلطان سليم بن السلطان سليمان بشنّ هجوم على جزيرة قبرص فانطلقت المراكب من طرابلس إلى الأفقسيّة حيث بنى العسكر السلطاني برجاً وأقام الحصار على الجزيرة، الذي شمل الماغوصة، وقيل إنّ عدد المدافع المنصوبة قارب الألف، وهلك من المسلمين جمعٌ كبير، لكن النقص في القوت والبارود اضطرّ القبارصة إلى تسليم البلاد شرط أن لا يُقتل أحدٌ، وكان قائد هذه الغزوة يدعى مصطفى باشا. لكن جيش الغزاة لم يلتزم الاتفاق فأقدم على حرق نحو خمسين ألفاً من الأهالي وقتل ثمانية عشر ألفاً من الموارنة. وكان اثنا عشر ألف جنديٍّ مارونيٍّ اعتصموا في قرية تدعى كالسفاسي محصّنة جيّداً وفيها غذاء وماء، فأقسم لهم جيش السلطان بأن يردّ لهم كلّ قراهم ولا يتعرّض لهم بأذى إذا هم سلّموا القرية، ولمّا فعلوا ذلك أبادهم المسلمون حتى آخرهم، ونقلوا نساءً وأولاداً على متن ثلاثة مراكب بقصد إيصالهم سبايا إلى اسطنبول، وفي الطريق تمكنت إمرأة من إضرام النار في المراكب فاحترقت بمَن فيها.

وكون مصطفى باشا كان عربياً رغب في تسليم القلاع إلى أهالي مطوشي لكنّهم رفضوا، وكان المتولي عليهم الأسقف يوسف من جوصطريار على كنيسة مار انطانيوس ومار نوهرا كرسي السريان الموارنة في الأفقسيّة. وبعد افتتاح الماغوصة اجتاح جيش المسلمين الجزيرة وأمعن فيها سلباً ونهباً واستعباداً للمسيحيين الذين أُخذت منهم جاليتان أسرى، وأقيمت الجوامع على أنقاض

الكنائس وبيعت أوقافهم بأبخس الأثمان.

وامتدّت هذه الموجة إلى بيروت التي أقدم بعض أهلها على وضع يدهم على كنيسة الموارنة، ولم يبقَ للطائفة المارونيّة سوى كنيسة مار جرجس في بيروت العتيقة، فاتفق الشيخ أبو منصور يوسف بن حبيش مع مشايخ بيت الدهان على أن تتشارك طائفتا الروم والموارنة كنيسة مار جرجس وكنيسة السيدة في بيروت الجديدة.

وامتدّت عدوى استباحة الكنائس إلى دير سيّدة ميفوق الذي كان يقيم فيه الخوري عطيه وأخو المطران يونان السمراني المدعو سركيس، إذ توجّهت من اسطنبول أربعة مراكب وانتشر مَن على متنها في طرابلس وأقدموا على نهب دير ميفوق وسطوا على أمواله وأملاكه، إلى أن تمكّن البطريرك ميخايل من أن يستعيد أرزاق دير قنوبين بوساطة الشيخ منصور بن حبيش (١٥٧٢م)، كما نجح أعيان العائلة الدويهيّة في تحرير دير مار سركيس كرسي إهدن على يد ابن الجاموس مفتي طرابلس، وأُخليت أديار عدّة كسيّدة ميفوق والناووس وميرونا وبرحليون وادنيت في الجبّة بعد موجة الاستيلاء عليها.

بعد مقتل رزق اللّه مقدّم بشري حلّ محلّه أخوه داغر وعساف ابن أخيهما موسى من قبل الأمير منصور بن عساف، ثمّ قتل داود وموسى إبنا شلندي البشرّاني، فاتُّهم المقدّم داغر بأنه كان وراء قتلهما، فصدر أمر إلى الشوباحي الذي وصل إلى بشري لجمع المال بقتل داغر فطعنه بالرمح وأرداه. ثمّ أعطى الأمير منصور حكم الجبّة إلى أبو سلهب القريمي خلافاً لإرادة الشيخ أبو منصور بن حبيش الرافض دخول أي غريب على الجبّة، لذلك راح أبو منصور يحرّض ضد القريعي فقتل اثنان من القريعيين قرب بقاع كفرا، فتمّ القريعي وولّي على الجبّة المقدّم ابن الياس (١٥٧٤م) كذلك تمّت تولية الشيخ بدر من لاسا على بلاد جبيل بدلاً من أخيه هاشم.

وفي السنة ١٥٧٦م وقعت زلازل عنيفة في قبرص وتهدّمت كنائس ومآذن وضياع بكاملها.

في السنة ١٥٧٧م سام البطريرك ميخايل القس جرجس البسلوقيتي مطراناً على الشام، وأوفده إلى روما مع الخوري قليموس الهدناني لطلب الطاعة ودرع التثبيت، وأرسل معهما مكاتيب إلى الكاردينال كرففا في هذا الشأن، طالباً شمل كرسي دير قنوبين بالرعاية وشاكراً الكرسي البابوي بما أنعمت عليه بواسطة ورديان القدس. وفي هذه الأثناء حصلت فتنة في الدير في أيام البطريرك موسى، إذ قدم إلى قنوبين الخوري مارون بن أنطون المطوشي ومعه راهبتان هما الحاجتان برباره ومرتا

اللتان قدّمتا إلى الكرسي عن والديهما ونفسيهما نحو عشرة آلاف قرش وسكنتا في الدير مرحّباً بهما. وعندما توفي البطريرك موسى صارت غرفته كنيسة، فيما كانت الراهبتان تقومان بخدمة الإخوة وطلبتا الحكم لهما بهذا الإجراء، ورفضتا نصيحة البطريرك فأمر بعزلهما عن قنوبين، الأمر الذي أحدث فتنة وخلافاً، لأنّ الخوري مارون أخذهما إلى دير حوقا ومعهما القس يعقوب بن حويص الحقلاني والأسقف داود الذي كان في الموقع الثاني بعد البطريرك في قنوبين. ولمّا استقرّ هؤلاء في حوقا أقدم الأسقف داود على سيامة رفيقه يعقوب أسقفاً نكاية بالبطريرك، كما اتفق مع رهبان مار انطانيوس على سيامة الحبيس يونان وأخيه القس يوسف ولدي جلوان من سمار جبيل أسقفين من دون علم البطريرك، فحصل انقسامٌ بين الكهنة والشمامسة. ولمّا علم البطريرك بذلك أرسل إليهم ورقة منع، كما نقل المسألة إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر، فيما خرج ولدا جلوان من الدير فور تبلّغهما ورقة المنع بأمر من الحاكم. أمّا يونان فنُقل في نعشه إلى الفريديس، وأخوه يوسف عاد إلى قريته سمار جبيل، والحبيس سركيس صعد إلى عينتورين. وبعد ثلاثة أشهر زار المقدّم مقلد والشدياق خاطر وأعيان البلاد البطريرك سائلينه العطف والعفو عن الذين تجاوزوا إرادته فنزل عند رغبتهم وسمح للخارجين بالعودة وأعطاهم عشرة رهبان وماشية لكي يعيدوا بناء الدير، ورغبة منه في إزالة رواسب الفتنة، وفصل ما بين الدير والمحبسة ليكون كلٌّ منهما مستقلاً عن الآخر.

ثمّ توفي سركيس أسقف إهدن، وخلفه الأسقف يوحنا بن عبيد، وسيم الأسقف يوسف على مدينة بيروت (١٥٧٧م). أمّا الأسقف جرجس والخوري قليموس، عندما وصلا إلى روما وعرضا المكاتيب على البابا غريغوريوس والكاردينال كرففا، فنالا كتاب البركة والتثبيت من الكرسي الإنطاكي، ولكن أمر البابا بإرسال كاهنين مع القصّاد من ذوي التقوى والمعرفة باللغة العربيّة إلى لبنان للاطلاع عن قرب على أوضاع الطائفة، فتمّ إرسال البادري جوان باطشتا اليان والبادري توما برون، ومعهما كتاب من الباب وعدّة التطويب إلى البطريرك الذي استقبلهما بالفرح والترحيب. ومكث الموفدان البابويان في جبل لبنان قرابة السنة وأنجزا مهمّتهما في الاطلاع على مختلف أحوال الطائفة والبطريركيّة، وعادا إلى روما ومعهما ولدان ليتعلّما هناك ويصبحا مرشدَين للعمل في خدمة الطائفة في ظل تعاليم الكنيسة الرومانيّة، ونال البطريرك درع التثبيت.

مرّةً أخرى تفشّى الطاعون في البلاد المصريّة والشاميّة (١٥٧٩م) واكبه الغلاء الفاحش في طرابلس وارتفاع جائر في ثمن الحبوب والمواد الغذائيّة. وفي تلك السنة صارت طرابلس باشويّة

برئاسة يوسف بن سيفا التركماني، وقيل إنّ ذلك حصل بسبب إقدام الأمير منصور بن عساف على قتل عبد الساتر بن الكريدي شيخ البترون، فغادر شيخ جبيل وأمراء بيت الحنش في فتقا وأرسل خمسماية رجل إلى طرابلس مع أبو منصور وأبو يونس حيث قتلوا ابن شعيب في جامع طيلان خارج المدينة، فقُدّمت في حقّه شكاوى كثيرة إلى الباب العالي، وكان أن اتخذ القرار بجعل طرابلس باشويّة للحدّ من نفوذ شيخ البترون.

وهكذا هرب المقدّم مقلد إلى الشوف حيث توفي هناك تاركاً صبيّاً هو جمال الدين يوسف وبنتاً اسمها ست البنات، فيما هرب المقدّم خاطر إلى بلاد بعلبك، لكن يوسف باشا أعاد الشدياق خاطر إلى حكم جبّة بشري على أن يكون الشدياق باخوس بن صادر الحدشيتي شريكه في الحكم.

وفي السنة ١٥٨٠م توفي الأمير منصور بن عساف وخلفه ابنه الأمير محمّد، كما توفي البطريرك ميخايل الرزي في دير قنوبين بعد ثلاث عشرة سنة ونصف السنة تحمّل خلالها الكثير وأثبت أهليّته وغيرته على الطائفة، وقرّر رؤساء الطائفة وأعيانها تولية أخيه الأسقف سركيس على سدّة البطريركيّة، كما تولّى رئاسة المحبس ابن أخ البطريركين المتوفى والجديد يوسف بن موسى. وبعث البطريرك سركيس إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر القس جوان برون من شركة الإيسوعي مع مكاتيب وهدايا من الكهنة وأعيان الطائفة وفق العادة المتّبعة لطلب التثبيت ودرع الرئاسة اللذين نالهما البطريرك في السنة ١٥٨٢م. وبعد سنة توفي الشيخ أبو منصور يوسف بن حبيش، وتولّى الكوخنة بعده أخوه الشيخ سليمان.

ثمّ شهدت السنة ١٥٨٥م حادثة تركت تداعيات كبيرة وخطيرة، إذ سطا بعض الأشرار على خزنة السلطان وهي في طريقها إلى اسطنبول من جون عكار، فصدر أمر سلطاني إلى جعفر باشا الطواشي بجمع العسكر من سواحل البحر من صيدا إلى حمص، وشنّ هجوماً لمعاقبة يوسف باشا بن سيفا، فأُحرقت بلاد عكار، ما دفع الأعيان إلى رفع شكواهم إلى ابراهيم باشا في مصر الذي جرد جيشاً من حلب والشام ومصر وقبرص حلّ في مرج عرموش وأرعب كلّ بلاد العرب. لذلك قُدّمت إليه الشكاوى ومفادها أنّ الأمير محمّد بن عساف والدروز وأولاد حبيش ضالعون في عمليّة السطو على الخزنة السلطانيّة، وطلب إلى الأمير قرقماس بن معن دفع الغرامة وقُطعت طرق البحر والبقاع على الدروز الذين قُتل منهم عددٌ كبير. وهكذا امتثل أمام جيش ابراهيم باشا الأمير محمّد بن جمال الدين من عرمون وابن عمّه الأمير منذر من عبيه والأمير محمّد بن عساف من غزير.

وأمّا الأمير قرقماس ففرّ واختبأ في مغارة من بلاد الشوف حيث مات فيها تاركاً وراءه ولدين هما الأمير فخر الدين وأخوه يونس، كما حضر أمامه عقال الطائفة الدرزيّة في عين صوفر، فقتل منهم نحو خمسماية شخص. وأمّا الأمراء الذين حضروا أمامه فاقتادهم معه إلى اسطنبول، حيث صفح عنهم السلطان مراد بن السلطان سليم.

أمّا الأمير سيف الدين التنوخي فأخذ إلى عنده في الشوف ولدي أخته الأميرين فخر الدين ويونس. وفي نهاية السنين الست عاد الأمير سيف الدين إلى عبيه وولّى الأمير فخر الدين على الشوف.

وشهدت تلك السنة إقامة مدرسة باسم الموارنة في روما برعاية البابا غريغوريوس الذي توفي بعدها، وخلفه البابا كسوسطوس، الذي تولّى رعاية المدرسة وتأمين مدخول لها.

وفي تلك السنة توفي القس يعقوب عصاص السمراني من بيت الزيات. وفي السنة ١٥٨٧م. بنى الخوري أنطون من بيت الجميّل كنيسة مار عبدا في بكفيا على يد الشدياق الياس الحصروني، وبنى الخوري عيسى من بيت الخراط كنيسة الملائكة في بكفيا أيضاً، وسيم الخوري أنطون أسقفاً مكافأة له على عمله، لكنّه توفي قبل أن ينجز محاولته رفع يد البطريرك عن رعيّة كسروان في السنة ١٥٩٥م. كما توفي في جزيرة قبرص (١٥٨٨م) الأسقف يوسف وسيم خلفاً له يوحنا بن اسكيلا المعلم من الخيزفانة.

ثمّ اندلعت مواجهة مسلّحة ما بين الأمير محمّد بن عساف وآل سيفا، عندما خرج الأول على رأس جماعة كبيرة في عكار مطالباً بدفع مبلغ من المال في ذمّة ابن سيفا، فنصبوا له كميناً في البترون والمسيلحة قُتل فيه الأمير عساف من دون أن تكون له ذريّة، فانقرضت بموته دولة بني عساف.

لذلك طالب أهالي غزير بأن يسلّم أبو يونس سليمان بن حبيش إبنه ويدخل إلى حريمه ورزقه ومرتبته، فامتنع عن ذلك، فسارع عندها الأمير يوسف بن سيفا إلى الزواج من أرملة محمّد بن عساف وتملّك كلّ تركة آل عساف واستولى على الكثير من أموالهم. لكن آل حماده الذين كانوا عند الأمير عساف انتقلوا إلى طرابلس عند ابن سيفا، وأمّا أولاد حبيش فقبض عليهم ابن سيفا وقتل منهم الشيوخ سليمان ومنصور ومهنا، ونكبوا حاراتهم، فيما فرّ الشيخ يونس والشيخ حبيش عند الأمير محمّد بن جمال الدين في الشويفات. وفي السنة الثالثة قُبض على يونس ومنصور ومهنا وأُعطيت نيابتهم إلى المسلمين، فهرب أولادهم إلى الشويفات أيضاً.

ونجح يوسف بن سيفا في إيقاع الفتنة بين مشايخ آل حماده والمستراحية الذين كانوا يسكنون

المنيطرة وبينهم زيجات وعلاقات، وعندما صعد الشيخ قانصوه إلى العاقورة أُردي برصاصة.
جاءت السنة ١٥٩١م بموجة من الغلاء الفاحش في بلاد الشام فمات كثيرون جوعاً، كما توفي الكاردينال كرففا، ثمّ في السنة ١٥٩٤م توفي السلطان مراد بن السلطان سليم بعد ولاية استمرّت أكثر من عشرين سنة، وولّي السلطنة بعده ابنه السلطان محمّد خان. كذلك شهدت تلك السنة وفاة الشدياق باخوس بن صادر الحدشيتي الذي كان متولّياً مشيخة جبّة بشري مع الشدياق خاصر الحصروني وخلفه ابنه الشيخ فرج.
وفي السنة ١٥٩٥م رسم البطريرك سركيس يوسف ابن أخيه موسى أسقفاً وأوفده إلى البابا إقليموس الثامن لتهنئته وإطلاعه على شؤون الطائفة. ولدى عودته أرسل البابا معه قسيسين من شركة الايسوعيّة هما جيرونيموس دندينوس وفابيوس برون ليتفقّدا التلاميذ الذين تعلّموا في روما وأُرسلوا إلى لبنان لتعليم تلامذة، ولمّا وصلا عقد البطريرك سركيس مجمعاً أمامهما حضره موسى أسقف بشري ويوسف أسقف قزحيا والشدياق يوسف خاطر الحصروني والشدياق فرج من حدشيت وعددٌ من الكهنة والعلماء، وتلا أمامهم رسالة البابا إقليموس، وقدّم البراهين أمامهم على براءة أخيه البطريرك ميخايل وسائر الملّة المارونيّة من كلّ الاتهامات الباطلة التي ساقها جوان باطشتا اليان.
وبعد أيام توفي البطريرك سركيس بن الرز بعد خمسة عشر عاماً في الكرسي البطريركي وخلفه ابن أخيه الأسقف يوسف موسى الرز، فيما ترأس على المحبسة ابن أخيه سركيس الذي كان تلقّى علومه في مدرسة روما المارونيّة.
في العام ١٥٩٨م كانت واقعة نهر الكلب حيث دار القتال بين الأمير فخر الدين بن معن ويوسف باشا بن سيفا في صراعهما على كسروان، فهُزم الأخير وقُتل الأمير علي ابن أخيه وتشتّت جيشه وحكم فخر الدين بيروت وكسروان مدّة سنة، قبل أن يتركهما صلحاً لابن سيفا ويتوجّه إلى الشوف.
وفي تلك الأثناء توفي الأسقف إقليموس الهدناني، كما توفي يوحنا بن اسكيلا أسقف الأفقسيّة وخلفه موسى العنيسي مطران العاقورة الذي تلقّى علومه في روما، وأرسل البطريرك الخوري جرجس بن يونان من إيليج والشماس يوسف اليان الحلبي إلى روما لنيل الطاعة، فيما أرسل له البابا إقليموس الثامن درع التثبيت ودرع الرياسة.

الفصل الثاني عشر

حوادث وأخبار الجيل السابع عشر

حروب فخر الدين ونهايته

أطلّ العام ١٦٠٠م حاملاً معه تجدّد الفتنة ما بين المحبسة ورهبان دير قزحيا بسبب وقف العربة والخربان، فأمر البطريرك بأن يخرج أولاد جلوان من الدير فامتثلوا، وسام البطريرك يوسف الرز ابن أخيه الحبيس سركيس مطراناً على الشام، وجرجس بن عميرة الهدناني أسقفاً في دير مار يعقوب الأحباش وكان كلاهما من تلامذة مدرسة روما، كما رسم موسى العرجزاني أسقفاً على دير مار أليشاع بشري، وميخايل من بيت عبيد الهدناني أسقفاً في دير مرت مورا في إهدن. ثمّ بعد سنة رسم بطرس بن الخوري سابا العاقوري أسقفاً على العاقورة بعد وفاة أسقفها المطران موسى.

ثمّ وصل باشا الشام بحراً إلى صيدا فاستقبله الأمير فخر الدين بالتقدّمات والهدايا وسكن الأمير في صيدا، الأمر الذي أزعج بيت سودون حكام بلاد بشاره وأتباعهم في قلعة بانياس، فزحفوا على صيدا بنحو ألفي مقاتل نزلوا عند نهر الزهراني، فخرج إليهم فخر الدين بخمسماية رجل، وتكاثر الزاحفون على جماعة فخر الدين فهزموهم.

وتعاقبت التطوّرات حتى العام ١٦٠٢م عندما هاجم الأمير موسى بن حرفوش وجماعته جبّة بشري بغتة ونهبوها، فيما كان أهلها على الساحل في موسم القز. ولمّا بلغ الخبر يوسف باشا، حشد السكمان وأهل الناحية في جيشٍ قوامه خمسة آلاف مقاتل وهاجموا بلاد بعلبك ونهبوها وقتلوا الكثير من أهلها وهرب الباقون إلى الشام، ولجأ شلهوب بن نبعا مع جماعة من آل حرفوش إلى قلعة المدينة مع نحو ألف شخص.

وفي أثناء حصار الأمير القلعة، جرى تخريب كنيسة الموارنة المعروفة بكنيسة السيّدة وكان خادمها الشدياق ميخايل بن الياس الشدياق. ثمّ أحرق ابن سيفا بلاد الحدث وحاصر القلعة

خمسين يوماً واحتلّها.

في العام ١٦٠٣م رُسم الأسقف يوحنا بن مخلوف الهدناني وأقام في قنوبين مع خاله الخوري عبداللّه، كما رسم البطريرك يوحنا الحصروني بن الشدياق حاتم الحوشي أسقفاً في قنوبين، وكان من تلامذة روما، ثمّ أرسله في ما بعد سفيراً إلى روما في عهد البابا بولس الخامس.

وفيه أيضاً توفي السلطان محمّد بن مراد خان، وولّي السلطان ابنه أحمد خان.

ثمّ حصل الصلح بين يوسف بن سيفا بكلربكي طرابلس وبين علي باشا بن جنبلاط، ونالا لقب تفكجي. لكن سرعان ما حصلت الواقعة بين الأمير فخر الدين ويوسف باشا في جونيه، فهُزم ابن سيفا واستأثر بحكم البلاد حاكم الشوف فخر الدين حتى مجيء الحافظ، وكان الحاكم قبله في غزير الشيخ يوسف بن الاسلاماني.

وفي السنة ١٦٠٦م عاد الأسقف حنا الحصروني من روما إلى لبنان، وعلى الأثر حصل تغيير حساب الصوم الكبير ليتوافق مع كنيسة روما وعيّد أهالي طرابلس والجبّة وجبيل والبترون عيد الرسل مع الفرنج، أي قبل موعده لدى الطوائف الشرقيّة بعشرة أيام، ثمّ درج الموارنة في سائر المدن على اعتماد هذا الحساب، ما عدا الذين في قبرص، حيث أذن لهم البطريرك البقاء على الحساب القديم كونهم في بلاد غير لبنان.

كذلك انتقل إلى رحمة اللّه الأسقف بطرس العاقوري في العباديّة فدُفن في كنيسة مار جرجس ببيروت إلى جانب الأسقف حمّص البيروتي.

وبعد سنة، أي سنة ١٦٠٧م، نكث علي باشا جنبلاط بالصلح الذي عقده مع ابن سيفا، واتفق مع الأمير فخر الدين المعني، واندلعت الحرب بينه وبين ابن سيفا، وسرعان ما خرج جنبلاط عن طاعة السلطان وسيطر على مدينة حلب، فزحفت عليه العساكر العثمانيّة من اسطنبول في محافظة مراد باشا الوزير. لكن جنبلاط لاقاهم في مسافة بعيدة، إلاّ أنّه هُزم فعاد لتوّه إلى حلب، وسارع إلى تحصينها بالمياه وأدوات القتال وحشد فيها جيشه وعياله، وولّى عليها أطلي طالمش بك باشلي، وأمر بالاحتفاظ بها لمدّة ثلاثة أشهر، أي إلى حين حشد نجدة من الشاه سلطان العجم.

وأثناء خروجه من حلب وصل إليها مراد باشا الوزير ومعه أحمد باشا حافظ دمشق ويوسف باشا بن سيفا بكلربكي طرابلس الذي كان سردار العسكر، فشدّ الحصار على المدينة وافتتحها وأقام

المنجنيق على قلعتها التي سرعان ما فتح له أطلي طالمش أبوابها مقابل إعطائه سنجقيّة، ولمّا دخلها قتل كلّ مَن فيها. أمّا عيال جنبلاط وجواريه فبيعوا في السوق، وبيعت والدته بثلاثين قرشاً، وكان عسكر جنبلاط نحو ثمانين رجلاً قُتلوا وجيء برؤوسهم إلى الوزير ولم ينجُ منهم إلاّ القليل.

وأمّا الأمير فخر الدين، وبسبب اتفاقه مع جنبلاط، فضمر له الوزير الشرّ ما جعله يرسل إليه ابنه الأمير على ذا السنين التسع ودفع له ثلاثماية ألف قرش لاسترضائه، فعفا الوزير عنه وأعطى ولد سنجقيّة صيدا وبيروت وغزير.

لكن عساكر السلطان انتشروا في البلاد من حلب إلى بلاد الشوف، وفرضوا على كلّ ضيعة عشرة قروش كلّ يوم وعلى دير قنوبين ودير مار قزحيا معاً نحو ثلاثة آلاف قرش ما عدا التبن والنبيذ، بمعدّل أربعماية قرش في اليوم، فضجّ الناس وارتفعت الأسعار في شكلٍ جائر. لذلك راح ابن اللقاس وكرم الطورزاني البيروتي إلى عند يوسف باشا وأخذا على عاتقهما بيت القاضي في القشلق، فاستجاب لهما وعاد إلى طرابلس، فيما بقي القشلق لخمسة أشهر في البلاد إلى حين استدعاه الوزير إلى حلب.

وفي تلك السنة تداعت قلعة زغرتا في الزاوية وانهارت كنيسة السيّدة، فأعاد ترميمهما الأسقف جرجس بن عميرة، كما انتُدب يوحنا الشدراوي إلى رئاسة الكهنوت.

أمّا في السنة ١٦٠٨م فحصلت تطوّرات عدّة على صعيد الكنيسة المارونيّة، بدأت بوفاة البطريرك يوسف بن الرزي (الرز) وكان يعاونه الكهنة ابراهيم من قرية موسى وجرجس البسلوقيتي ويوحنا الهدناني، وكانت له دالّة مؤثّرة على يوسف باشا، فأقام الجسر بين النهرين في وادي قنوبين، وعمّر دير مار دوميط في داريا وحسن في بناء دير الكرسي، إلاّ أنّه حلّل أكل اللحم لرؤساء الكهنة وكذلك السمك وشرب الخمر في صوم الأربعين... خلافاً لعادات الكنيسة الرومانيّة. ولمّا توفي أرسل البابا بولس الخامس كتاباً إلى البطريرك يوحنا الذي خلف البطريرك الرز طالبه فيه بإبطال كلّ هذه الأمور، التي ألّف كتاباً ضدّها القس نصرالله شلق العاقوري. ثمّ توفي الأسقف ابراهيم من قرية موسى وكان يسكن في دير قنوبين، فتمّ تأجيل سيامة البطريرك الجديد إلى السنة ١٦٠٩م وحلّ في الكرسي الأسقف يوحنا بن مخلوف وفق اختيار الرعيّة، فأوفد القس جرجس بن مارون الهدناني إلى روما كما جرت العادة. ولكن بسبب

المضايقات التي حصلت على الكرسي من جانب يوسف باشا ومن الشدياق خاطر، اضطُرّ البطريرك إلى التوجّه إلى بلاد الشوف ليكون في حماية الأمير فخر الدين المعني. ومن هناك ألقى الحرم على الشيخ خاصر، لكنه تراجع عنه وفق رغبة أهل الناحية، كما وقعت الفتنة بين أهالي مجدل معوش المسلمين وصار بينهم قتال وقتلى واتفقوا على بيع القرية، فاشتراها منهم فخر الدين وأعطاها للنصارى ونزل فيها البطريرك وبنى كنيسة وأسكن جماعته، قبل أن يزور القدس.

وفي السنة ١٦١٠م عاد القس جرجس من روما ومعه مكاتيب التثبيت ودرع الرئاسة للبطريرك، وكتاب بركة إلى الرعيّة، وكتاب بإبطال السنن التي وضعها البطريرك الرزي وإعادة العادات إلى ما كانت عليه، إلى تعليمات باعتماد ضوابط أخرى لسلوك الكهنة، وفيها سيم الأسقف يوسف بن بشاره من بيت السوق وابن أخ الأسقف قليموس الهدناني.

ثمّ جاءت السنة ١٦١١م حاملةً الكثير من المشكلات للأمير فخر الدين وللبنان، إذ بعد وفاة مراد باشا حلّ في الوزارة العليا نصّوح باشا الذي توجّه إلى ديار بكر حيث أُغدقت عليه الهدايا والعطاءات والخدم من الأمراء والمقدّمين، ومن بين هؤلاء فخر الدين الذي أرسل إليه المال ما عدا الخيل والأقمشة مع كاتخدا مصطفى، فقبلها الباشا وأرسل إليه الخلع وأحكاماً سلطانيّة بأن يكون متولّياً المقاطعات التي معه، لكنه لم يظهر له المودة الكافية.

ولمّا وصل الباشا إلى حلب طلب المزيد من فخر الدين فأرسل له ٢٥ ألفاً، وخمسين ألفاً للسلطان، وخمسة آلاف لعلي شاويش. لكن مزاج نصّوح باشا تبدّل تجاه الأمير كونه ساند ابن حرفوش وابن شهاب عندما طلب أحمد باشا بن حافظ دمشق القبض عليهما، كما أنّه خفّض الخدمات عن تلك التي كان يرسلها إلى مراد باشا مع ولده الأمير علي.

وفي العام ١٦١٣م، جاء حافظ أحمد باشا من حلب إلى دمشق وراح يحرّك الفتن ويحرّض على الأمير حمدان بن قانصوه عن سنجقيّة عجلون ونابلس وأعطاها إلى فرّوخ بك الذي استقدمه معه. ثمّ عزل عمر شيخ العرب من بلاد حوران وأعطى مشيختها لرشيد شيخ عرب السرديّة، بعدما انتزعها من عرب المفارجة. لذلك طلب الأمير حمدان والشيخ عمر من الأمير المعني التوسّط لإعادتهما، ومكثا عنده لمدّة شهر منتظرَين جواباً من كاتخدا مصطفى عبثاً. ولمّا لم يأتِ الجواب، جهّز الأمير حمدان والشيخ عمر، ومعهما ابن الأمير فخر الدين علي، نحو ثلاثة

آلاف خيّال وقاموا بغزو بلاد الغرب وحوران واصطدموا بجيش الشام ومع الشيخ ناصر الفحيلي فهزموه، وظلّ الأمير حمدان في عجلون والشيخ عمر في حوران وعاد الأمير علي إلى بيته.

وعلى الأثر، رُفعت الشكاوى والدسائس إلى الباب العالي ضدّ الأمير فخر الدين بأنه غزا بلاد حوران والجولان وحاصر دمشق، فعيّن السلطان أربعة عشر بكلربكي من ديار بكر وأناطولية وقرمان والرها ودرابزون وملاطية وحلب وطرابلس والشام وغيرها، إلى خمسين سنجقاً مع عسكرهم وجهّز من انكشاريّة اسطنبول ألفي رجل، وعيّن نصّوح باشا وزيراً وآمراً لهم جميعاً.

ولمّا وصلوا إلى دمشق، توجّه الأمير يونس بن الحرفوش والأمير أحمد بن شهاب والأمير علي حافظ وادي التيم إلى مقابلة الوزير. أمّا الأمير فخر الدين فلم يبدِ أي استعداد لمقاتلة عسكر السلطان، إلاّ أنّه عمد إلى تحصين القلاع ومنها شقيف أرنون وقلعة بانياس الصبيبة ومغارة نيحا المسمّاة شقيف تيرون، وجهّزها بالمياه وآلات الحرب ووضع فيها عياله، وولّى حسين الياصجي على حصن بانياس وحسين الطويل على حصن الشقيف، وأمّا ابنه الأمير علي فسلّمه للشيخ عمر الذي كان استرجع له مشيخة حوران وأعطاه أربعماية سكماني مع أغذيتهم.

وبدا واضحاً أن الأمير فخر الدين أيقن أنّ المواجهة مع هذه الحشود الهائلة من الجيوش العثمانيّة ستكون أشبه بعملٍ انتحاريّ، إضافةً إلى أنّها ستسبّب بتدمير كلّ ما بناه، فاستدعى أخاه ووالدته ومشايخ الشوف وأعيان بيت الخازن، وأوصاهم بأن يكونوا موحّدين ومتكاتفين، وألاّ يُخدعوا بأيّ عهد يصدر عن الأتراك لكي لا يصيبهم ما أصاب جماعة جنبلاط، ووضع أموالاً وتحفاً في مركبين وأبحر بهما من صيدا قاصداً بلاد الدوق الكبير في توسكانا الإيطاليّة. ولمّا وصل إلى هناك استُقبل بحفاوة وترحيب، وخُصّص له ولمرافقيه سرايا كبيرة وألفي سكوت كلّ سنة (كان السكوت يساوي قرشاً وربع القرش).

أمّا حافظ أحمد فجمع نحو ماية ألف مقاتل من سيمانيّة ودروز وعرب وزحف من دمشق على بلاد الشوف، وأقام الحصار على قلعة الشقيف وحصن بانياس، وأوكل بيروت إلى حسين باشا بن سيفا، وبلاد الشوف إلى رأس اليمنيّة الشيخ مظفّر، ومدينة صيدا إلى ابن البستنجي. وإذ طال الحصار لنحو خمسين يوماً من دون جدوى، أمر حافظ أحمد عسكره بأن يقتحموا البلاد من كلّ الاتجاهات ويعملوا فيها نهباً وتخريباً وقتلاً وحرقاً. وحيال ذلك، بادر الأمير يونس إلى جمع مشايخ البلاد وأعيانها في دير القمر، وكتب إلى أحمد لأجل الأمن، فأجابه الأخير إلى

ذلك، وأمره بإيفاد عقّال الشوف والعلماء مع والدة الأمير ففعل، وتمّ التوافق على دفع ماية ألف قرش فضيّة، واقتادهم معه إلى دمشق ريثما يصله المبلغ من الشوف.

ثمّ حدث أن جمع الأهالي كلّ المبلغ المطلوب ما عدا عشرين ألفاً قيل إنّ الذي أوصلها الشيخ أحمد بن العكس من دروز كورة حلب، أخذها وفرّ بها إلى بلاده. ولمّا وجد حافظ أحمد باشا أنّ المبلغ ناقص، عاود حملته على البقاع وأمر كلّ أمراء بلاد الشام وجيرانهم بأن يحضروا إليه لإعطائهم الأوامر. عند ذاك قصد بعض أهالي الشوف بلاد صيدا وبعضهم الآخر وادي التيم، واعتصم الأمير يونس مع أربعماية من أجاويد الشوف في حصن بانياس. ثمّ أرسل الوزير عسكراً لغزو وادي بسري فأغار عليهم الشوافنة وقتلوا نحو ستماية منهم، الأمر الذي حمل الوزير على الزحف إليهم بثمانية آلاف مقاتل شتّتوا شملهم وقتلوا وأسروا الكثيرين منهم، وأمر بحرق البلاد. وبعد أربعة أيام شاع خبر مقتل الوزير الأعظم نصّوح باشا، فأقدم الحافظ على تسريح أبناء العرب من عسكره وعاد لتوّه إلى دمشق. ومن هناك أرسل الحافظ كتاباً إلى الشيخ عمر الناقه طالبه فيه بتسليمه الأمير علي بن الأمير فخر الدين، وطلب إلى حسين الطويل أن يسلّمه حصن الشقيف، ووعدهما بسنجقيّة ومكافآت جزيلة، لكنهما رفضا طلبه.

وفي تلك السنة توفي الشيخ أبو قرقماس عون بن الخازن، فيما سافر أخوه الشيخ أبو رحال خاطر، بعد مشاورة الأمير يونس، إلى توسكانا لإطلاع الأمير فخر الدين على ما جرى في البلاد على أيدي نصّوح باشا وأحمد حافظ باشا وما لحق بها من خراب وتدمير وقتل.

ونتيجة تلك التطوّرات أوفد البابا بولص (١٦١٢م) رئيس اليسوعيّة كلوديوس اكوافيتا إلى لبنان للاطّلاع على أوضاع الطائفة المارونيّة، وحمّله رفاة القدّيس أمارينتن من بيت الشهدا، ليسلّمه إلى البطريرك يوحنا، والذي حُفظ في سيّدة قنوبين، مع رسالة تشدّ أزر الموارنة.

على أثر التطوّرات المتلاحقة التي حصلت في المنطقة، ومنها لبنان، تمّ عزل حافظ أحمد باشا (١٦١٤م) عن نيابة دمشق وتسلّم مكانه جركاس محمّد باشا، الذي ضمّن الشوف إلى الشيخ يوسف مسلماني وهو من أصول آل معن، لكي يعيد النازحين من صيدا ووادي التيم وسواهما إلى بلادهم. ولذلك طلب الأمير يونس إلى الشوافنة العودة إلى قراهم وبيوتهم وأراضيهم، وكلّف الشيخ أبو نادر الخازن والشيخ أبو طاهر حبيش استيفاء المال مع المسلماني. وفي هذه الأثناء بدا أنّ الأمير فخر الدين ضاق ذرعاً بالاغتراب، فانتقل من إيطاليا إلى فرنسا، ومنها على

مركب قرصان، ومعه الشيخ أبو رحال إلى شاطئ عكا، حيث نزل الأخير حاملاً رسالة من الأمير إلى أخيه الأمير يونس يطلب منه إعلام الناحية بوضعه.

ثمّ توفي الشدياق خاطر الحصروني وخلفه ابنه الشماس رعد الذي تزوّج من ست البنات بنت المقدّم مقلد، لكنها لم تنجب أولاداً ما حمل زوجها على إساءة معاملتها، فخشيت أن يقدم على قتلها ودسّت له السم في دجاجة طهتها له، تناولها مع أخيها جمال الدين يوسف وقضيا معاً، وانقرضت بموت يوسف سلالة العناحلة نهائيّاً (١٦١٣م).

وأمّا ست البنات فتزوّجت من موسى البشراني الذي أخذها معه إلى حلب حيث رزق منها بولد أسماه عساف، وسار إلى بلاد النصارى ومات في الرهبنة. وأمّا أم جمال الدين أرملة المقدّم مقلد، وبعد وفاة زوجها وابنها، فأوقفت كلّ ما كانت تملك في قرية سرعل إلى دير قنوبين.

ثمّ إنّ يوسف باشا بكلربكي طرابلس سلّم أبا عاشينا شلهوب من بيت حسينات حكم جبّة بشري لأنّه كان ابن بنت المقدّم عاشينا بن حسام الدين الفحلاني. ولأنّ أولاد الشدياق خاطر كانوا ينافسون عليه في ضمان البلاد، فدسّ الدسائس عليهم المقدّم شلهوب بن الحاج سليمان الملكي كاتب ديوان يوسف باشا الذي قبض على نعمه وأخيه داود وسجنهما، وراح يبتزّهما في أموالهما مقابل وعد بالافراج عنهما. ولكن لمّا لم يعد لديهما المال خنقهما ورماهما في إحدى الآبار، ثمّ قبض عاشينا على أبيهما جرجس وأغرقه في النهر قرب طرابلس، واستمرّ مقدّماً على الجبّة إلى حين دخول الأمير فخر الدين مدينة طرابلس.

السنة ١٦١٤م شهدت سيامة القس جرجس مارون الهدناني أسقفاً على الأفقسيّة القبرصيّة، الذي سرعان ما طلب من البابا بولس الخامس ورقة بركة لكلّ رعيّته. ولمّا كان الفارق في الصوم خمسة أسابيع بين الموارنة وسائر الطوائف، قدّم بطريرك الروم شكوى إلى حافظ أحمد باشا نائب الشام مفادها أنّ الموارنة شقّوا ديانة النصارى وخرجوا عن الطوائف الأخرى في عيد الفصح. لذلك تمّ القبض على القس ميخايل والقس الياس وثلاثة رجال من الطائفة ووضعهم في الحبس. لكن القس يوسف، وهو ابن المطران، قدّم عرض حال إلى حافظ يؤكّد فيه أنّ الطائفة ملتزمة أمر بطريركها، مقترحاً عليه جمع بطريركي الطائفتين ليدلي كلٌّ منهما بموقفه ويتمّ التوافق بينهما ويُعرف مَن هو على حق. وهكذا طلب الباشا حضور بطريرك الملكيّة ليشهد النقاش مع بطريرك الموارنة. ولمّا تمنّع هذا عن الحضور، أمر الباشا بنقله إلى القلعة وبإطلاق

سراح كهنة الموارنة من السجن بموجب مرسوم ووعدهم بخطٍّ شريف من البابا الأعلى. وبعد خروجهم استصدروا أوامر سلطانيّة من اسطنبول في شأن حساب الأعياد والصوم وقّعوها أيضاً في دمشق.

وفي تلك السنة كان حافظ أحمد باشا يمضي فصل الشتاء في حلب فزاره الأمير محمّد بن سيفا واشياً على عمّه يوسف باشا، فأعطاه الباشا سنجق جبلة، وعزل يوسف عن إيالة طرابلس وولّى عليها جلال حسين باشا.

ولمّا وصل جركس محمّد باشا إلى دمشق أطلق سبيل والدة الأمير فخر الدين، فعادت إلى ولدها الأمير يونس، وبعث برسالة إلى فخر الدين مع الشيخ شهاب الدين بن عون والشيخ يونس بن المسلماني لكي يعود إلى بلاده. ثمّ قدّم الأمير شلهوب بن الحرفوش اثني عشر ألفاً إلى محمّد باشا فولاّه على مقاطعة البقاع التي كانت لعمّه الأمير يونس بن الحرفوش، الذي سارع إلى تقديم أربعين ألفاً ذهباً للوزير فأعاده إلى حكمه. لذلك قام ابنه الأمير أحمد في قبّ الياس على البقاع وابنه الأمير حسين على بعلبك.

وأمّا الأمير يونس بن معن فجمع الأمراء ومقدّمي الشوف في دير القمر وأرسلوا الأمير ناصر الدين ومصطفى كاتخدا إلى حلب لتقديم الطاعة للوزير محمّد باشا مع ٢٥ ألف قرش وماية ألف ذهباً للسلطان، مع تعهّد بتقديم خمسين ألف قرش سنوياً للسلطان ومدّ دمشق بما تحتاجه من المال، وإسكان خمسين شخصاً من الأتراك في حصن الشقيف وحصن أرنون. وقد سرّ الوزير بذلك وولّى الأمير علي بن معن على سنجقيّة صفد، وعمّه يونس على صيدا وبيروت، وأوفد يوسف آغا لتسلّم الحصون.

لكن يوسف آغا رفض تسليم البلدان للأمير علي وعمّه يونس قبل أن يتسلّم الحصون ويجلي عنهم كلّ العرب ويضعها في العهدة التركيّة الكاملة، وهذا ما أغضب الأمير يونس فشرع في هدمها. لذلك أرسل الأتراك مصطفى كاتخدا وحسين الياصجي وكيل الحصون ليأخذ موافقة الوزير على هدم القلعتين، فوافق الأخير وأمر بذلك، وكان ذهب معهما الأمير يونس بن الحرفوش فأعطي سنجقيّة حمص، وقد استغرق الهدم أربعين يوماً.

ولمّا استقرّ ابن حرفوش في سنجقيّة حمص جمع منها أموالاً طائلة، وقيل إنّه أخذ من أحد أتباع ابن سيفا وحده اثني عشر ألف قرش. ثمّ هاجم عرب آل موسى عند حولة بعرين واستولى على

كلّ طروشهم وعشرة رؤوس خيل وأربعماية جمل، وكان مقدّمو هؤلاء في سفر مع الوزير برفقة حسين باشا بن سيفا. ولمّا رأى الوزير ما فعله الياصجي بالحصون بعدما رفض السنجقيّة التي عرضها عليه، عفا عن نصف مال الارساليّة التي تعهّد له بها فجعلها ٢٥ ألف قرش لا غير كلّ سنة، وذلك لإزالة الضرر الذي وقع بالبلاد وتخريب الحصون، وأمر برفع يد يوسف بن سيفا عن كسروان وبيروت وعن مساعدة الشيخ مظفّر وابن الأمير محمّد بن جمال الدين والمقدّمين من بيت الصواف. ولمّا بلغ ذلك إلى يوسف باشا ابن سيفا رفض الأمر، وجمع الأمير شلهوب بن حرفوش وأمراء راس نحاش وحسن آغا وغيرهم نحو ألفي رجل لمهاجمة آل معن. ثمّ سارع الأمير يونس المعني وابن أخيه الأمير علي والأمير علي بن الشهاب ورجال بلاد بشاره والشوف وصيدا، فحشدوا نحو ثلاثة آلاف مقاتل، والتقى الجمعان عند عين الناعمة. وبعد قتالٍ شديد هُزم عسكر ابن سيفا وطارد المعنيون فلوله حتى الشويفات بعدما قتلوا منهم ما يزيد على المايتي رجل، فيما لم يخسروا سوى ثلاثة فقط. وفي اليوم عينه وقع قتالٌ بين المشاغرة والمطاوعة في قريتي اغميد وعين داره، وكانت الغلبة أيضاً لأنصار بني معن. ولمّا توجّه العسكر المعني إلى بيروت خرج أهلها طالبين الأمان فأعطاهم إيّاه الأمير علي مقابل عشرين ألفاً، أعطى منها لكلّ سكماني من جنده خمسة قروش. وأمّا الشوافنة فأذن لهم بغزو بلاد الغرب والجرد والمتن فعملوا فيها نهباً وحرقاً، وأحرقوا حارة الأمير محمّد بن جمال الدين في الشويفات وحارة المقدّمين بيت الصواف في الشبانية.

ولمّا رأى ذلك الأمير حسن بن يوسف باشا رحل وعياله من غزير، فأرسل الأمير يونس الشيخ أبا نادر بن الخازن ومملوكه ذو الفقار ليسكنا فيها ويحكما كسروان، وولّى حكاماً على باقي البلدان. وفي تلك السنة حصل بردٌ شديد وعواصف عنيفة ضربت الكروم والزرع والتوت وأطاحت بموسم القز.

وتوالت الحوادث في العام ١٦١٦م، بدءاً بعودة الوزير من السفر فيما كان حسن باشا بن سيفا عائداً إلى عكار فاستدعاه قارقوش متولّي حلب إلى وليمة، ولمّا وصل بن سيفا تلبيةً للدعوة قبض عليه وقتله، وكان ذلك برضا الوزير محمّد باشا وبسبب سوء الأفعال في طرابلس، وأرسل رأسه إلى الباب العالي. ثمّ سرعان ما أمر السلطان أحمد بخلع الوزير وتعيين خليل باشا مكانه.

ولمّا توجّه خليل باشا إلى ديار بكر أرسل قبجي رستم آغا إلى الأمير علي بن معن طالباً مال

الارساليّة عن سنتين فأرسل الأمير عشرين ألف قرش إلى الوزير وخمسة آلاف إلى دولته، معتذراً عن عدم تمكّنه من دفع كامل المتوجّب بسبب نهب البلاد على يد حافظ أحمد باشا وحال الغلاء والقحط التي ضربت المدن والأرياف، فقبل عذره وكتب بذلك إلى الباب العالي، كما أرسل الأمير المال إلى الشام وقيمته خمسة عشر ألفاً.

وفي السنة تلك توفي السلطان أحمد بن محمّد خان وتولّى أخوه السلطان مصطفى تخت السلطنة لثلاثة أشهر، حلّ في نهايتها السلطان عثمان بن السلطان أحمد محلّه.

وفي هذه السنة أيضاً عُزل عن دمشق جركس باشا ووُلّي محمّد باشا الجوكهدار، الذي أرسل إلى ابن معن القبجي طالباً المال والارساليّة، فأعطاه عشرين ألفاً من حساب المال ولم يعطه شيئاً للإرساليّة. عند ذاك صعد القبجي وحسين الياصجي إلى دمشق، فخلع محمّد باشا ابن معن من سنجقيّة صفد وأعطاها للياصجي، الذي استدان المال من أعيان بلوكباشيّة دمشق ودفع المال لنائب الشام ودولته وأرسل إلى الوزير بدل الأموال التي أخذها من الأمير المعني، إلى مال لرستم القبجي والسلطان والارساليّة...

وفي ذلك العام كانت وفاة القس يعقوب الدويهي.

وفي العام ١٦١٧م توجّه حسين الياصجي إلى صفد، حيث رحّب به بعض المشايخ القبليين مثل بيت منكر وبيت شاكر وأولاد علي الصغير. لكن الأمير علي بن معن حشد ما يزيد عن ألف رجل سار بهم إلى صفد والتقى الجيشان عند الوعرة فوق الوقاص، وبعد معركة سريعة قُتل حسين وهُزم عسكره. ثمّ أرسل الأمير المعني الخدمة إلى الوزير وضمن مال الارساليّة وسداد المال الذي استدانه الياصجي.

ثمّ وصل الأمير فخر الدين إلى عكا بعد خمس سنين من الغربة في بلاد الفرنج، فسارع آل حرفوش وآل شهاب وغيرهم إلى تقديم الخدمة إليه، وما لبث أن سار إلى العصاة في بلاد صفد، وأمّا الذين طلبوا منه الأمان فأمّنهم، وأعطى أحمد آغا ثلاثة آلاف هي مال الارساليّة، و٣٦ ألفاً لإتمام هذا المال لمدّة ثلاث سنوات.

إلاّ أنّ ابن سيفا رفض طلب عمر باشا الكاتنجي، الذي وصل إلى طرابلس (١٦١٨م) وكانت كلّ بلدانها مع ابن سيفا، بتعويضه بأي مبلغ، فكتب الكاتنجي إلى الأمير فخر الدين ليسير معه إلى ابن سيفا، وقبل أن يبلّغ ذلك إلى الأخير، طلب الأمير من أبي نادر بن الخازن قطع طريق نهر

ابراهيم، وتمّ حشد العسكر من بلاد الشوف وصيدا وصفد وغيرها، وبدأ الزحف حتى قبولا.
ولمّا بلغ الخبر ابن سيفا رحل بغتة إلى قلعة الحصن. وبنتيجة الحصار وقلّة المياه والغذاء، اضطُرّ مَن في القلعة إلى أكل لحوم الخيل، فطلب ابن سيفا النجدة من نائب دمشق مصطفى باشا ومن نائب حلب أياز محمّد باشا اللذين جمعا العساكر وتقدّما حتى حماة. ومن هناك طلبا إلى عمر باشا نائب طرابلس والأمير فخر الدين أن يكفّا عن ابن سيفا، فلم يستجيبا للمطلب إلاّ بعد أن دُفِع لهما ماية ألف قرش لكلٍّ منهما فعادا إلى بلادهما. وأثناء العودة حاصر الأمير فخر الدين قلعة جبيل التي كانت في يد آل سيفا فأخرجهم منها وهدمها، وولّى على بلاد جبيل الشيخ أبا نادر الخازن. ثمّ فتح قلعة سمار جبيل ولم يخرّبها وولّى المقدّم يوسف بن الشاعر على بلاد البترون، وعاد إلى بيروت. ثمّ وصل قبجي من الباب العالي بأوامر سلطانيّة تتضمّن قرار يوسف باشا في إيالة طرابلس.
ثمّ أرسل ابن معن مصطفى كاتخدا ومعه عشرة آلاف عن إرساليّة تلك السنة، ساعياً إلى عزل ابن سيفا عن طرابلس، على أن تُكتب إيالتها عليه أو على علي حسين الجلالي فكُتبت على الأخير بزيادة عمّا كانت عليه مع ابن سيفا، كما كتبت جبلة واللاذقية على الكاتخدا، ونال أحكاماً شريفة بهدم القلاع التي في يد آل سيفا وبضبط أرزاقه وأرزاق أتباعه.
ولمّا بلغ الأمر إلى يوسف باشا أوفد ابنه الأمير حسن إلى فخر الدين طالباً الصلح والوفاق، وتمّ الاتفاق ما بين الطرفين على «عقد نكاح» الأمير علي بن معن على شقيقة الأمير حسن بن سيفا، ونكاح الأمير بلك بن يوسف باشا على أخت الأمير علي بن معن.
وبعد خروج مصطفى كاتخدا، دفع بنو سيفا إلى علي باشا الوزير ثلاثين ألفاً ذهباً خدمة، وأرسلوا أحكام تقرير البلد على يوسف باشا وعزل حسين الجلالي، وفق ما تمّ الاتفاق عليه في اسطنبول. كما تمّ عزل مصطفى باشا عن محافظة الشام وتولاّها سليمان باشا، ثمّ توفي الوزير علي باشا وولّي على الوزارة العظمى حسين باشا الباستنجي. كذلك توفي الأسقف يوسف بن يوحنا بن الخوري تادروس السمراني.
السنة ١٦٢٠م أوفد الوزير الأعظم حسين باشا مصطفى آغا إلى الأمير فخر الدين، ومعه مكاتيب الحوالة على يوسف باشا في طلب المال. وعلى الأثر توجّه الأول بعساكره إلى البحصاص خارج طرابلس، فسارع يوسف باشا إلى الانتقال من طرابلس إلى جبلة وأرسل إلى الباب العالي

تمنّياً برفع يد ابن معن عنه. إلاّ أنّ الأمير حسن بن يوسف باشا، وبموافقة والده، باع إلى فخر الدين كلّ مخلّفات بيت عساف في بيروت ومزرعة أنطلياس وحارة غزير وسجّل ذلك في محكمة طرابلس. وبعدما قبض الأمير الحجّة طالب بتحصيل مال السلطان، فامتنع يوسف باشا وابنه عن الدفع، وطلبا النجدة من سليمان باشا بكلربكي دمشق ومن العرب والتركمان. فسارع فخر الدين إلى ضرب الحصار على طرابلس، وكان معه نحو ثمانماية من السكمان، ودخل المدينة وحاصر قلعتها لكنه لم يستطع فتحها، وخرج عليه يوسف باشا بما معه من عرب وتركمان البقيعة وحمص، ثمّ تواجه الطرفان عند نهر البارد وقُتل منهما عددٌ كبير، ووصل مصطفى باشا القبجي ومعه مراسيم لفخر الدين بالامتناع عن مطالبة ابن سيفا. لذلك غادر الأمير طرابلس وعاد إلى بلاده.

شهدت السنة ١٦٢١م تغيّرات وحوادث على مستوى المنطقة ولبنان، بدأت باغتيال السلطان عثمان وإعادة السلطان مصطفى إلى موقع السلطنة. كما أنّ ابن سيفا أمر بأن تحصى الأشجار في جبّة بشري وفي إهدن وزاد الخراج على تلك البلاد ما حمل الكثيرين من الأهالي على الهجرة إلى مناطق أخرى بسبب حال الضيق والحاجة. ثمّ امتدّ الغلاء إلى جزيرة قبرص وإلى الديار المصريّة والشاميّة وشمل مختلف أنواع الحبوب، ولم تسلم طرابلس من ذلك، وقيل إنّ سبب ذلك فيضان النيل على الأراضي الزراعيّة وإبادة المزروعات، إلاّ أنّ موسم الذرة نجا وكان وافراً ما أنقذ الناس والحيوانات الداجنة بعدما نفقت أعدادٌ كبيرة من الخيول والماعز والأغنام لقلّة الشعير.

ثمّ وصل متسلّم عمر باشا الختمنجي إلى مدينة طرابلس ومعه مكاتيب وأحكام إلى الأمير فخر الدين بأن يكون مساعداً لمتسلّمه إذا عصاه ابن سيفا، فجمع هذا الأمير رجاله وقصد التحرك، فسارع ابن سيفا إلى إخلاء طرابلس وجوارها وسار بأتباعه إلى نواحي عكار فعدل فخر الدين عن مهاجمته وأرسل الشيخ أبا نادر الخازن مع رجال كسروان وجبيل إلى جبّة بشري الذين طردوا فلول آل سيفا منها، وولّي عليها الشيخ أبو صافي بن الخازن، وعيّن معه بلوكباشي يكون مقرّ إقامته وأعوانه في قلعة بشري. وجاء في تاريخ الطائفة الذي نشره الشرتوني أنّ فخر الدين ولّى أبا نادر على بشري وأشرك معه الصافي وجعل مقدّمي البلاد تحت إمرتهما.

ثمّ تمّ عزل الأمير حسن بن يونس بن الحرفوش عن ولاية حمص وكُتبت لعمر بك بن سيفا، كما

كُتبت سنجقيّة عجلون للأمير حسن بن فخر الدين، ثمّ عُزل مصطفى باشا الفخلي عن الوزارة ووُلّيت لمحمّد باشا الكرجي، وعُزل المصطفى بك عن سنجقيّة نابلس وسُلّمت لمصطفى كاتخدا بن معن. وشملت قرارات العزل تنحية ابن سيفا عن طرابلس وأُعطيت لعمر باشا، وحماة لأحمد بك وجبلة لجعفر أفندي وجبيل والبترون وبشري والضنية وعكار لإبن معن، وطلب كرجي محمّد باشا الوزير إلى نائب دمشق وابن معن ليساندا عمر باشا في ضبط أملاك ابن سيفا لإيصال مواردها إلى الخزينة وأصحاب الديون.

لذلك جمع الأمير المعني رجاله وانضمّ إليه الأمير محمّد بن الشهاب ومعه رجال وادي التيم ومرجعيون وتوجّهوا نحو طرابلس فلاقاهم في البحصاص عمر باشا والقاضي مرحّبين. وصدف أن جاء أمر شريف من السلطان بإعطاء بكلربكية طرابلس لابن سيفا، وذلك بسبب أخذ قرا حسين باشا قرار السير مع فخر الدين إلى مدينة بيروت بما يزيد عن أربعة آلاف رجل، وثبت عمر باشا في بيروت نحو شهر، قبل أن يتوجّه بحراً إلى الباب العالي.

ثمّ إنّ الأمير سليمان ابن أخ يوسف باشا ولّي حكم صافيتا وانقلب على عمّه وامتنع عن إرسال المال الذي حصّله إليه، فجمع العمّ عسكره وحاصر جماعة سليمان في صافيتا. وأمّا الأمير سليمان ففرّ إلى الضنية وطلب النجدة من فخر الدين الذي جمع جيشه وتوجّه به إلى بشري، فترك ابن سيفا صافيتا وعاد إلى طرابلس بعدما كاتبه الأمير مدلج بالصلح.

وفي غمرة هذه التطوّرات أخذ عاشينا بن شلهوب المقدّم على إحدى قرى إهدن، وكان شاباً جاهلاً، معه سعاده خيان من بيت حمامات العاقوري وحنا بن جوبة البشراني، وأقدموا على نهب دير مار توما في حصرون وقتلوا القس دانيال العكاري الذي كان مقيماً فيه. ولمّا بلغ الخبر الشيخ أبا صافي الخازن أمر بإلقاء القبض عليهم، فأقرّ عاشينا بفعلته طمعاً بالمال، ولمّا سأل فخر الدين ماذا يفعل به أذن له بقتله، ولمّا احتجّ والده المقدّم شلهوب قبض عليه الشيخ أبو نادر الخازن، وأذن فخر الدين بقتله.

وسرعان ما نشبت المواجهة ما بين المعنيين والحرافشة في العام ١٦٢٢م، إذ عزل محمّد باشا ابازا قلاوون، بالتآمر مع الأمير يونس بن الحرفوش، بن معن عن نابلس وعجلون. وعندما علم الأمير فخر الدين بذلك صعد إلى قبّ الياس، بذريعة أنّ بن معن كان اشترى حارة قبّ الياس وتلّ نمرا وبعض الأملاك في البقاع التي يتولاها ابن الحرفوش من الأمير منصور بن فريك،

فأرسل فخر الدين إلى الأمير حسين بن يونس بن الحرفوش يطالب بها. وعندما علم الأمير يونس بذلك، رفض إعطاءه ما يطلب وأخلى وجماعته البلد إلى الزبدانية، فاستباح سكمان فخر الدين بلاد البقاع وضبطوا نحو ستماية رأس من الحيوانات، ونزل أهل الشوف أيضاً واستولوا على غلال آل حرفوش في موسم البيادر وعملوا على نقلها قرابة الشهر. ثمّ أمر فخر الدين بهدم حارة بني حرفوش في قبّ الياس. وفي هذه الأثناء جاءه أمر بحكم نابلس وعجلون، فأرسل الأمير المعني أوامره إلى الأمير علي بن شهاب وحسين الطويل بلوكباشي لتسلّمهما، فأحرقا قرية فارا وقريتي حلاوة والخربة أكبر قرى عجلون لأنها كانت موالية للأمير بشير.

ثمّ أبقى فخر الدين الحاج كيوان في البقاع وانتقل إلى جسر المجامع وكتب إلى ابن شهاب وحسين الطويل والشيخ حسين بن عمر الناقه والأمير أحمد بن قانصوه والشيخ أحمد الكنّاني لملاقاته برجالهم وعشائرهم. وأمّا ابن الحرفوش فاتفق مع كرد حمزة ونزل إلى الشام ورتّبا أمورهما مع مصطفى باشا صاحب دمشق، ودفع له الأمير يونس بن الحرفوش ألفاً ذهباً، فأعطاه صفد، وإلى الأمير بشير سنجق عجلون، وجمع مصطفى باشا وكرد حمزه عساكرهما وخرجا بهم في خيام إلى خارج دمشق، واتفق ابن الحرفوش مع الأمير أحمد بن طربيه، الذي كتب إلى الشيخ أحمد الكنّاني أن يقف إلى جانب ابن الحرفوش.

فلمّا بلغ ذلك إلى الأمير فخر الدين جهّز قوّة أخذت حيفا من ابن طربيه، وعيّن عليها كيوان آغا شوباصي عكا الذي أحرق كلّ قرى الكرمل. ولمّا عاد الأمير يونس إلى بعلبك كاتب الذين يسيرون في ركبه، فجمع ابن سيفا الرجال في طرابلس، وانضمّ إليه عمر بن سيفا برجال من حمص، فأصبح لديه جيش من ثلاثة آلاف رجل. كما جاءه الأمير مصطفى بن أبي زيد حاكم ناحية دركوش من بلاد حلب بنحو ألف سكماني، وانضمّ إليهم الأمير حسين بن فياض بنحو ألف رجل من العرب، وكذلك بعث الأمير فخر الدين إلى ابنه بإرسال رجال بلاد الشوف والغرب ورجال الجرد والمتن إلى قبّ الياس لعند الحاج كيوان، بينما سار هو بألفين وخمسماية سكماني لغزو بلاد ابن طربيه والأمير بشير، وأبقى بعض أزلامه مع حسين الطويل في جنين، وجرّد نحو ألف وخمسماية خيّال إلى نهر العوجا، حيث فاجأ عرب الأمير أحمد بن طربيه والأمير بشير وهزمهم وكسب طروشهم وأثاث بيوتهم. إلاّ أنّ العربان اجتمعوا على عسكر ابن معن وقتلوا منهم الكثيرين واستعادوا ممتلكاتهم المسلوبة وطاردوهم حتى خان جلجولية. لكن جيش ابن معن أعاد

جمع شمله وطرد عرب السوالمة وعرب الحارثة، فأغار ابن طربيه على ساحل عكا بخيّالته وقتل نصّوح بلوكباشي ابن معن.

ثمّ حصل أن تآمرت الطائفة الصباهيّة وبعض القضاة على الوزير الأعظم قرا حسين وأخذوا منه خاتم الوزارة وسلّموه إلى علي باشا، وتمّ خلع السلطان مصطفى وإحلال السلطان مراد بن أحمد خان على تخت السلطنة، بتدبير من علي باشا والطائفة الصباهيّة، فمدّه الحاج درويش وكيل ابن معن في اسطنبول بخمسة آلاف قرش، وأعطي سنجق صفد للأمير علي بن معن.

ولمّا علم الأمير فخر الدين بهذه التطوّرات، وكان عند بركة الملاحة، انتقل إلى صفد وطلب إلى ابنه علي أن يوافيه بالرجال. وهكذا فرّ من أمامه الأمير يونس بن الحرفوش، فدخل الأمير إلى الكرك، وفتح باب مزار سيّد نوح وقتل نحو ثلاثين رجلاً من أتباع ابن الحرفوش وأسر بعضهم وأرسلهم إلى بيروت، فيما نهب العسكر بلاد بعلبك وأحرقوا الكرك وسرعين وغيرهما من قرى آل الحرفوش. ثمّ وصل فخر الدين إلى قبّ الياس وبقي فيها مع أخيه وابنه، وشدّد الخناق على بني الحرفوش، لأنّ الأمير موسى الحرفوشي كان في السابق يسيطر على ما يزيد عن ألف فدّان وأربعين قطيعاً من الماعز في أيام علي باشا بن جنبلاط ومنع أهل الشوف عن الزراعة في البقاع.

ثمّ ضربت البلاد موجةٌ من الغلاء، تلاها وباء، فراح الناس يأكلون من مال الكرسي البطريركي في زمن البطريرك حنا الذي عُرف عنه دأبه على إعانة المحتاجين والمرضى.

وفي السنة ١٦٢٣، اجتمع عسكر ابن الحرفوش وعسكر الشام وبيت سيفا وعرب حمص وغيرهم بما يزيد عن عشرة آلاف رجل، وسار الجميع لمقاتلة ابن معن عند نبع عنجر في البقاع، فهاجمهم الجيش المعني بخمسة آلاف وهزمهم، وبقي مصطفى باشا وحيداً مع نحو عشرة من رجاله، بعدما تفرّق الباقون. ولمّا وصل إليه فخر الدين قبّل ذيل لباسه وعيّن له بلوكباشي لنقله إلى قبّ الياس وأعطى جماعته ألف قرش وأطلقهم. ثمّ أكمل الجيش زحفه نحو بعلبك، فيما توجّه الأمير يونس إلى مدينة حلب.

وأمّا مصطفى باشا فقرّر إعطاء فخر الدين مقاطعات غزة والبقاع وسناجق عجلون وصفد ونابلس وجون، وعاد إلى دمشق، فيما حاصر الأمير المعني قلعة بعلبك. وفي هذه الأثناء قبض مراد باشا صاحب حلب على الأمير يونس بن الحرفوش وحبسه في قلعة سلمية، ولمّا علم

السكمان الذين كانوا معه بذلك، سارعوا إلى تسليم القلعة لفخر الدين الذي أمر بهدمها، وقيل إنّها كانت مبنيّة من حجار عملاقة وعواميد ضخمة. لكن السكمانيّة خرّبوا كنيسة السيّدة التي كانت قرب القلعة وهي لطائفة الموارنة، وقيل إنّ الملك قسطنطين الكبير بناها في عصره. ثمّ انتقل فخر الدين إلى حصن اللبوة الذي كان في يد ابن الحرفوش. والأمير يونس المذكور ذهب إلى حلب ودفع مالاً كثيراً لمراد باشا فأطلق سبيله.

وبعد فترة جاء عمر باشا عبر البحر إلى طرابلس فلم يرحّب به يوسف باشا، فانتقل إلى البترون وأرسل المراسيم السلطانيّة إلى الأمير فخر الدين ليكون مساعداً له إذا ما مانع ابن سيفا، فنزل عنده وكتب الأمير إلى بلاد بشاره والشقيف والشوف والبقاع والجرد والمتن وكسروان بأن يوافيه الرجال إلى عنده في البترون. أمّا ابن سيفا فاستمهله الإجابة بانتظار معرفة على مَن ستتقرّر إيالة طرابلس. عند ذاك هاجم فخر الدين بلاد عجلون ونابلس وهزم ابن طربيه والأمير بشير والشيخ رشيد، وانتقل إلى نهر العوجا بعدما أخضع تلك البلدان. ثمّ وافاه ولده الأمير علي والأمير محمّد وعمّه الأمير أحمد أولاد الشهاب، وقطعوا النهر مع بعض المشاة والخيّالة، ففاجأهم العربان وقتلوا منهم نحو ماية وخمسين رجلاً، ولمّا وصل فخر الدين إلى صيدا أطلق الأمير أحمد بن طربيه إخوته وجماعته وأولاده على بلاد ابن معن فعملوا فيها نهباً وسرقة، فخرج إليهم كيوان آغا شوباصي عكا فهزموه وقتلوا من جماعته كثيرين وغزوا ساحل عكا وجواره، فجرت مراسلات بين الأمير فخر الدين وبين أحمد بن طربيه، وتمّ الاتفاق على أن يرفع الأول سكمانيّته عن برج حيفا، ويوقف الثاني عربانه عن تخريب بلاد صفد، فهدم الأخير البرج وأمّن الطريق بين بلاده وبلاد صفد.

وجاء تقرير سلطاني بأن تكون إيالة طرابلس في عهدة عمر باشا ويعاونه فخر الدين في ذلك، فقرأ الأول الأمر وعرضه على الثاني. وكان عمر باشا مديناً ليوسف باشا بخمسين ألف قرش وهبها للأمير فخر الدين، وعلى الأثر عاد عمر باشا إلى الباب العالي. أمّا فخر الدين فأخرج جيوشه وزحف بها إلى صفد لقتال الأمير بشير، وأسفر القتال عن دخول بشير بيت الطاعة لآل معن فجعله الأمير نائباً لابنه الأمير حسين على بلاد عجلون.

بعد وفاة يوسف باشا بن سيفا (١٦٢٤م) في طرابلس حضر أولاده من حصن الأكراد الأمير محمود، ومن عكار الأمير بلك، ومن جبلة الأمير قاسم الذي اتفق على أن يبقى في طرابلس

محلّ والده. ثمّ نزل الأمير فخر الدين من بعلبك إلى جبّة بشري كما دخل عسكره إلى طرابلس، فتدخّل باشا حلب، ووصل مصطفى باشا بن اسكندر موفداً من الصدر الأعظم حافظ أحمد الوزير وتولّى إيالة طرابلس، وكان تدخّله قاسياً جداً وظالماً على الأهالي، وأعطى عكار للأمير سليمان الذي هجّر أولاد عمّه إلى الحصن.

وفي تلك السنة أنشأ البطريرك يحنا مدرسة لتعليم الأولاد في دير سيّدة حوقا. وعندما تسلّم تدبير الكرسي الروماني البابا أوربانوس الثامن، أوفد البطريرك إليه القس حنا بن قورياقوس الحصروني، وهو الذي ضبط ترجماته إلى اللغات الشرقيّة مع القس جبرايل بن صهيون الهدناني، فرحّب بهما البابا وزوّدهما رسالة يمتدح فيها الموارنة. وفور عودته من روما انتدب القس يحنا إلى درجة الأسقفيّة في دير مار جرجس في بقرقاشا، قبل أن يتوفّى (١٦٢٦م).

ثمّ تقرّر أن يكون الأمير فخر الدين على بلاد بعلبك (١٦٢٥م) فيما كان ابن الحرفوش في حصن اللبوة، ولمّا أيقن الأخير من قدوم ابن معن إلى تلك الناحية انتقل مع عياله إلى حلب. أمّا ابنه الأمير حسن فحضر إلى عمّه فخر الدين فأعطاه الأمان وأسكنه في الحدث، وراح الأمير يونس يذرّ الفتن على فخر الدين، وقال إذا سلّم ابن معن القلاع فعلي قطع رأسه، فأرسله الوزير إلى القلعة، إذ إنّ ابن معن سلّم القلاع، ثمّ أمر بقطع رأس الأمير يونس. ثمّ في تلك السنة انحبس المطر ولم تمطر خلال الكانونين وشباط إلاّ قليلاً، وظهر الجراد في أرض بعلبك والحصن وجون وطرابلس. وفي تلك الأثناء سار مصطفى باشا صاحب طرابلس إلى بيت سيفا الذين كانوا مجتمعين في مرقية تحت قلعة المركب ومعهم الأمير قاسم بن سيفا ويوسف آغا والشيخ علي بن حماده وأعوانهم، فدفعوا له عشرين ألفاً، فعاد إلى طرابلس. إلاّ أنّه بعد قليل طلب من ابن معن أن ينجده بالرجال ليجدّد الحملة على آل سيفا، فجمع الأمير جيشاً عظيماً من السكمان والعربان وأهالي البلاد وزحف بهم من بيروت على البقاع واللبوة والهرمل، وكان الأمير سليمان بن سيفا متحصّناً في صافيتا ومعه نحو أربعة آلاف رجل. فلمّا بلغه قدوم فخر الدين أطلق رجاله وسار بنفر قليل إلى سلمية، طالباً حمى الأمير مدلج البدوي، الذي قبض رجاله على ابن سيفا واقتادوه إلى مدلج الذي كان إلى جانب الوزير حافظ أحمد في بغداد فقوي عليهم الشاه وقتل منهم الكثيرين، وحين عاد الوزير إلى ديار بكر أخذ الأمير مدلج الأمير سليمان وألقاه في نهر الفرات.

ثمّ حاول بنو سيفا إرضاء الأمير فخر الدين وسلّموه قلعة الحصن وقلعة المرقب، فرضي عليهم ومنع عنهم باشا طرابلس، وتزوّج بنت العيس من آل أبي ريشة، وسار معهم إلى الأمير مدلج ودخل مدينة حماة ثم حمص وسلّمهما لجماعته، وعاد إلى بيروت حيث تمّ الصلح بينه وبين الأمير مدلج.

وفي تلك السنة كان القس جرجس متكلّماً عن الموارنة في قرية الكفريات في قبرص، فخدعه الروم وأخذ كنيسة السيّدة التي كان يقوم بالخدمة فيها إلى طاعة أسقف الروم، ليعود القس بطرس خادم موارنة الكفريات ويسترجعها إلى الطائفة المارونيّة بأمر سلطاني بعد ست عشرة سنة. كذلك تمّت سيامة الأسقف يوحنا من بيت قيزوح على مار أليشاع بشري ودير الأحمر.

أقدم حافظ أحمد الوزير على عزل مصطفى باشا بن اسكندر عن إيالة طرابلس وأعطاها إلى عمر باشا باش دفتردار (١٦٢٦م)، ولكن عندما وصل مصطفى إلى ديار بكر قتله الوزير واستأثر بأمواله، فخرج على ناحية الزاوية وطرابلس والكوره الشيخ علي بن حماده وعبدي آغا بأمر من فخر الدين. وبعد عودة حافظ أحمد من بغداد، حلّ في الوزارة خليل باشا، وقاد حملة إلى حلب للهجوم على فخر الدين، وعزل عمر باشا وأحلّ محلّه ابراهيم باشا، فسارع فخر الدين إلى إرسال عبدالله بلوكباشي إلى الصدر الأعظم، مع وعد بإعطاء السلطان المال الوفير وبتسليمه قلعة الحصن وصافيتا وسلمية وشميس. ولمّا تمّ التوافق على ذلك، تحوّلت الحملة إلى الشام.

وفي ذلك العام توفي الأسقف سركيس السمراني، وكان رجل دين مشبعاً بالعلوم ونسخ كتباً كثيرة، ومتعمّقاً باللغتين السريانيّة والعربيّة، فسام البطريرك خلفاً له ابن أخيه الأسقف بولس، كما سام الأسقف يوسف العاقوري على صيدا، والأسقف يوسف البلوزاني على مدينة بيروت.

وفيه أيضاً أنّ الخوري يوسف ابن الخوري حبيب نفض كنيسة السيدة في بشعله وبناها قبواً.

ولمّا تولّى الأمير فخر الدين إيالة طرابلس (١٦٢٧م) حفر ساقية القاع، وعمّر القليعات في أرض في جون طرابلس وغرس فيها ١٤ ألف نصبة توت لتشجيع زراعة الحرير. وفي تلك السنة أيضاً تمّ زواج الشيخ نادر بن الخازن في قرية سمار جبيل على بنت الشيخ أبي الحبيش معتوق.

وبعد سنة جدّد القس حنا بن القس يوسف بن محاسب من قرية غوسطا دير مار شليطا في أرض مقبس، وكان أول الأديرة في بلاد كسروان، وانتقل إليه ابن أخيه القس سركيس الذي كان

مترهّباً في دير مار قزحيا، وتمّ البناء بعونة من أبناء القرى المجاورة.

وفي السنة ١٦٢٩م ارتسم إسحق الشدراوي أسقفاً على مدينة طرابلس، وهو ممَّن تعلّموا في روما وفي مدرسة الطائفة المارونيّة هناك، وكان ضليعاً في العلوم الإلهيّة والطبيعيّة.

ثمّ سار فخر الدين بعسكر إلى مدينة بعلبك (١٦٣٠م) قاصداً قلعة تدمر وأخذها من أيدي حكام الشام. وفي الساعة الثالثة فجراً من الخامس من شهر تشرين الثاني، وكان يوم أحد، حدث زلزال عنيف هدم البرج الوصطاني بأركانه الأربعة، وشرع الشيخ أبو نوفل معتوق في إعادة بناء القلعة في ما بعد.

أمّا السنة ١٦٣٢م فشهدت هجمة مسيحيّة على التملّك في جبّة بشري في ظل حكم الشيخ أبي صافي، حيث كثر النسّاك وعُمّرت الكنائس والأديرة، وسكن الرهبان الفرنج في دير مار يعقوب الحباش في إهدن، والكبوشيون في دير مار قبريان إهدن ودير مار توما حصرون، والكرمليون في دير مرت مورا إهدن ودير مار أليشاع بشري إلى بعض الحبساء.

في العام ١٦٣١م وصلت مراكب كثيرة للفرنج إلى شواطئ عكا وصور والرملة وطرطوس طلباً لشراء القمح، وكانت الغلّة شحيحة والأسعار مرتفعة جداً، وكان الأمير فخر الدين يعاونهم في ذلك، وهذا ما حمل حرس البحر العثماني على إرسال جيوش بهدف المحافظة على السواحل.

ثمّ دخلت مراكب إلى ميناء طرابلس، ومن هناك إلى بيروت وصيدا وعكا وقبرص، وقامت محاولة للتصدّي لهم، لكن الأمير لم يسمح بذلك، إلاّ أنّ القشلق انتشر في بلاد الشام. ولمّا توجّه فخر الدين من صيدا إلى طرابلس خرج إليه الناس طالبين منه منع القشلق عنهم، فأرسل الشيخ أحمد بن حماده مع رجال من السكمانيّة والعرب يعرضون على القشلق مبلغاً من المال مقابل ألاّ يدخل البلاد، فلم يستجب لهم، فأغاروا على جماعته وقتلوا منهم عدداً، فعاد إلى حماة ومنها إلى بلاده.

ثمّ حشد فخر الدين رجالاً من كسروان وجبيل والبترون وبشري والكوره وعكار والضنية والحصن وحبلة واللاذقية وصافيتا والسكمان وتوجّه بهم إلى مصيات ودخل قلعتها، فأقبل عليه المقدّم محمّد بن شلهوب من قرية فقرو والمقدّم رزق بن عمر من قرية مناب، فأعطاهما ما أقنعهما بالعودة أدراجهما. وفي هذه الأثناء اشتبك ابن الأمير علي مع الأمير أحمد آل قانصوه والشيخ رشيد وأخيه مقلد ولدي بشير، وظفر بهم. ولمّا بلغ الخبر فخر الدين أمر بتسريح العسكر، ثمّ

سار برجال كسروان، ومعه الشيخ أبو نادر برجال جبيل والشيخ صافي برجال بشري، والمقدّم علي برجال البترون وأمراء الفيدار برجال الكوره والشيخ أحمد بن حماده برجال عكار والحصن وصافيتا وجبل الكلبين، وتوجّه بهم إلى صفد، لأن ابنه علي كان يقاتل عرب قانصوه وبشير وأتباعهما في بلاد قبله، فلمّا شاهدوا حجم القوى التي جاء بها فخر الدين طلبوا الصلح. وقبل أن يفرّق الجيوش بنى فخر الدين مغارة الحمام في بلاد صفد.

وكان الأمير فخر الدين (١٦٣٢م) أَوّلى مدينة بيروت اهتماماً خاصاً فأقام فيها الحدائق وبرج الكشاف والحوش... كما عمّر القسّان فرح وحنا الشمالي كنيسة السيدة وكنيسة مار انطانيوس في قرية درعون في بلاد كسروان. وفي تلك السنة توفي الأسقف يوحنا الحوشبي في روما في الدير الذي صُلب فيه مار بطرس، بعدما كان تعلّم في روما، وأوجز كتاب مار توما الملفان في اللغة العربيّة ونادى في تسليك حساب جديد. وحين كان في حلب قامت عليه طوائف النصارى وحاولوا إحراقه ومثل أمام المحكمة مُظهراً حكمة كبيرة، خصوصاً في المساءلة والمجادلة بخصوص حسابات الصيام والفصح، فلم يظهر ما يوجب إدانته فأُطلق سراحه، بعدما كانت النار قد اشتعلت لزجّه فيها. كذلك جدّد الشيخ أبو عماد جميّل كنيسة مار عبدا في بكفيا على يد المعلّم حنا الشامي، كما عمّر البطريرك حنا بن مخلوف كنيسة كفرزينا باسم السيّدة مرت موره ومرتي برباره...

وكان الأمير فخر الدين في هذه الأثناء (١٦٣٣م) قد أقام الكثير من الحصون واهتمّ بالعمران وأعدّ العساكر، الأمر الذي أقلق السلطان مراد فأمر بتجريد حملة لضربه، بقيادة كجك أحمد باشا. وفي شهر أيلول من تلك السنة انطلق جيش الدولة من مدينة دمشق واجتاح بلاد ابن الشهاب وغزا وادي التيم. وعمل في تلك البلاد نهباً وحرقاً وقتلاً، قبل أن ينزل إلى قرب الخان الجديد تحت حاصبيا.

بلغ خبر الغزوة السلطانيّة إلى الأمير علي بن معن وهو في صفد، فسارع إلى الخروج برجاله إلى بانياس، ثمّ هاجم فجراً جيش الدولة فسقط في المعركة مع مَن معه. ثمّ وصل جعفر باشا قبطان البحر بأساطيله إلى طرابلس وبيروت وجمع جيشاً عظيماً، وهاجموا فخر الدين عبر البرّ فهُزم جيشه، فأدخل عياله إلى قلعة نيحا ولجأ الأمير مع الشيخ أبي نادر وسرور آغا وأبي علوان وأبي صافي إلى مغارة جزين. وأكمل كجك أحمد زحفه إلى صيدا وأعطى الأمان للأمير يونس

بن معن، ولكن لمّا حضر أمامه قتله، كما هزم ابنه الأمير ملحم.
ثمّ اجتاح جيش الدولة بلاد الدروز واحتلّوا القلاع ونهبوا وقتلوا، وقبضوا على الأمير حسين بن الأمير فخر الدين وجماعته وأرسلوه مع الشيخ أبي نوفل نادر الخازن إلى حلب لعند الوزير، وحاصروا قلعة نيحا ومغارة جزين حصاراً شديداً وقطعوا المياه عنهما واحتلّوا القلعة. أمّا مغارة جزين فقد استدعوا الحفّارين الذين عملوا في أعلاها وفي مدخلها حتى تمكّنوا من دخولها وأخرج كجك أحمد الأمير فخر الدين وكبّله مع أولاده منصور وحيدر وبلك، ومع الشيخ أبي نادر ويوسف آغا واقتادهم إلى الشام. وقد تمّ تحرير أبي نادر الخازن وسرور آغا مقابل مبلغ من المال، فيما تمكّن الشيخ أبو نوفل نادر من الهرب. وأمّا فخر الدين وأولاده فأُرسلوا إلى اسطنبول أمام السلطان حيث أدلى الأمير بدفاعه وبأنه لم يُقاتل إلاّ العصاة، ولم يحشد عسكراً إلاّ بقرارات من الوزراء والنوّاب لأجل أمور الإمارة، وأنّه سلّم القلاع التي انتزعها من العصاة إلى السلطنة، وهذا ما أقنع السلطان ورغب في إطلاق فخر الدين وأولاده.
إلاّ أنّ الأمير علي بن علم الدين اليمني حكم الشوف واعتقل أعياناً من آل معن وقتلهم وسلب أموالهم وأرزاقهم، ولمّا استضافه أعيان قرية عبيه من آل تنوخ على الغداء قتلهم عن آخرهم وكانوا سبعة أمراء.
لكن الأمير ملحم بن يونس لم يستطع تحمّل ما يجري، فجمع عسكره وسار إلى اليمنيّة في المقيرط فوق مجدل معوش حيث قتل كاخية كجك أحمد في معركة تسبّبت بسقوط نحو أربعماية قتيل من الطرفين. وعندما هزم ابن علم الدين لاذ بدولة الشام وعاد منها بنجدة إلى قبّ الياس، فتوجّه إلى قتاله الأمير ملحم بنحو خمسماية رجل، لكنه وقع في كمين في قبّ الياس وقُتل من العسكر الكثير وعاد الأمير ملحم بمَن بقي معه واختبأ في بلاد الشوف. ولمّا بلغ الباب العالي ما فعله الأمير ملحم، انقلب السلطان مراد على الأمير فخر الدين وأمر بقتله مع أولاده الصغار.
ثمّ توفي البطريرك يوحنا بن مخلوف الهدناني في الخامس عشر من شهر كانون الأول من تلك السنة في قرية كفرزينا في زاوية طرابلس ونُقل جثمانه إلى دير قنوبين. وقبل أن توافيه المنيّة بساعات، أبدى للحاضرين استياءه من الفتنة والحرب اللذين دارا بين آل سيفا وآل معن، ثمّ خلفه البطريرك جرجس بن عميرة من إهدن. وجاء في وثيقة مكتوبة ومحفوظة في بكركي أنّ

فتنة وقعت بين المسلمين فقبضوا على المطارنة ونهبوا الأديرة والكنائس في جبل لبنان، وهرب الكثير من المطارنة. ثمّ دخل ابن مارون إلى قبرص وقُدّمت ضدّه شكاوى بأنه يجبي المال من الرعيّة ومَن لا يدفع يقع عليه الحرم، فأرسل البطريرك إليه توبيخاً وهدّده بالحرم إن لم يرتدع.
وبعد وفاة فخر الدين تولّى آل سيفا إيالة طرابلس ونال محافظتها قاسم باشا بن يوسف باشا، وجاءه أمر من السلطان مراد بالسفر إلى بلاد العجم، فلم يستجب له بعض أعوانه فسافر مع قلّة منهم، ثمّ لمّا اشتدّ عليه الضغط ادّعى الجنون، وعند ذاك عاد العسكر إلى طرابلس واجتمع أعيانها وحكموا لإبن أخته الأمير علي بن محمّد فتولّى المدينة لنحو شهرين، قبل أن يهاجمه خاله الأمير عساف بن يوسف باشا ويهزمه من طرابلس إلى بيروت. وهناك اجتمع الأمير علي مع حسن آغا وحرّضا ابن علم الدين الدرزي وتكتّلوا جميعاً وزحفوا من طريق الجرد فاحتلّوا المنيطرة وبلاد جبيل، فتصدّى لهم الأمير عساف مع آل حماده واستعادوا المنيطرة، وأحرقوها وقتلوا الشيخ أبا جمال الدين سياله وابن أخيه أحمد من بيت المستراح.
ثمّ حشد المقدّم زين الدين بن الصواف رجاله واتحد مع الأمير علي السيفلي وساروا عبر الجرد إلى قرية إيعال على نهر رشعين في بلاد الضنية، فواجههم الأمير عساف وآل حماده وحاصروهم في إيعال، فلم يتمكنوا منهم لأنّ الأمير علي والمقدّم زين الدين قتلا الشيخ كنعان بن قانصوه حماده مع جماعة كبيرة من أتباع الأمير عساف وحملوا رؤوسهم إلى طرابلس.
وبذلك حكم الأمير علي بن محمّد بن عساف بلاد البترون وجبيل التي ساد فيها الظلم والنهب وفي إيالة طرابلس وفرض على الأديرة ضريبة مضاعفة، وأرغم رؤساء الكهنة والكنائس على الإقرار بأملاك آل معن، وحمّل الناس ما يزيد عن طاقتهم، فهجر بعضهم قراه وقصد البعض الآخر السفر عبر البحر. كذلك هرب القس حنا بن بهينا الاجبعاني من دير مار مارون في كفرحي بضغط من ابن سيفا، كما حذا حذوه الأسقف جرجس بن مارون الذي فرّ إلى قبرص ثمّ عاد إلى إهدن حيث مات ودُفن في دير مار يعقوب.
كذلك توفي أفتيشيوش كرمه بطريرك الملكيّة وخلفه أفتيميوس الساقزي، وتردّد أنّ كرمه توفي مسموماً لأنّه كان يريد تغيير حساب الصوم لجعله متوافقاً مع الكنيسة الرومانيّة، وهو الذي نقل رتب الكنيسة من اللغتين السريانيّة والروميّة إلى العربيّة.
السنة ١٦٣٥م تولّى إيالة طرابلس مصطفى باشا النينشنجي، ففوّض حكم جبيل والبترون

والضنية إلى الأمير علي السيفلي، وجبّة بشري إلى الشيخ أبو كرم يعقوب بن الريس الياس الحدثي وأبي جبرايل يوسف الهدناني وعكار والحصن إلى بعض أقاربه. ولمّا أمره السلطان بمهاجمة الشاه الذي احتل مدينة أزوان (ويقال أرزون) فوّض محافظة البرّ إلى الأمير عساف بن سيفا، وتحرّك السلطان مراد وتحصّن مصطفى باشا في طرابلس، فسارع ابن أخته الأمير علي إلى مهاجمة أميون ونهبها في يوم عيد رمضان. وتردّد في ذلك الزمان أنّ وحشاً دخل من باب التبانة في طرابلس إلى الجامع وطاف في الأسواق وجرح نحو خمسين شخصاً غير البقر والخيل ومات معظمهم بداء الكلب.

ثمّ هاجم الأمير على قرية أميون وهزم أهلها الذين فرّوا إلى طرابلس، فنهبها، فجمع الأمير عساف السكمانيّة والعرب وخرج إلى مقاتلة علي ابن أخته والتقيا في أرض عزقيه (ويقال عرفه) فهُزم علي ومعه المقدّم محمّد بن علي الصواف اللذان سارا إلى عند ابن علم الدين اليمني. وأمّا الأمير علي فكان ترك أولاده ونساءه في برج سير في الضنية، فجمع الأمير عساف والمتسلّم الرجال وتوجّهوا إلى البرج فحاصروه وقبضوا عليهم وأرسلوهم إلى عكار. لذلك نزل المتسلّم إلى طرابلس وتوجّه الأمير عساف بعسكره إلى البترون، ومنها إلى جبيل.

إلاّ أنّ الأمير علي عاد من بلاد الدروز لمقاتلة خاله الأمير عساف في قرية اعناز من بلاد الحصن، فتغلّب عليه وقتل الكثيرين من جماعته وأسر الأمير عيسى العذري.

وفي ذلك العام توفي القس نصرالله بن شلق العاقوري الذي تتلمذ في روما وأوصى بأن تُنفق أمواله على بناء مدرسة للموارنة في راوونا، وأوكل محلّه القس جبرايل بن عواد الحصروني، وساعده في ذلك الكاردينال كابّون بمبلغ أربعة آلاف وستماية سكوت، وأقيم جبرايل مسؤولاً عنها، قبل إغلاق هذه المدرسة ونقل تلامذتها إلى مدرسة الموارنة في روما السنة ١٦٦٤م، وفق البطريرك بولس مسعد.

وتلاحقت الحوادث والتطوّرات في شكلٍ سريع طوال العام ١٦٣٦م، إذ وقع خلاف بين أهل الغرب حول جعل بيروت لابن علم الدين اليمني أو أحمد آغا الشاملي على خلفيّة التأخير في سداد مال السلطان، ووقف سنجق صفد وتسلّم بيروت والمقدّم ابن أبي لمع والأمير عساف بن علم الدين إلى جانب الشاملي، فهُزم اليمني ونزح معه أهله والفلاحون من بلاد الغرب والجرد والمتن والشويفات والشحّار ومَن كان معه، إلى بلاد كسروان ونهبوا قرية بكفيا. ثمّ تكاثر أعداء علم

الدين فهزموه وقُتل الشيخ أبو فارس بن حبيش، ودارت معركة في المروج قُتل فيها الشيخ حمزة بن القاضي وأخرجوهم من كسروان حتى بلاد عكار، حيث اجتمعوا مع عسكر علي بن سيفا. أمّا عسكر الدولة فسار على طريق الساحل ودخل طرابلس، ثمّ دخل طربوش البدوي في الصلح ما بين الأمير عساف وابن أخته علي وتمّ التوافق بينهما في قرية المنية.

وفي شهر تشرين الأول من تلك السنة تساقط على أرض الزاوية بردٌ عظيم قيل إنّ الحبّة منه بلغت مثقال أوقيّة، عقبه حرٌّ شديد حتى شهر كانون الأول، وضربت البلاد مجاعة قاسية وارتفاع هائل في أسعار الحبوب التي ندر وجودها.

وفي السنة إيّاها وقع الصدام ما بين كجك أحمد باشا والشاه فقبض الأخير على أحمد وقتل من جيشه نحو خمسين ألفاً. حيال ذلك جاء قبجي بأوامر سلطانيّة إلى إيالة طرابلس يطلب الذخيرة للسلطان مراد، وكانت السنة شهدت قحطاً وقلّة ومجاعة، فثار الناس وهجموا على دار المتسلّم ورجموه بالحجار، ففرّ النائب محمّد أفندي من أمامهم، وتصدّى لهم أنصاره بالسيوف لمنعهم عن دخول البوّابة، ودخل مرتضى آغا متسلّماً بأمر من مصطفى باشا كاتاجاج ونادى بالأمان والطمأنينة والهدوء، وأعطى حكم بلاد جبيل والبترون إلى الشيخ علي والشيخ أحمد ولدي قانصوه، وبلاد عكار إلى الأمير عساف.

وفي ذلك العام أيضاً ظهر الأمير ملحم بن معن، فيما كان الأمير علي بن سيفا وخاله الأمير عساف في بيروت، فجمع المعني رجاله وهاجم ابن علم الدين وهزمه وطرده من بلاد الشوف وتولّى حكمها. ثمّ حشد أمراء آل حرفوش رجالهم من السكمانيّة والعرب بهدف استعادة بلاد بعلبك، لكن عسكر الشام تصدّى لهم وهزمهم وأوقع فيهم عدداً كبيراً من القتلى.

كما قصد متسلّم برجال أحمد باشا التولّي على إيالة طرابلس فتصدّى له كاتاجاج ومنعه عن دخول المدينة فعاد إلى حماة، ثم أرسل علي آغا وبعض أعوانه للاجتماع في قرية بقرزلا في عكار بالشيخ أحمد، فيما يتفق مصطفى باشا مع السيفليّة ويمنعوا مَن يحاول السيطرة على إيالة طرابلس، وكان أولاد سيفا الأمير عساف والأمير علي موافقين على ذلك، فقتلوا الشيخ أحمد حماده أبو قانصوه وعلي آغا ومَن معهما. ولمّا علم بذلك مصطفى باشا تراجع ليلاً إلى حصن القليعات، ودخل المتسلّم المدينة ومعه أمراء بيت عساف والأمير علي.

وقع الخلاف ما بين آل سيفا وبرجال أحمد بسبب إيالة المال، فهزم الشيفيين من عكار إلى

صافيتا. ثمّ جرت معركة بين آل حماده والأمير اسماعيل الكردي ومحمّد بن يوسف آغا، فوقعت الهزيمة على بيت حماده، وتولّى ابن يوسف آغا بلاد البترون وجبيل.

أمّا برجال باشا فأمعن في ظلم الناس في إيالة طرابلس وامتدّ نفوذه إلى حمص وحماة فجار على العباد بتحميلهم مفرق طاقتهم. ثمّ دخل السلطان مراد إلى حلب، وعاد من بلاد الفرنج الشيخ أبو نادر، الذي زاره مرحّباً الشيخ علي بن حماده، فيما توجّه الأمير عساف بن يوسف باشا إلى جبيل حيث سكن فيها لثلاثة أشهر.

وفي هذه السنة ١٦٣٦م أيضاً، وقعت فتنة بين رهبان دير مار قزحيا والقس حنا بن إسحق البري من غوسطا وكان يسكن في دير مار ميخايل نتيجة خلاف على الماء، وسار البري إلى غزير حيث كتب عرض حال لدى شاد بك بن هارون ضدّ الرهبان ضمّنه اتهامات باطلة وقدّمه بواسطة أمّ وهيبة من دلبتا للأمير عساف الذي كان في جبيل آنذاك. عندها أرسل الأمير بلوكباشياً مع أبي موسى سعيد بن دغيم من عكار إلى الرهبان في دير قزحيا يطلب منهم المال، فنصحهم أبو كرم شيخ الجبّة بأن يقبلوا بدفع خمسين قرشاً فلم يرضوا بذلك، ما حمل الأمير على رفع المبلغ إلى ما فوق الأربعماية قرش. ولمّا امتنعوا عن الدفع تمّ توقيف الأسقف بولس وأخيه القس سمعان واقتيدا موثوقَين إلى جبيل، حيث لاقيا العذاب الشديد بأمر من الأمير عساف، حتى ابتُزّ الأسقف بأربعة آلاف قرش تحت التعذيب.

ثمّ وقعت الفتنة بين الأمير عساف وابن أخته علي، وهزم ابن علم الدين من قلعة الشقيف، وتمّ الوفاق بينه وبرجال أحمد باشا، وبين الأمير وآل مدلج الحيارى، كما تمّ عزل برجال عن إيالة طرابلس، فالتقى ابن علم الدين والأمير عساف في حارة الأكراد بقرية الحصن وغادر إلى مرج بعرين. أمّا الأمير فزحف في أثرهم إلى صافيتا وجبل الكلبية، وإلى كفرطاب في أرض حماة، وإلى الحصن في بلاد صافيتا، وصولاً إلى مصيات. ثمّ اصطحب معه ابن مدلج الحيارى وسارا ليلاً فلحقا بالأمير علي في خريبة الجنطوا وحاصراه فيها، فتوسّط معهم بعض البلوكباشيّة وأصلحوا الأمر بين الثلاثة، فخرج عساف بعسكره إلى البقيعة والأمير ملحم إلى بلاد الشوف.

حيال هذه التطوّرات والحوادث جاء شاهين باشا إلى البقيعة حيث تلقّى العديد من الشكاوى على آل سيفا فاتّهمهم بتخريب البلاد، فيما سارع الأمير عساف إلى استرضائه بتقديم الخيل والذخيرة له، فخلع على كاخيته وأمّنه، ولمّا قدم إلى عنده أمر برفعه إلى قلعة الحصن، ثمّ علّقه

على البوّابة. ثمّ سار شاهين باشا إلى السيفليّة وأتباعهم وأوقع فيهم العديد من القتلى واستباح ممتلكاتهم وأموالهم، ولم ينجُ منهم إلاّ بعض الخيّالة. كذلك أغارت الدولة على آل عساف وأنصارهم وقبضت على قاسم باشا المجدوب وأولاده ونسائه، وشنّت حملة مداهمات وتفتيش في القرى والأديرة بحثاً عن ودائعهم وأموالهم وأرزاقهم. كما داهم علوان آغا والأمير اسماعيل مع رجالهما دير قنوبين ليلاً ولم يجدوا أي شخص من آل سيفا، فكبّلوا الرهبان واقتادوهم إلى بشري، فاضطُرّ البطريرك إلى دفع ستين قرشاً لإخلائهم.

وفي تلك السنة ولّي الأمير علي بن علم الدين الدرزي على حكم بلاد الشوف من قبل نائب الشام، ففرّ مشايخ آل الخازن وآل حبيش إلى بلاد جبيل خوفاً منه. كما ترك الأمير علي بن سيفا كلّ ما كان له في طرابلس وذهب إلى الشوف خوفاً من شاهين باشا.

وحصل أنّ السلطان مراد خان وصل إيالة حلب (١٦٣٨م) في طريقه إلى بغداد فتألّب إليه أصحاب الإيالات والحكم من بلاد الشام وغيرها، أمّا علي بن علم الدين فعصفت به الخشية ففرّ إلى بلاد بشاره، فاجتمع إليه أولاد علي الصغير وبعض أعيان اليمنيّة وآخرون من صفد وجبل البقيعة وعكا ووالية قبله، فهاجمهم ابن معن وهم في قرية أنصار وقتل منهم جماعة كبيرة، فاستجار ابن علم الدين بمتسلّم مدينة الشام وزحف قاصداً الأمير ملحم، وفرّ أمامه أهل الشوف والغرب والمتن والجرد وبلاد الدروز.

ثمّ حاصر الأمير عساف مدينتي حمص وحماة أثناء وجود الأمير طربوش في الشام، فقدم من هناك عبد الرحمن آغا بأوامر شريفة تقضي بفصل بلاد جبيل والبترون وجبّة بشري عن مدينة طرابلس وضمّها إلى تبعيّة الشام. وعندها انسحب الشيخ علي بن حماده من طرابلس إلى الكوره مع أعيانه، لأنّ شاهين باشا كان مسافراً، فيما جاء ابن يوسف آغا شعلي بن زين الدين وحسن آغا وحكما جبيل والبترون وبشري.

وفي هذه السنة أيضاً شبّ حريقٌ كبير قضى على نحو خمسين ألف شجرة زيتون في كفرعقا وكوسبا وبصرما وأميون.

وفي السنة ١٦٣٨م توفي الحبيس سركيس بن موسى الرزي مطران دمشق، وكان تعلّم في روما، وخلفه في محبسه أخوه البطريرك يوسف مطراناً على الشام. وفيها أيضاً أغار الشيخ سرحان بن قانصوه وجماعة من بيت حماده على علي زين الدين بن سيف الدين في قرية مشان وقتلوه،

وحلّ محلّه في المشيخة الشيخ أبو محمّد سرحان، وتمّ تعيين أحمد آغا الشمالي حاكماً على صيدا وبيروت ونواحيهما، لكن ابن علم الدين أوقع به في خلده وقتله.

أمّا الحدث الأبرز فكان أنّ السلطان مراد فتح مدينة بغداد، وعزل شاهين باشا عن إيالة طرابلس وحلّ فيها درحق محمّد باشا.

ثمّ توفي المطران عبدالله الإهدني (الهدناني) (١٦٣٩م)، وسيم على إهدن القس الياس بن حنا من آل الصراصرة الذي تعلّم في دير مار انطانيوس قزحيا، فسار إلى القدس وجاهد هناك نحو عشرين سنة.

ثمّ عُزل محمّد باشا بن درويش وتسلّم بعده محمّد باشا الأرناؤوط، وقبل أن يدخل إلى طرابلس، هاجم الأميران سليمان ومحمود وبعض خوارج السيفليّة بلاد عكار والضنية وفرّ منهما مشايخهما، وطرحوا الصوت في طرابلس وهاجموهما في الضنية، لكنه هزمهم ولاحقهم حتى قلب المدينة، إلاّ أنّهم جمعوا صفوفهم وعادوا إلى قتالهما وهزموهما، وحكمت الدولة البلاد، وحكم الأرناؤوط بالعدل والإنصاف، وكان كاخيته مصطفى بك بن الصهيوني وولاّه الشيخ علي بن حماده والمقدّم علي بن الشاعر والأمير اسماعيل من راس نحاش، ما عدا آل سيفا وأبو كرم شيخ الجبّة.

وأمّا الأمير بن علم الدين فسار إلى عند باشا الشام، ونال رضاه لمهاجمة مشغره فنهبها وانتقل إلى بيروت حيث استقرّ فيها. وفي السنة عينها توفي السلطان مراد باشا في اسطنبول وجلس على عرش السلطنة ولده السلطان ابراهيم.

وفي السنة ١٦٤٠م توفي القس يوحنا بن القس يوسف المحاسب باني دير مار شليطا في غوسطا. وفي هذه السنة جمع الأرناؤوط الأمير اسماعيل الكردي ومبعد بيت الشاعر ومشايخ بيت حماده إلى الدولة، وهاجموا الشيخ أبو كرم الحدثي القائم على جبّة بشري لأنه رفض التقدّم معهم إلى الباشا، فقبضوا على ابن عمّه سعد فيما تمكّن هو من الهرب. لكن العسكر اقتحم الأديار والضياع بحثاً عنه، فاضطُرّ البطريرك جرجس إلى استصدار مرسومين من الباشا وفيهما أوامر بمنع التطاول على دير قنوبين. غير أنّ أبو كرم نزل طوعاً إلى الشاطئ الطرابلسي لوقف الاعتداءات التي يقوم بها العسكر، فأمر الباشا بوضعه في القلعة قبل أن يخرجه منها بعد مدّة ويأمر بالتطواف به على ظهر جمل في أنحاء طرابلس، وتمّ تعذيبه

فعرضوا عليه إشهار إسلامه فرفض ومات تحت وطأة التعذيب.
أسفرت المعركة بين الأمير سليمان بن سيفا ودولة الباشا عن فوز الأوّل وتهجير خصومه إلى عكار (١٦٤١م) وذلك أثناء وجود الأرناؤوط في حماة، كما فرّ العسكر من أمامه إلى طرابلس.
وكان مع الأمير سليمان الشيخ حمدان بن الشعار من فاريا وهو على قربى مع الشيخ علي بن حماده، فنزل المدينة وطلب الخراج من يمين الدين كاتب ديوان الباشا ووكيل خراجه فامتنع الأخير عن إعطائه إيّاه، وعند ذلك قتل يمين الدين وولده مصطفى. وعلى الأثر جمع زلفي آغا رجاله وهاجم حمدان في قرية حردين قرب البترون، فهزمه ونهب عسكر الدولة الكفور وحردين وقتلوا مَن أمسكوا به من رجال حمدان وميخائيل ابن المطران.
وفي تلك السنة توفي الشيخ علي بن قانصوه بن حماده ودُفن في طورزيا، وتمشيخ محلّه الشيخ أبو محمّد سراحان على آل حماده.
ثمّ هاجم الأرناؤوط مع الأمير عساف آل مدلج الحيارى الأمير طاهر سلطان العرف وطارده حتى سلمية، قبل أن يتمّ الصلح بينهما. وأثناء عودته إلى طرابلس فرّ آل حماده من وادي علمات ومن بلاد جبيل وقُتل الشيخ محمّد ياغي بن قمر الدين حماده وصعب بن حيدر وآخرون، وولّي على بلاده ابن علم الدين.
وفي تلك السنة انحبس المطر طوال شهري الكانونين وضرب داء الجدري الأطفال وكان شديداً عليهم.
ثمّ جرّدت العساكر العثمانيّة حملة على البنادقة (أي على أهل البندقية في إيطاليا) في جزيرة كنديا، بذريعة أنّ النصارى قبضوا على أخ السلطان وعمّه أثناء انتقالهما بحراً إلى عكا. وكان أخوه قد اعتنق النصرانيّة وفق ما تردّد وحمل اسم عبد الأحد وسيم كاهناً.
وفي تلك السنة أيضاً توفي الشيخ أبو جبرايل بن الشماس جرجس الهدناني بعدما ترأس مشيخة جبّة بشري لعشرة أعوام، وخلفه أخوه الشيخ أبو ديب حنا. ثمّ قام الشيخ أحمد العرّاك بقتل مشايخ آل حماده، وتولّى حكم الجبّة المقدّم زين الدين بن الصراف، يعاونه أبو عدن بن الغمة من بكفيا، وولّي الشيخ أبو رزق الترتجي على أرزاق آل الأرناؤوط.
إلاّ أنّ أوامر سلطانيّة من الباب العالي قضت بتسليم الأرناؤوط صيدا وبيروت، فأرسل الأخير كاخيته زلفي آغا لتسلّمهما، وكان الأمير ملحم بن معن في الشوف وابن علم الدين في بلاد

البترون. ثمّ أغار الأمير علي بن علم الدين على الشيخ سرحان بن حماده في قرية غباله من فتوح جبيل ونهبها وقبض على أولاد سرحان وأولاد أقاربه وقتل خمسة منهم. وأمّا الشيخ سرحان فطرح الصوت على أهالي غزير، لكن الرجال اجتمعوا عليه من جبيل والبترون ومعهم الأمير اسماعيل والمقدّم علي وبيت حماده وهجروا سرحان من إيالة طرابلس وقبضوا على بعض أتباعه.

وفي تلك السنة اشترى الأسقف يوسف العاقوري من الشيخ أبو حبيش أرض مار يوحنا حراش في درعون، وبنى عليها كنيسة باسم السيّدة وعمّر ديراً لسكن البنات اللواتي يقصدن خدمة اللّه وبلغ عددهنّ ثلاثين راهبة، وترأست عليهنّ الحجّة رفقة بنت القس حنا المحاسب.

على أثر هذه التطوّرات والحوادث المتلاحقة تمّ عزل محمّد باشا الأرناؤوط عن إيالة طرابلس (١٦٤٤م) وتولاّها حسن باشا، وبعد رفع شكوى إلى الباب العالي أوفد محرّراً هو كاتب الولاية أجرى إحصاء شمل البشر والشجر والبيوت والخانات، لكنّه ما إن أنجز مهمّته وذهب حتى أبطل الباشا كل ذلك وسار على خطى الأرناؤوط وزاد الضرائب على الناس حتى اشتدّ ظلمه على العباد، ففكّر الكثيرون في الهجرة.

أقام حسن باشا الشيخ أبو رزق الترتجي حاكماً على جبّة بشري (١٦٤٤م)، وفي السنة تلك توفي الحبيس فرنسيس، الفرنسي الهويّة، الذي جاء إلى جبل لبنان السنة ١٦٣٢م واستحبس أولاً في سيّدة حوقا، ثمّ انتقل إلى إهدن وحبس نفسه تحت دير مار يعقوب الحباش، ثمّ إلى دير مار سركيس رأس النهر عند الأسقف جرجس بن عميرة، وخلفه الأسقف الياس وسكن دير مار سركيس، فإلى دير أليشاع بشري.

كذلك توفي البطريرك جرجس بن مخايل بن عميرة الهدناني وكان عالماً بارعاً وتأدّب على يد خاله القس يعقوب الدويهي في اللغة السريانيّة الذي أخذه معه إلى روما حيث اكتسب النحو والأصول والمنطق والهندسة والكتب الإلهيّة وتعلّم اللغات السريانيّة والعربيّة والعبرانيّة والتوسكانيّة (الإيطاليّة) وأظهر أقدميّة السريانيّة على سائر اللغات، قبل أن يعود إلى كرسي إهدن ويثبت فيها ثلاثة وثلاثين عاماً. وخلفه في الكرسي الرسولي يوسف مطران صيدا ابن الأسقف بطرس العاقوري. كذلك رُسم المطران يوسف بن عميمة الكرمداني على مدينة دمشق، والأسقف ميخايل بن سعاده الحصروني على مدينة طرابلس.

وفي العام ١٦٤٥م سمّي أولاد الحسامي مشايخ مدينة جبيل انكشاريّة من السلطان فعمّروا القلعة والسور. وفيها أرسل البطريرك يوسف العاقوري القس عبد المسيح بن الياس بن الطويل الحدثي والقس بطرس بن مخلوف الغوسطاوي لرمي الطاعة للبابا زخيا العاشر وتهنئته بالدرجة البابويّة وطلب التثبيت على جري العادة فنالاه وعادا به إلى البطريرك العاقوري في السنة ١٦٥٦م، كما تمّ تجديد كنيسة مار سمعان العامودي في غوسطا.

وبعدما عُزل حسن باشا عن إيالة طرابلس أعيد إليها محمّد باشا الأرناؤوط وجعل كاخيته الحاج قمر الدين وابن الصهيوني، وجاءت معه سنة محل (١٦٤٥م) وأتلفت الأمطار المواسم والغلال وبينها موسم القز بسبب تلف أشجار التوت. لكن على الرغم من ذلك فرض الأرناؤوط ٢٤ قرشاً على كلّ فدّان من الأرض وعلى كلّ الرجال، فحلّ في الناس ضيقٌ شديد ونزح كثيرون من طرابلس إلى بعلبك وكسروان وغيرهما. وسرعان ما أُسقط الأرناؤوط عن إيالة طرابلس (١٦٤٧م) وحلّ مكانه محمّد باشا الصوفي، لكنه لم يكمل السنة في الإيالة ليعود الأرناؤوط ثالثة إليها، ويغرق الناس في الغلاء والبلاء. وفي تلك السنة كانت وفاة الشيخ أبو نادر بن أبي صقر بن الخازن كاخية الأمير فخر الدين المعني والذي رفع شأن النصارى في أيامه وبُنيت الكنائس والأديار، وخلفه ابنه الشيخ أبو نادر نوفل وكان سرّ أبيه في الغيرة والمكرمات، كذلك خلع السلطان ابراهيم بسبب شغفه بالنساء وأقيم ابنه السلطان محمّد مكانه الذي قُتل بعد مدّة يسيرة.

وفي السنة ١٦٤٨م رُسم القس جرجس بن حبقوق من بشعله على العاقورة مطراناً وسكن في دير قنوبين، ثمّ توفي البطريرك يوسف العاقوري الذي عُرف باحتضانه العلماء واهتمامه ببناء الكنائس والأديار بعد ١٨ سنة في الرئاسة على صيدا وبلاد الشوف. ثمّ اجتمع الرؤساء وأعيان الشعب في دير قنوبين واختاروا الأسقف يوحنا من بيت البواب في الصفرا في جبيل خلفاً له. تكراراً تمّ عزل الأرناؤوط عن إيالة طرابلس (١٦٤٩م) ليحلّ مكانه صهره عمر بك، وتكراراً أيضاً عاد الجراد فأتلف المواسم وضرب الغلاء كلّ البلاد. وفيها رُسم الأسقف سمعان من سمار جبيل على دير مار انطانيوس قزحيا. وفي السنة ١٦٥١م كانت الواقعة بين بشير باشا ومَن معه من الأشوام والأمير ملحم بن معن الذي انتصر عليهم، وضمن بلاد البترون من عمر باشا وأعطاه الشيخ أبو نوفل، وكُتبت إمرية الحاج علي بن الصهيوني فتوجّه إلى نابلس وسمّي

مصطفى باشا، فيما توفي الأسقف يوسف البلوزاني ودُفن في دير مار شليطا مقبس، والشيخ يونس بن سليمان حبيش.

ثمّ عُزل عمر باشا عن إيالة طرابلس ليعاد إليها ثانية حسن باشا ويسلّم قيادته إلى الشيخ أبي رزق الترتجي (١٦٥١م) الذي كان يلتقي مع المقدّم علي بن الشاعر والأمير اسماعيل الكردي على عداء بيت حماده منذ أيام عمر باشا، فاستقوى عليه ابن الصهيوني واحتلّ محلّه في الكوخنة، وهُزم من طرابلس وسيطروا على أتباعه وأرزاقه. وكاتب أبو رزق الأمير ملحم بن معن فأعطاه إيالة عكار وحكمها عبر حسن آغا أبو دية، لكن الشيخ سرحان طرده منها، واستأثر بحكم جبّة بشري أبو شاهين علي بن العجّال من بشناقا.

وفي تلك السنة اهتمّ الأسقف الياس الهدناني بتوسيع كنيسة زغرتا، وفتح سوق القلعة الشرقي فوقها وأقام فيه ثلاثة مذابح، كما توفي الأسقف سمعان السمراني، في وقت كانت حلب تحت حكم بشير باشا.

وبعد عزل عمر باشا عاد الأرناؤوط إلى حكم طرابلس (١٦٥٢م) واتخذ الشيخ أبا رزق كاخيته وفوّض إليه كلّ شؤونه، ووضع بلاد عكار والزاوية والضنية والجبّة بيد أخيه الشيخ أبي صعب، والكوره بيد الشيخ سعيد بن علي حماده، وبات أبو رزق في أعلى مراتب الوجاهة والنفوذ في طرابلس ونودي باسمه شيخ المشايخ وفوّضه الأرناؤوط أمور ديوانه فحسده كثيرون واتهموه بأمورٍ كثيرة، وأبرزها أنّ البلاد الاسلاميّة لا يجب أن يكون عليها رجلٌ نصرانيّ وأوعزوا عليه صدر الأرناؤوط حتى قبض عليه وزجّه في القلعة. عندها نهب خصومه داره واستباحوا ماله وقبضوا على أولاده ومَن معهم وقيّدوهم بالحديد وكان عددهم نحو تسعين شخصاً. ولمّا وصلت أنباء عزل محمّد باشا عن إيالة طرابلس وحلول قره حسن محلّه، توجّه الأرناؤوط إلى حماة لتحصيل المال وأخذ معه أبا رزق وسجنه في السرايا التي بناها هناك وطالبه بدفع ١٢ ألفاً باقية له معه.

وعندما أخذ قره حسن إيالة طرابلس (١٦٥٣م) ودخل حماة ونزل في السرايا بلغه خبر سجن الشيخ أبي رزق مع جماعته وكان يحبّه كثيراً، فأقدم على دفع ما كان على أبي رزق دفعه إلى ابن الصهيوني فأطلق سراحه، لكن في هذا الوقت وصل قبجي مطالباً برأس أبي رزق استجابة للشكاوى المرفوعة بحقّه. لذلك أشار حسن باشا والصهيوني على أبي رزق بأن يعتنق الإسلام

فلا يُقتل، فقبل بذلك على مضض، وأعطوا القبجي ألف قرش فذهب راضياً. وعندما قدم حسن باشا إلى طرابلس مصطحباً معه أبا رزق ضمن منه جبلة واللاذقية، وقبل ذهابه لاستيفاء المال أوصى أخاه أبا صعب بأن يأخذ أولاده ويذهب بهم إلى منطقة تحت حكم ابن معن، ولمّا استهول حسن باشا فعلتهم أقدم أبو رزق على الزواج من إمرأة موسى باشا ليزيل عنه الشبهة.

وفي جزيرة قبرص حلّ في الحكم محمود باشا القرماني بعد عزل درويش باشا، وكان القرماني رجلاً أعور أكتع أعرج ظالماً، امتدّ ظلمه إلى كلّ البلاد ورفع الأسعار والضرائب وكان معه نحو مايتي رجل، فقاتل الانكشاريّة والصباهيّة وغلبهما وأخذ منهما الخراج، كما من النصارى الذين سلب منهم أموالاً طائلة. ثمّ أغار على الكاف أو الباق ففتحها وقتل الكثيرين من أهلها، وشهدت أيام حكمه شحّاً في الأمطار واجتاح الجراد الجزيرة.

وفي السنة إيّاها ضرب مرض الطاعون بلاد الشام وقضى على عددٍ كبير من أهلها الذين لجأ بعضهم إلى زاوية طرابلس وجبّة بشري وسكن بعضهم الآخر في الضنية. وفيها توفي الأسقف يوسف بن عميمه الكرمسداني، وسيم خلفاً له المطران يعقوب الرامي على دمشق وسكن قنوبين.

السنة (١٦٥٤م) عُزل حسن باشا من طرابلس ودخلها محمّد باشا الكبري فأعطى حكم البترون إلى المقدّم علي بن الشاعر الذي استخدم في المدينة الأمير اسماعيل الكردي والحاج سعيد بن حماده، فنفرت الناس منهما بسبب تردّد أولادهما وجماعتهما على طرابلس، وقام ابن الباشا بطردهم حتى أطراف الزاوية، وانتزع أسلحتهم وهزم الأمير اسماعيل والحاج سعد إلى الكوره. أمّا السلطان فسلّم أختام الوزارة إلى بشير باشا نائب حلب فالتفّ حوله أصحاب الغايات، الأمير علي بن علم الدين ومصطفى بك الصهيوني بهدف ضرب الأمير ملحم بن معن الذي هزمهما في قرية القرن. ثمّ كان الوزير قاصداً اسطنبول ومعه علم الدين والصهيوني وعسكر كثير، ولمّا وصل إلى أدنة أمر بقتل الشيخ أبي رزق الترتجي بناءً على شهادة علم الدين والصهيوني بأنه كان من حزب ابن معن وأنّ أخاه أبا صعب كان حاضراً إلى جانبه في واقعة وادي القرن وأنّ أخاه وأولاده ساعدوا أبا رزق وعضدوا ابن معن، فأخذوه إلى أرض في حلب وقتلوه في مدينة قونية بالسيف.

وعندما وصل الوزير إلى اسطنبول تردّد أنّه عازم على عزل أرباب الدولة هناك وإقامة بعض

أنصاره مكانهم في مراتب الانكشاريّة وآغاويّة القول، فهجم عليه بعضهم قاصداً قتله، فلاذ إلى داخل سرايا السلطان، لكن المهاجمين لم يرتدّوا حتى أمر السلطان بقطع رأسه وإلقائه إلى المتمرّدين خارج السرايا، وعيّن بدلاً منه في الوزارة مراد باشا.

وفي هذه الأثناء وقعت الهزيمة على أنصار بشير باشا وعاد ابن علم الدين إلى الشام وليس معه سوى أربعة خيّالة، فيما شاعت الفرحة العظيمة في بلاد الشوف. وأمّا الأمير ملحم فأرسل ثلاثين ألفاً مع محمّد آغا بن القهوجي إلى الوزير مراد باشا لإرضائه، ونال على ذلك سنجقيّة صفد، التي توجّه إليها الأمير المعني مع ولديه الأميرين أحمد وقرقماس. ثمّ أخذ الشيخ أحمد بن محمّد عباده بن قانصوه حكم جبّة بشري بسعي من الأمير ملحم والشيخ أبو نوفل بمبلغ اثني عشر ألفاً.

في السنة ١٦٥٤م تعاون الخوري جرجس بن الخوري رزق اللّه البجاني، مع أهالي قرية بيت شباب، وبنوا كنيسة مار جرجس رزق في حردق، وسقط من علوّ القبو المعلّم ابراهيم والعامل أبو موسى إلى الأرض وعلى الصخر لكنّهما لم يصابا بأذى. لكن الأذى الكبير حمله مرض الطاعون الفتّاك إلى تلك النواحي وأمات الكثيرين.

ثمّ آلت إيالة طرابلس إلى علي الكبري (١٦٥٥م) وبسبب قلّة المال وقع الخلاف بين المعنيين ما أدّى إلى ارتحال الأمير اسماعيل وعياله من تلك الإيالة إلى عند الأمير أحمد الذي أعطاه مدينة صور. وفي تلك السنة رُسم الأسقف جرجس من بيت شدك ليكون مساعداً للبطريرك في قنوبين، ووُضع دير قزحيا في عهدة الأسقفين يعقوب العنتاري وابراهيم السمراني.

كذلك بنى يوسف البردوط بن القس آصاف من عرمون كسروان كنيسة مار عبدا هرهريا في أطراف فتوح جبيل، وانخرط إخوته إندراوس وانطانيوس وحنا، وأختهم رفقا، وكذلك والدهم إلى سلك الرهبنة ووهبوا أموالهم وأملاكهم إلى الدير.

وسرعان ما تمّ عزل مراد باشا من الوزارة العظمى، وتسلّم الأختام محمّد باشا الكبري، الذي ولّى محمّد آغا الطباج على إيالة طرابلس (١٦٥٦م) واسماعيل آغا على صيدا وبيروت وبشمق محمّد آغا على صفد، وضمن المقدّم فارس بن مراد بن اللمع جبّة بشري من الطباج.

وفي تلك الحقبة شاعت السمعة الحسنة عن حافظ قنصليّة الطائفة الفرنسيّة في مدينة حلب فرنسيس بيكت لوفرة كرمه وبراعته في التعاطي مع الحكّام والطوائف في بلاد الشرق، وقصده

اغناطيوس شمعون بطريرك اليعاقبة فنقده جملة آلاف من الدراهم، وكتب إلى البطريرك يوحنا لكي يرسل إليه أسقفاً اسمه القس إندراوس أخيجان الذي كان يعقوبياً من مدينة حلب قبل أن يهتدي إلى معرفة الحق. ولكي يتمّ تثبيت هذا الأخير في الأمانة أرسله البطريرك يوسف الصفراوي إلى صحبة الأولاد في مدرسة الموارنة في روما، حيث بقي ثلاث سنوات.

وبعدما تمّت رسامة الأسقف جرجس بن الحاج رزق اللّه من قرية بسبعل على سيّدة قنوبين، توفي البطريرك حنا الصفراوي وكان رجلاً ورعاً تقيّاً طاهراً، فاجتمع رؤساء الكهنة وأعيان الطائفة واتفقوا على إقامة الأسقف جرجس من بشعلة، لكنّه امتنع وفرّ إلى عند الرهبان، فأخرجوه عنوة، ثمّ غافلهم وهرب ثانية واختفى في الوادي برفقة أخيه. ولمّا يئسوا منه انتخبوا الأسقف جرجس رزق اللّه المذكور وأجلسوه على الكرسي الرسولي (١٦٥٧م)، الذي سارع بإرسال المكاتيب إلى البابا اسكندر السابع مع البادري يوحنا الكرمليطي الذي كان في دير أليشاع بشري، لكنه توفي مع دخوله إلى روما، فتأخّر تثبيت البطريرك حتى السنة ١٦٥٩م. وقيل إنّه في تلك السنة ظهرت الأفاعي في أرض بسكنتا وقتل الناس نحو ثلاثة آلاف حيّة منها. وفيها توفي الأسقف بولس السمراني باني كنيسة مار الياس في عربة سرعل.

سار الأمير ملحم وأولاد وطائفة اليزبكيّة من بلاد الشوف والمقدّم مراد بن اللمع وأهل الجرد والغرب بنحو ألف وخمسماية رجل إلى ناحية بكفيا طالبين الحكم على بلاد من نهر الصفا إلى جسر المعاملتين، ونزل الجميع إلى عند الأميرين علي ومنصور أولاد شهاب. وفي هذه الأثناء (١٦٥٧م) أعطي الطباج إيالة طرابلس فأعطى عكار والجبّة للمقدّم فارس بن اللمع، والبترون للمقدّم علي بن الشاعر بوساطة من الأمير ملحم، واستوفى الأموال الشيخ أبو نوفل الخازن. وأمّا الحاج حسن بن الشاطر فأُلقي القبض عليه ونُهب بيته وأُرغم على دفع نحو عشرين ألف قرش.

ثمّ توجّه الأمير ملحم إلى صفد لجمع الأموال، لكن المرض داهمه واشتدّ عليه فتمّ نقله إلى مدينة صيدا حيث وافته المنيّة، فاجتمع أولاده والأعيان من سائر البلاد في تشييعه، لأنّه كان أميراً جليلاً ورحيماً.

كذلك توفي الأسقف بولس السمراني الذي عانى الكثير من الأمير عساف.

وفي السنة ١٦٥٨م أُعطيت إيالة طرابلس إلى قبلان باشا، فجمع نحو ألفي رجل من رجال الدولة وعرب وزحف بهم على البترون وبلاد جبيل، فلم يظفر بأحد منهم لأنهم كانوا سبقوه وانتقلوا

إلى بلاد كسروان، فعمل في قراهم وبيوتهم تخريباً كما خرّب جوارهم في قرى وادي علمات، قبل أن ينزل إلى جبيل ويستولي على مخازن الحبوب الخاصة بأهالي كسروان وقيمتها نحو ثمانية آلاف قرش.

وعلى الأثر أعطى الباشا بلاد البترون إلى المقدّم علي بن الشاعر بسبعة عشر ألف قرش، وجبّة بشري باثني عشر ألفاً، وأعطى أولاد معن خمسة آلاف ليكونوا إلى جانب المقدّم علي والشيخ أبو قانصوه. كما أقام جاور أغلي على بلاد جبيل، والمقدّم فارس بن المقدّم مراد على بلاد عكار، وعاد إلى طرابلس. وأمّا آل حماده فكانوا يزرعون الفوضى والقلاقل حتى أبواب طرابلس ويعودون للاحتماء في كسروان ووصلت أخبارهم إلى الباب العالي، وقبض محمّد آغا على جاور أغلي وقتله بسبب عجزه عن دفع بدل جبيل. كذلك كتب أهالي الشام شكوى في حق الأمير علي والأمير منصور أولاد شهاب وعبد الاسلام وبعض آغوات الشام لإدارتهم البلاد. ولمّا وصل مرتضى باشا إلى إيالة الشام، اجتمع عليه المتسلّم السكمانيّة وأولاد شهاب بما يزيد عن سبعة آلاف رجل، ومنعوه عن الدخول إلى مدينة طرابلس.

وفي تلك السنة حلّ القس سركيس بن الجمري من إهدن في رئاسة كهنوت الشام، فور عودته من فرنسا حيث عمل على ترجمة اللغات الشرقيّة.

على أثر الشكاوى التي رُفعت إلى الباب العالي من آل شهاب وآل حماده، أوفد الوزير الأعظم محمّد باشا (١٦٥٩م) ولده أحمد باشا الكبري إلى إيالة الشام، بعدما أناط إيالة طرابلس بقبلان باشا ومحمّد الأرناؤوط بصيدا وبيروت. ثمّ أرسل ابن الكبري الرسائل إلى سنجق صفد وابن طربيه البدوي وابن أحمد باشا إلى غزة وباشة القدس، وإلى بني يمن لكي يحشدوا الرجال ويهاجموا بني قيس، فقُتِل المقدّم علي بن الشاعر الذي طلع مع رجال البترون، ثمّ مات الأمير علي بن علم الدين بسبب جرح أصابه في واقعة وادي القرن.

لذلك زحف أحمد باشا بخمسة عشر ألف رجل من الشام إلى سعسع، ومعه ابن الصهيوني والأميران محمّد ومنصور أولاد علم الدين وغيرهم، فراسله أمراء آل شهاب متعهّدين بدفع المال وإبطال الركبة فرفض، ما دفعهم إلى تهريب عيالهم قبل التوجّه بنحو ستماية رجل إلى أطراف كسروان واجتمعوا مع آل حماده. ثمّ وصل ابن الكبري إلى وادي التيم وهدم منازل آل شهاب في حاصبيا وراشيا واقتلع أشجار التوت في مرجعيون ووادي التيم والبقاع التي قُدّرت

بنحو خمسين ألف شجرة. بعدها سُلّم حكم وادي التيم إلى أولاد علم الدين والمقدّم زين الدين وابن أخيه عبداللّه، قبل أن يسير إلى قبّ الياس، وكاتب الأميرين أحمد وقرقماس أبناء معن يطلب الشهابيّة والحماديّة، فيما بعث بالشوابصة إلى بلاد صفد وبلاد بشاره وصيدا وبيروت لجمع الرجال. وهكذا جمع أبناء معن نحو سبعة آلاف رجل وصعدوا بهم من بعقلين إلى عين زحلتا في أعلى بلاد الشوف ولم يعد يفصلهم عن الباشا إلاّ الجبل، لكن آل حماده وآل شهاب لم يسيروا معهم لأنهم كانوا مطلوبين، وأبلغوا ابن الكبري بأنهم لم يدخلوا بلاده. فأجابهم الكبري بأنه يريد مبلغاً كبيراً من المال الذي خلّفه لهم والدهم وتمّ الاتفاق على نحو النصف، مع وضع الأمير قاسم من الشويفات والمقدّم شرف الدين من حمانا رهينتين إلى أن يتمّ دفع المبلغ كاملاً في الشام بعد أربعة أشهر. وحينئذ رجع أحمد باشا إلى الشام وأخذ معه ابن أحمد بك باشة غزة فقتله وفرض على أهله مبلغاً من المال وكذلك على ابن طربيه.

وأمّا قبلان باشا فتوجّه إلى الهرمل ومنها إلى طرابلس، قبل أن يُقبض عليه ويُقتل لأنه كان إلى جانب أولاد معن عند توجّههم إلى عين زحلتا (١٦٦٠م).

وفي تلك السنة توفي الأسقف الياس بن الحاج حنا الهدناني وخلفه على كرسي إهدن الأسقف بولس بن القس بولس بن القس عبيد الدويهي واتخذ من دير مار سركيس مكاناً لسكنه. كما توفي بطريرك اليعاقبة اغناطيوس شمعون في مدينة دمشق، وعاد القنصل بكيت بأمر شريف من اسطنبول بجعل ديونيسيوس إندراوس (أخيجان) بطريركاً على الملّة اليعقوبيّة وسمّي اغناطيوس، إلاّ أنّ الطائفة لم تقبل به إلاّ مرغمة كونه كان تابعاً للكنيسة الرومانيّة، وذلك بعدما تكفّل بدفع كلّ الديون المترتّبة على الكنيسة، ويحرّر ما كان مرهوناً لها... أمّا القنصل فلم يبخل بشيء ممّا يحتاجه البطريرك، ورسم أخاه روحيجان مطراناً على حلب ولُقّب بديونوسيوس ورمى الطاعة للكرسي الروماني فجاءه التثبيت كاملاً.

وبذريعة تأخُّر الأمراء المعنيين عن سداد المال المتوجّب عليهم إلى السلطنة العثمانيّة كاملاً، أوفد الوزير الأعظم ابنه إلى المرجة للانطلاق بهجوم عليهم وحشد العساكر من غزة وطرابلس وأولاد علم الدين، وانتقل بهم إلى مرجعيون. ولمّا شاهد آل معن هذا الحشد الضخم، انتقلوا إلى قهمز حيث تشاوروا مع آل شهاب وحماده، وأطلقوا رجالهم وعسكر السكمانيّة واللاوند على أن يذهبوا إلى عند الأمير كنعان عساف الحيارى. أمّا الأمير قرقماس المعني والأمير آغلي والأمير

منصور فتواروا مع عسكرهم في حلب، فيما قصد الأمير أحمد التخفّي في جرود كسروان. عندها سارع الشيخ سرحان بن عماد شيخ الباروك مع مشايخ الشوف، إلى الاتصال بابن الوزير وإبلاغه أنّ أمراء بيت معن وأمراء بيت شهاب قد فرّوا من كلّ البلدان، ولم يعد هناك ما يوجب خراب البلاد، واقترحوا عليه إقامة حاكم يضع عليهم مبلغاً مقبولاً من المال لأجل خدمة العسكر، فقبل وعيّن الشيخ سرحان بن عماد حاكماً على الشوف، ومحمّد آغا على كسروان، وبلاد الغرب والجرد والمتن لآل علم الدين، ووزّع على كلّ مقاطعة عشرين ألف قرش. ولكي يكسر نفوذ العرب جعل صيدا باشويّة بإمرة علي باشا الدفتردار.

كذلك سعى ابن الوزير الأعظم إلى القبض على الأمير أحمد بن معن فأمر قبلان باشا بالسعي وراءه برجال من جبيل والبترون وكسروان والشوف، وأن يحرقوا حارات بيت حماده واللمع والخازن ومعن ويقطعوا أشجار بساتينهم وحقولهم. من أجل ذلك أخذ قبلان معه صالح آغا الكاخية وبني يمن وزحف بهم إلى عين صنّين والجوزات وقهمز والمنيطرة، وأرسل أبناء علم الدين إلى وادي علمات ففتّشوا حرش مشمش ولحفد وبلاد جبيل والبترون وجبّة المنيطرة والعاقورة، ولمّا اطمأنّ ابن الوزير إلى خراب تلك البلاد أمر بتسريح العسكر وعاد إلى الشام. ونتيجة ما حلّ بالبلاد في تلك الحقبة من تخريب وتدمير وقطع أشجار وحرق المواسم بأمر من ابن الوزير الأعظم، حصل في السنة التالية (١٦٦٢م)، أن ضربت المجاعة السكان كما فعل مرض الطاعون فعله، إضافةً إلى ما لحق بالنصارى من مظالم وقهر وتنكيل.

ثمّ وضع علي باشا الدفتردار يده على كنيسة مار جرجس خارج ومنع النصارى عن ارتيادها وسمح بالآذان فيها بعد أن حوّلها جامعاً.

ومع عزل علي باشا عن إيالة صيدا وتولية محمّد باشا، كتب الأخير إلى الأميرين المعنيَّين قرقماس وأحمد بأنّه يعطيهما الأمان ويريد إعادتهما إلى تولّي بلادهما على غرار ما كانا عليه سابقاً، وأوفد كاخيته إلى عين مزبود للقائهما وليس معه سوى سبعة رجال، فنزل الأميران للقائه فقُتل قرقماس لكن رجاله لم يتمكنوا من أحمد. وعند ذلك أعطى الباشا محافظة البلاد للأمير محمّد بن علم الدين والشيخ أبي علوان القيسي من الباروك، فيما لم يظهر أي أثر للأمير المعني الفار أحمد، ووقع ظلمٌ كبير على بلاد طرابلس، وضرب الغلاء الفاحش البلاد وأرغمت الحاجة الناس على التشتّت والهجرة.

وكأنّما ما حلّ بالبلاد في تلك السنة من نكبات لم يكن كافياً لتأتي السنة ١٦٦٥م، إذ ضربتها هزّة عظيمة هدمت الكثير من المنازل وقتلت العديد من الأشخاص، لاسيّما في الشوف وغيره، وقيل إنّ عدد الضحايا فاق الألف شخص.

توالت النكبات على البلاد في ظل ولاية الشرحي على إيالة صيدا وقيل إنّ كوكباً ظهر ما بين الجنوب والغرب يشبه السهام، فتسبّب في ضرب التوت والجوز والزرع والقحط في الكثير من المناطق. كذلك حصلت الواقعة ما بين اليمنيّة والقيسيّة عند برج بيروت حيث قُتل المقدّم عبد اللّه بن قيتبيه بن الصواف وعددٌ كبير من الجانبين، وأسفرت عن هزيمة اليمنيين الذين فرّوا إلى بلاد الشام، وتولّى الأمير أحمد على بلاد الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان (١٦٦٧م).

وفي السنة ١٦٦٨م توفي سركيس بن الجمري مطران الشام وهو في فرنسا ساعياً إلى إعطاء قنصليّة للشيخ أبي نوفل الخازن في بيروت، فدُفن في مدينة مرسيليا. كما ولّي المطران يوحنا التولاني من بلاد البترون على مدينة صيدا، واختاره البطريرك ليكون مساعداً له في دير قنوبين.

وفي هذه السنة انتقلت الويلات إلى إيالات الشام وأهلك الطاعون نحو ماية وأربعين ألف نفس. كذلك قدم أربعة أشخاص من فرنسا طالبين التنسّك في محابس في لبنان وتوزعوا على مغارة مار شليطا في دير مار آسيا بقرية كفرصارون، ودير مار انطانيوس فوق دير قنوبين، ودير مار آبون في الحدث.

وفي السنة المذكورة، احتلّ السلطان محمّد جزيرة قريطش والمدينة بعد حصارٍ دام سبعة وعشرين عاماً.

بعد وفاة البطريرك جرجس بن الحاج رزق اللّه (١٦٧٠م) بمرض الجذام، ارتفع إلى السدّة البطريركيّة المطران اسطفان الدويهي في سنة كانت بالغة الصعوبة بسبب جور الحكام والوباء الخطير الذي استشرى في السواحل والجبال وقضى على الكثير من الأهالي، فأجمع رؤساء الكهنة والأديار وأعيان البلاد على الدويهي الذي أوفد إلى روما القس يوسف الحصروني لأجل الطاعة والتثبيت فتمّ له ذلك في السنة ١٦٧٢م من البابا قليموس. ومع بداية عهد الدويهي أصدر الباب العالي أوامر بإبطال الخمور في اسطنبول ودمشق وحلب وصيدا وسائر الإيالات

وأُهرقت دنان الخمر وحُطّمت أوانيه...

وتعاقبت الحوادث والكوارث على المناطق اللبنانيّة، بدءاً بفتنة ما بين الأميرين عمار وابن عمّه علي من بني الحرفوش، فاستنجد الثاني بدولة الباشا وهزم الأول مع الأميرين شديد ويونس ونهب أرزاقهم وأحرق دورهم وتولّى على بلاد بعلبك.

ثمّ ثار الأمير فارس بن شهاب على آل حيمور في البقاع وقتل منهم عدداً كبيراً، فاستنجد هؤلاء بدولة الشام واجتمعوا مع الأمير موسى بن الأمير منصور وإخوانه الشهابيين واقتحموا وادي التيم وأحرقوا حارات الأمير يونس وضياعه.

ولم تسلم مدينة مكة هي الأخرى، إذ هاجمها ملك الهند ونهب عائدات الحج وقتل مَن كان فيها من العثمانيين. ثمّ حصلت الوقيعة على طريق الحج بين ابن الرشيد أمير العرب ودولة الشام، فقُتل موسى آغا بن حسن التركماني، وكانت سنة قاسية على الناس.

استمرّت النكبات المختلفة تضرب البلاد والعباد والأرزاق، إذ في السنة ١٦٧٣م عبر شهرا تشرين الأول والثاني من دون أن تسقط قطرة مطر واحدة، فبار موسم القز في السواحل وأصابت الأمراض الأشجار والزرع حتى في الجرود والكوره، لاسيّما موسم القمح.

وفي السنة تلك توفي لوقا مطران الأفقسيّة في قبرص وولّي الصباهي على كلّ أملاكه. وفيها أيضاً عُزل محمّد باشا عن إيالة طرابلس وحلّ مكانه حسن باشا وردّ إلى آل حماده مقاطعاتهم وعاملهم بالحسنى، لكن الجشع ضرب هؤلاء بسبب حاجتهم للمال فنهبوا قرى وخرّبوا وقتلوا بعض أهالي عشاس على نهر رشعين.

عند وصول الشيخ أحمد بن قانصوه إلى طرابلس لأخذ حكم الجبّة، أدخله حسن باشا مع ولده موسى إلى القلعة، وقبض على الشيخ محمّد بن حسن ديب وسجنه لعجزه عن دفع مال الضنية كاملاً وأرسل أمين دولته ابراهيم آغا إلى محافظة جبّة بشري وعيّن بدلاء عن هؤلاء (١٦٧٤م).

ثمّ جاء الشي ملك فرنسا عبر اسطنبول لزيارة القدس، فاشترى كنيسة مار يوحنا في عين كارم وسلّمها إلى رهبان القدس، ومرّ بجبل لبنان مع جملة قناصل. كذلك تمّ انتخاب القس بطرس بن مخلوف الغوسطاني على مطرانيّة الأفقسيّة في قبرص بحضور رؤساء الكهنة جرجس بن حبقوق وبولس الهدناني ويوحنا التولاني.

وفي أواخر تشرين الأول من تلك السنة سقط مطرٌ عظيم استمرّ لنحو عشرين يوماً وأحدث

سيولاً جارفة دمّرت العديد من المنازل والأملاك، ورافقها ثلجٌ كثيف وبردٌ شديد مات من جرّائه أشخاص بسبب الصقيع، حتى بيع طبق زبل البقر بربع قرش لاستخدامه للتدفئة في المواقد.
بعدما استقرّت إيالة طرابلس لحسن باشا، ولّي اسماعيل باشا على صيدا، وحسين باشا على دمشق، ورُفعت يد الشيخ سرحان عن بلاد جبيل والبترون الذي نادى بالهجوم على آل حماده لعجزهم عن سداد المال كاملاً، فأرسل مع الكاخية نحو تسعماية رجل عن الدولة واليمنيّة نحو الجرد (١٦٧٥م) فهزمهم تحت لاسا ففرّوا إلى عين النقير بعدما قُتل منهم شخصٌ واحد وأربعةٌ من الدولة حتى حلول الليل. ثمّ أقام الباشا وليمة لأهل دولته، وكان بينهم الشيخ أبو طاهر بن الحاج يوسف والحاج باز بن أبي رعد، وأبو عساف مدلج بن شريف، وابن أبي زيدان وغيرهم من أولاد العرب، فأمر بحضور الشيخ أحمد وابن الحمادية وأتباعهم، فانقضّوا على نصارى بلاد جبيل ونهبوا بيوتهم وقتلوا منهم ثلاثة عشر شخصاً وأحرقوا حصرايل ونهبوا بلاد البترون والجر وسيطروا على الجبّة، فتشتّت النصارى ورحل قسمٌ منهم إلى المدينة. وعند ذلك قبض المقدّم قيتبيه بن الشاعر على مشايخ القرى وسجنهم في جبيل حتى إكمال المال، وجاء أمر من الباب العالي إلى باشا دمشق وباشا صيدا لكي يقدّما النجدة إلى باشا طرابلس ضدّ العصاة، فخرج الأخير إلى طريق حدث الحديد وجبّة بشري. ولم يكد يبلغ جبّة المنيطرة حتى تشتّت عسكره ونفق قسمٌ من بغاله ففشل في بلوغ بعلبك. ثمّ اجتمع نواب الشام وصيدا وطرابلس، ومعهم نحو خمسة آلاف سكماني وعرب، قرب قبّ الياس بهدف الهجوم على ابن معن ثمّ على بيت حماده، فرحل أهل الشوف والبلدان القريبة إلى سواحل البحر. لكن اسماعيل باشا امتنع عن أذيّة أهل بلاده وشكر لابن معن دفعه المال، وحضّه على جمع عسكره وعدم الخشية من أحد. وهكذا اجتمع أولاد العرب والأمراء الشهابيون في دير القمر، وكان عددهم نحو أربعة آلاف. وأرسل الباشاوات إلى ابن معن طالبين مشايخ آل حماده، فأجابهم بأنهم ليسوا عنده.
ولمّا علم أنّ المشكلة كانت على عشرين كيساً من المال، بينها ١٤ كيساً كسراً من العام الماضي وستة أخذها سرحان مسبقاً، تكفّل هو بدفع العشرين كيساً كاملة على يد اسماعيل باشا، مقابل الإفراج عن السجناء الرهائن في طرابلس، وهكذا حصل.
ثمّ وصل إلى حاصبيا سنجق جديد على أثر الشكاوى التي قُدّمت ضدّ الأمراء الشهابيين.
ولمّا انصرف العساكر من قبّ الياس، توجّه حسن باشا بكلربكي الشام إلى حاصبيا وسار مع

السنجق لمقاتلة الشهابيين وقتل منهم نحو خمسة عشر شخصاً وتمّت مطاردتهم. كما أرسل باشا الشام خمسمئة خيّال لمداهمة الأمير عمر في الكرك لكنه تمكّن من الهرب.

وفي تلك السنة أيضاً تمّ انتخاب القس يوسف الحصروني على رئاسة الكهنوت في طرابلس، وذلك في حضور المطارنة ومشايخ بيت الخازن وآل حبيش.

في السنة ١٦٧٦م استقرّ الوضع لحسن باشا في إيالة طرابلس فولّى الحاج بن حسن بن الحسامي والشيخ أبو حيدر نمس على بلاد جبيل، والحاج باز بن أبي رعد مع الشيخ مرعب بن الشاطر على البترون، والشيخ أبو كرم الهدناني على جبّة بشري، فوزّع عليهم البيارق وحذّرهم من آل حماده. ولكن عندما استدعي للسفر، استغلّ آل حماده غيابه وعادوا إلى جبيل والبترون وراحوا يطالبون الناس بدفع المال، فمات مرعب الشاطر في سجن طرابلس، والحاج باز في كمين أعدّه له الشيخ حسين بن أحمد في لحفد، وأقيم شرك في جبّة بشري للشيخ أبو كرم فوقع فيه الشدياق أنطون أخو المطران وقتلوه.

مع استمرار الاستقرار لحسن باشا، نزل الشيخ حسين بنحو ثلاثين فارساً إلى زغرتا ليلاً لمداهمة أبو كرم فحصلت مناوشة لم تسفر عن شيء، وحيكت الأقاويل حول ذلك من أنّ السيّدة شكّلت حماية للنصارى وطردت المعتدين عليهم، كما أقدم الآغا على حرق حارة آل كيروز بسبب سرقتهم فرسه.

ولمّا عاد حسن باشا من سفره أبدى استياءه لما وقع في بلاده من خراب، فجمع رجاله واتجه بهم نحو جبيل التي وصلها ليلاً. ثمّ توجّه من هناك نحو الجرد وطلب إلى أولاد العرب أن يلحقوا به، وقبض على شيخ البرباره وقتله، لكنه لم يحظَ بالشيخ سرحان وأنصاره في وادي علمات، وفي طريق العودة أمسك بالحاج حسن بن الحسامي وقبض منه أربعة آلاف، كذلك أمسك بشيخ قرية بخعاز وشيخ غرزوز بسبب تعاونهما مع آل حماده أثناء غيابه. ثمّ أمر بتخريب أملاك آل حماده فتمّ حرق فريقات وعلمات ومشّان وطورزيا والحصون وإهمج والمغيري ولاسا والمنيطرة وأفقا، فيما أحرق آل حماده مزرعة بيت الحسامي واقتلعوا أشجارها. ولأنّ آل الشاعر شاركوا في النكبة، تمّ حرق ضياعهم تولا وعبدالله وبزبينا وسفار وشبطين وكفرحلدا ومصرح. وفي تلك السنة ضرب الطاعون والجدري في تلك الأصقاع.

وفي السنة ١٦٧٧م توفي الوزير الأعظم ابن الكبري في اسطنبول، وتولّى أختام الوزارة مصطفى

باشا مغيّر النواب في مختلف الإيالات، فحلّ محمّد باشا في إيالة طرابلس بدل حسن باشا، وأرسل الكاخية إلى نهر ابراهيم، وكتب بلاد جبيل للشيخ سرحان والبترون لابنه الشيخ حسين وجبّة بشري لحسين بن الشيخ أحمد. وفيها اجتاح الجراد كلّ المقاطعات من سواحل البحر إلى دمشق وحجب نور الشمس لمدّة اثني عشر يوماً والتهم كل ما هو أخضر، حتى الأشواك، ثمّ عشّش في السواحل وأفاق على هجمة جديدة، ووصلت أسراب السمرمر فالتهمت الجراد ومحقته. لكن الشتاء جاء بسيلٍ عظيم غير مسبوق فأمات الشجر والنبات وجعل مناطق من البلاد قفراً، إلاّ من الوحوش.

ثمّ هبّت رياحٌ حارّة تُعرف بـ «الشلوق» فأهلكت موسم القز كليّاً، وغزت البلاد أسرابٌ من الطيور التهمت الحبوب والخضر والثمار واضطُرّ المزارعون إلى مكافحتها بالعصي وبأيديهم. وفي تلك السنة توفي بطريرك السريان اغناطيوس إندراوس أخيجيان في مدينة حلب، وبأمر شريف عُيّن عبد المسيح المارديني على بطريركيّة اليعاقبة، فنكّل بأتباع البطريرك السابق وألزم مَن ترهّبوا على يده بأداء الخراج وغرّم بعضهم وحرم بعضاً آخر منهم وشرّد البعض، واستصدر مرسوماً يمنع اليعاقبة من استقبال أي من رهبان الفرنج في منازلهم، قبل أن يصدر أمر شريف بجعل الأسقف بطرس بطريركاً عليهم، فغادر عبد المسيح عند ذاك إلى بلاده.

ثمّ ولّي على صيدا خليل باشا بن كيوان (١٦٨٠م) وعلى إيالة طرابلس محمّد باشا، وكانت سنة ثلوج كثيفة لم تذب عن الأرض رغم حلول شهر حزيران. وفيها توفي الشيخ أبو نوفل بن الخازن صاحب الصيت الحسن والمعرفة والسخاء وحامل الأوسمة من البابا اسكندر السابع وسلطان فرنسا الأعظم، والذي قامت في أيامه الكنائس والأديار في نواحي كسروان. كما توفي الأمير ملحم خليفة الأمير أحمد بن معن.

وفي السنة إيّاها ضمن الأمير فارس بن الشهاب بلاد بعلبك من دولة الشام وطرد منها الأمير عمر بن الحرفوش الذي توجّه نحو آل حماده. ثمّ هاجم الأمير عمر الأمير فارس قرب نيحا وقتله وقتل خمسة وخمسين من جماعته وهم من أجاويد وادي التيم... كما توفي الأسقف حنا التولاني وتمّ رسم القس بطرس الهدناني ليكون مساعداً في إدارة شؤون الكرسي.

وفي تلك السنة قتل الشيخ الخازن بيه أخيه الأكبر في خلافهما على السلطة بعد موت أبيهما، فتزوّج الخازن بنت أبو نصار حبيش وسكنا في غزير، وحاول الحبشيون استرداد حكم ضياعهم

فأرغمهم على الفرار، قبل أن يلاقي حتفه على أيدي أولاد الشيخ أبو قانصوه في غوسطا.
أطلّ ربيع العام ١٦٨١م بارداً جداً وتساقط البرد بحبّات كبيرة قيل إنّ الواحدة منها كانت أثقل من أوقيّة، وفي حوران نحو أوقيّتين، ما أهلك الشجر والحيوانات والزرع، وتبعها الوباء الذي ضرب إيالة طرابلس لثلاث سنين. ثمّ إنّ باشا حلب قبض على ملحم الظاهر أمير العرب وأرسله إلى الباب العالي، حيث قُتل ورفاقه، وولّي سلطنة العرب العباس. كذلك توفي سركيس البردوط بن المحاسب الغوسطاني رئيس دير مار شليطا الذي أدخل سيرة النسك إلى ناحية كسروان وله مجلّدات كثيرة بخطّ يده، والذي انعزل عن العالم في شيخوخته تاركاً الرئاسة لابن أخيه القس حنا.
وفي السنة ١٦٨٣م توفي المطران بطرس بن القس ابراهيم الهدناني وسيم خلفاً له على مدينة صيدا القس يوسف بن مبارك من رهبان دير ريفون. كذلك توفي الأمير عمر بن الحرفوش في بلاد جبيل، ودُفن في طورزيا كونه كان مطروداً من بلاد بعلبك.
ويقول البطريرك الدويهي إنّه «في هذه السنة، ولتزايد الظلم في جبّة بشري ولعدم التوافق ما بين مشايخ كسروان، توجّهنا في أوّل يوم من أيلول إلى عند الأمير أحمد بن معن وضمنّا من سعادته قرية مجدل معوش وانتقلنا إليها، وكان الحاج جبرايل بن بهينا متوكلاً في دير قنوبين. ثمّ اجتمع أعيان البلاد بعد سنتين وراحوا إلى عند سعادته وأقسموا على أنّه لمّا تتغيّر الأوضاع فسيخرجون جميعاً من البلاد».
ويكمل: «في هذه السنة، بناءً على طلب الشيخ أبو شديد وطلب المشايخ الحبشيّة، أعطينا الإذن للرهبان الكبوشيّة بالسكنة في دير مار الياس في غزير لمدّة خمس وعشرين سنة لا غير، لأنهم أرادوا أن يبيعوهم الكنيسة بثلاث ماية قرش قداديس، فربطنا الكنيسة ومنعناهم عن ذلك، ثمّ سمحنا لهم بالسكنة لا غير وكتبنا لهم ورقة لمدّة خمس وعشرين سنة».
في السنة ١٦٨٤م جرّد السلطان أحمد آل عثمان حملة لغزو بلاد النمسا، وقتل آل حماده أبو نادر شيخ المزرعة في عكار وابن أخت الباشا في حلبا، وبعد عزل الباشا هاجموا القلعة وأخرجوا منها رهائنهم عنوة وقتلوا أربعة أشخاص في بلاد كسروان. وبرفقة الحرافشة وآل حميّة هاجموا عشقوت وقتلوا أحد عشر شخصاً من أهلها. ولذلك توجّه الأمير أحمد بن معن في العشر الأول من أيار بنفسه إلى غزير على رأس نحو خمسة آلاف مقاتل، فيما أبلغ بأن تكون كلّ المقاطعات

التي كانت خاضعة لآل حماده تحت سلطانه. وهكذا اضطُرّ آل حماده إلى الهرب من إيالة طرابلس ودفعوا المال لدولة محمّد باشا ليأذن لهم بدخول بلاد بعلبك. وفور وصول الأمير المعني إلى غزير، أمر الأمير قاسم بأن يفتّش على آل حماده في بلاد جبيل والبترون، وبأن يتحرّك أمراء آل شهاب ومقدّمو بيت اللمع ومشايخ كسروان لغزو جبّة المنيطرة، وكان سردارهم الشيخ أبو قانصوه بن الخازن، فأحرقوا إيليج ولاسا وأفقا والمغيرة ودكّوا منازلها. لكن الكواخي تشفّعوا بآل حماده فعفا عنهم الأمير وعاد إلى الشوف.

ويختتم هذا المخطوط القيّم بالسنة ١٦٨٦م بالقول إنّ الكانونين جاءا تلك السنة دافئين، فيما حلّ شهرا شباط وآذار ومعهما ثلج عظيم وبرد شديد. وفي صوم النصارى ظهر طائر الفرفور وكان كثيراً كثرة الجراد في السواحل والجبال فقضى على النحل والزهور، وهلك دود القز بفعل الصراصير، وكثر الحرقص الذي أكل الزرع والذرة، وضرب الدود الكروم والشجر، حتى السنديان.

وفي تلك السنة هجم مشايخ آل حماده على علي بن أبي نوفل رعد شيخ الضنية وقتلوه، كما قتلوا أبو داغر شيخ حردين وغيرهما، وقبض الكاخية على اثني عشر شخصاً من أتباعهم وقتلهم.

ومع التشارين عاد علي باشا إلى طرابلس، وجاءه أمر من الباب العالي مع عبد اللّه حلبي بن مخايل الفرنجي بالهجوم على الأمير شديد بن الحرفوش لأنّه أحرق قرية رأس بعلبك. فنادى بالهجوم عليه واجتمع إليه الأمير بشير بن شهاب والمقدّم قيتبيه بن الشاعر ورعد شيخ الضنية وابن دندش والحزازرة وزحفوا على بعلبك بطريق الهرمل.

وأمّا الأمير شديد فسار إلى بلاد جبيل واحتمى بمشايخ آل حماده.

وهنا ينتهي المخطوط هذا، وأمّا المطبوع فيواصل سرد الأخبار والحوادث حتى السنة ١٦٩٩م. وفيها جملة عناوين عن تأديب العصاة، هزيمة الأتراك في المجر، إثارة الفتن بين أمراء لبنان، الضرائب، وفاة آخر المعنيين، استشهاد الشيخ يونس البشعلاني، باشا طرابلس يستنجد بالأمير بشير لتأديب العصاة، تعيين قنصل فرنسي في صيدا...